

السود والحضارة العربية

دكتور عبده بدوى



0161571



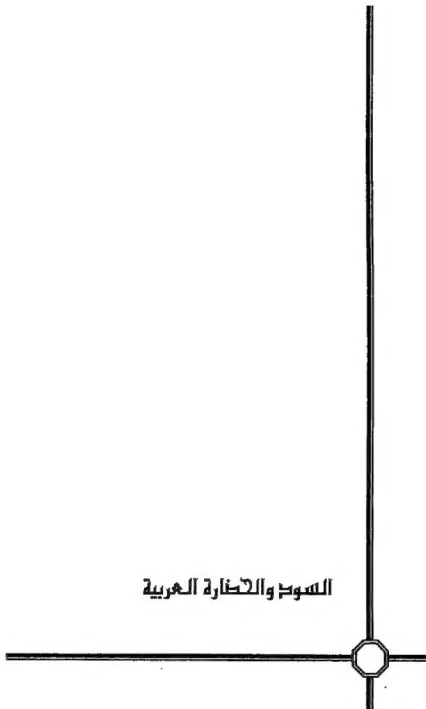
Bibliotheca Alexandrina

دار المخطوطات والنشر والتوزيع

عبد الوهاب عيسى



السود والخطارة العربية



السُّود والحضارة العربية

دكتور عبده بدوى

أستاذ الدراسات الأدبية

الناشر

دار انباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)



الكتاب : السود والحضارة العربية

المؤلف : د. عبده بدوي

رقم الإيداع : ٢٠٠٠/١٥٨٠٢

IS B N : الترميم الدولي

977 - 303 - 295 - 7

تاريخ النشر : ٢٠٠١

النشر : دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع

حقوة الطبخ والترجمة والقياس محفوظة

الإدارة :

٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

٦٣٧٤٠٣٨ / فاكس - ٦٣٦٢٥٦٢

المكتبة :

١٠ شارع كامل صفي الفجالة (القاهرة)

٥٩١٧٥٣٢ / ١٢٢ (الفجالة)

المطابع :

مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)

٠١٥/٣٦٢٧٧٧

www.alinkya.com/kebaa

e-mail: qabaa@naseej.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَكَنِّتٌ

أردت من هذه الدارسة أن أتعرف على موقف الإنسان الأسود داخل الحضارة العربية قبل الإسلام وبعد الإسلام، فالملاحظ أن تاريخ هذه العلاقة لم يلقِ الرؤية من الكتاب، بل أستطيع القول بأنه لم يلقِ الإنصاف.

ولكن هذا إن يخفى حقيقة كبيرة نقول: إن السود لم يكونوا مجرد بقع سوداء عديمة على الخريطة العربية، ومعنى هذا أن الإسلام بسلامته قد فتح لهم الأبواب على مصاريعها، ومعنى هذا أنه رفع عنهم الإصر والخوف وكل ما يفتت روح الإنسان، صحيح أنه كان هناك من يلقى هذه الأبواب الرحبة أو يقارب بين بعضها بعضاً، ولكن هذا لم يحل تماماً دون تألق الإنسان الأسود في بعض الفترات، على نحو ما نعرف من وصول بعضهم إلى الخلافة كابن شكلة، وإلى الإمامة كأحمد الرشيد، وإلى حكم بلد كمصر بأبي المسك كافور، وإلى قيام دول باسمهم كال دولة النجاشية في اليمن، وإلى قيام ثورات رائدة في المطالبة بالعدالة الاجتماعية، كثورة الزنج المشهورة..

.. ونحن ابتداء حاولنا أن نثبت أن الجزيرة العربية إذا كان هناك من ألح على أنها كانت قبل الإسلام ممثلة بأصداء الحضارتين الفارسية والرومانية، فإن هناك حضارة أخرى إفريقية - متمثلة أكثر ما تتمثل في الحبشة، قد كان لها أثر لا يقف إلى جانب الحضارتين الفارسية والرومانية.. ولكنه يتعداهما!

فالأحباش كانوا يوجدون جيراناً، وغزاة، وقوة بشرية كبيرة داخل نسيج الحياة العربية، بل إن خرطوم فيلهم قد مسّ أعز مكان في مكة، ومن هنا فقد كان لتقدم الأحباش في الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً أثر - أي أثر - في أن العرب قد استيقظوا، وطرحوا خلافتهم، ونما عندهم حس قومي فائر لم يحثه تماماً احتكاكهم بالفرس أو بالروم.

.. و انطلاقاً من هذه النظرة وقفت طويلاً عند صلة العرب بالأحباش ثم تكلمت بصفة عامة عن السود من خلال الاسترقاق، والإماء، والاستيلاء، كما تحدثت عن كثرة السود بالجزيرة العربية بعد الإسلام بصفة خاصة، وعن مكانتهم

بين العرب فى الجاهلية والإسلام، وعن مدى اندماجهم، وكيف حدث التصادم معهم بعد الإسلام؟ وإلى أى حد وصل هذا التصادم؟ وفى ضوء هذا وضحت أثر الحضارة الإفريقية فى الجزيرة العربية، واستطعت تقديم وثيقة هامة - وجدتها فى المحيّر لابن حبيب - وهى فى مجموعها توضح مسار العرق الأسود فى الخلية العربية بمكة، كما رفعت ظلماً أوقعه بعض المؤرخين على الإمام الثائر "أحمد الجرائى" وذكرت أن أعظم الانتصارات فى إفريقية قد تمت بعد أن هدأت الفتوحات الإسلامية المبكرة، كما وضحت أن الزعامات الإسلامية بالذات هى التى دافعت عن إفريقية بحرارة. وهى التى ثقت برصاص البيض بلا مساومة!

وقد قدّمتُ وجهة نظر - عن "الشعبوية" وبخاصة بعد أن استقر لدى أن الشعراء السود كانوا هم الرواد الحقيقيين للشعبوية، وليس الشعراء الفرس، فالشعوبيون ابتداءهم أنصار المساواة الأولى فى الإسلام، وهم يطلون بصفة خاصة من الملاحم العربية للخوارج، ومن هنا رفعت عن الفرس السيف المتدلى من هذه الكلمة التى صارت خشنة وغلظت فى الحضارة العربية، وعلى كل فلقد نظرت إلى هذه الظاهرة على أنها ظاهرة تاريخية داخل إطار زمنى، ووضحت ما فيها من صراع الثقافات وتلاحمها، ثم انتهيت إلى أن هذا التيار الشعبوي كان يمثل "تياراً مادياً" داخل الإطار الروحي للحضارة الإسلامية.. ولقد كان مما ساعد عليه زهو العرب على غير العرب، كما ساعدت عليه نزعة للتتوير التى كانت حصاد الثقافة اليونانية بعد الفارسية، حيث قامت دعوة لتمجيد العقل واعتباره المرد الحقيقى لكل شئ، وكذلك ساعدت عليه فكرة التقدم المستمر للإنسانية، وما يسمى بالقيم الإنسانية فى مواجهة القيم السماوية.

فالأمر فى صورته الأخيرة قد تحول من الصراع القومى إلى صراع على تقرير المصير للثقافة الإسلامية، ومن هنا لا يكون الهدف دائماً وأبداً تقويض الأمة الإسلامية، وإنما يكون فى بعض صوره محاولة غاضبة لإعادة تشكيل النظم السياسية والاقتصادية والثقافية داخل الإطار العام للنظام السائد، وفى ضوء هذا يجب ألا تعنى الشعبوية بمفهومها الجديد للفرس فقط، أو السود فقط - بعد أن وضجناهم فى رأس القائمة - وإنما تعنى كل الذين أحسوا بالقلق الاجتماعى والنفس، والذين تمزقوا أمام المتناقضات التى كانت تتشكل منها الحياة، والذين رأوا أنهم لا يمكنون إلا أن يصطدموا بالنظام الذى يحكم.. وبعبارة أدق برجال النظام الذى يحكم.

وقد لاحظت أن الذين كتبوا عن الشعوبية لم يتعرضوا للسود، مع أنهم تعرضوا للفرس، والنبط، والقبط، والأندلسيين، وأمام هذا أثبت أن السود لم يكونوا مجرد زوائد تنكلى من نسيج العالم الإسلامى، فقد كانوا بحق متفجرين بالغضب، وراغبين فى المساواة.. وقد درست هذه الظاهرة من خلال المدرسة التى سميتها "مدرسة الغضب"، ولتى كان يمثلها بصفة خاصة للشعراء الغاضبون السود. سنيح بن رياح، والحيقطان، وعكيم.. كما درستها من خلال ثورة الزنج المشهورة، ومن خلال قائدها وشاعرها "محمد بن على"، بالإضافة إلى النجاشيين.

وقد وضحت، بعد دراسة هذه الثورة ودوافعها، أنها لو نجحت، ولم تتحول إلى "عصرية سوداء" لكانت خيراً ویركة على الإنسان الأسود فى العالم كله، وعلى الإنسان الفقير كذلك فى العالم كله، ولو انتصرت لتغير بحق المسار العام للخلافة العباسية، ولتأخر على الأقل انهيارها، ولكن السود هم القوة الحقيقية التى حلت محل الأثرک فى مساندة هذا للنظام.

ولقد أثبت أن المرتکز الفكرى لهؤلاء الثوار كان مرتکز الخوارج لا الشيعة، كما خالفت الذين قالوا: إنها كانت ثمرة على شجرة "القرامطة"، ولقد قارنت فى الوقت نفسه بين هذه الثورة وبين الثورات الحديثة، وانتهيت إلى القول بشطط هذه الثورة التى بدأت عادلة، ثم انحرفت بعد ذلك عن مبادئها الأصلية التى كانت تنادى بتحرير الرقيق، وإلصاف الفقراء، وإنقاذ الخلافة العباسية من الانهيار.

ولكن الذى حدث أنها أصبحت ناراً تأكل كل شىء حولها، ولقد كان من أخطائها الفادحة أنها خلقت ما يسمى "الرقيق المسلم" وهى التى قامت أساساً لضرب هذا النظام، وهكذا تحولت إلى حرب أجناس بين السود وغير السود، وقامت بحركة لفصالية هدفت من ورائها إلى اقتطاع جزء من الخلافة لتقيم عليه "جموية سوداء".

ومع أن سقوطها كان مدياً إلى حد تهنة العالم الإسلامى كله بهذا الحدث، إلا أنها برغم كل شىء لم تضع سدى فقد كان من تأثيرها المباشر هز الأرستقراطية العربية هز عتفاً، بالإضافة إلى نداعى الملكيات الكبيرة، ثم إن الخلافة عملت على تحسين حال الفلاحين ثم كان أن انضمت فلول الثورة إلى القرامطة وهذا يدل - برغم أخطاء للتطبيق - على أن جمرة المطالبة بالعدل الاجتماعى ظلت مشتعلة!

وعلى كل فقد تحقق لى أن ثورة الزنج قد تحولت إلى ثورة جنس على جنس، ولنها كانت فى أول أمرها ثورة للإسلام لكنها انحرفت، وبانحرافها اشتد الظلام، وفقد الإنسان فى هذا الوقت المبكر تلك النسمات الأولى التى كانت ترتطب الروح بالحديث عن العدالة الاجتماعية.

وأخيراً ..

فإنى أرجو بهذا الكتاب الذى كان جزءاً من رسالتى للدكتوراه ويكتب أخرى أن أكون قد وصلت بقدر الإمكان إلى حقيقة وضع الإنسان الأسود داخل الحضارة العربية، وأن أكون قد قنمت ما له وما عليه، وأن أكون فى الوقت نفسه قد أقيت مزيداً من الأضواء لتفهم بعض الجوانب فى الحضارة العربية.

فكل ما يهمنى أن يظهر الحق - كما قال شاعر أسود. فى أتمّ نور -

٢٠٠٠/٢/١

أ.د. عيذه بلوى

أستاذ الدراسات الأنبية

التمهيد
السّواد
أسبابه وآثاره



١- الفخر بالأجناس

الفخر بالأجناس ليس جديداً على البشرية، فهو موجود بوجود القبائل البدائية الأولى، وهو مشكلة قديمة ولكن بمرور الزمن أخذت الظاهرة نوعاً من "التنظير" ومن "التقنين"، وهذا أعطاه شيئاً من "حق البقاء" في الحياة، ومن حق التجول في المسيرة البشرية.. بحيث أصبحت - بحق - مشكلة متراكمة ومتضخمة في القرن العشرين.

وكلمة الجنس Race توصف بأنها من الكلمات الخطرة: ذلك لأنها استغلت استغلالاً بشعاً لمتويع المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحتى العلماء أنفسهم تستعمل هذه الكلمة عددهم عدة استعمالات، فالوراثيون في فرع "علم الوراثة" قد يعرفونها بأنها مجموعة من الناس (أو الذئاب أو الكلاب) تشترك في عدد كبير من الصفات الموروثة.

والأنثروبولوجيون المعنيون بموازنة الكائنات البشرية وتصنيفها، يقولون: إن الجنس عددهم مجموعة كبيرة من الناس الذين يتفقون بسبب الأصل المشترك في الميل بوجه عام إلى إنتاج أنماط جسمية معينة، كالشعر الواحد وشكل الرأس الواحد^(١).

وهناك تعريف للجنس يستند إلى فهم العمليات البيولوجية والتطورية يقول: إنه فئة تشترك في مجموعة معينة من الصفات الجسمية الموروثة، وفي أصل جغرافي داخل منطقة بعينها.. وهذا التعريف مفيد للكلام عن الأجناس كما توجد اليوم، ونحن جميعاً نعلم أن المجموعات الجنسية الرئيسية لم تظل منفصلة بالعزلة المطلقة، فمنذ أقدم فترات التاريخ المكتوبة، والكائنات البشرية في تنقل أفراداً أو أفواجاً، محطمة بذلك ما كان قد تطور من أنماط وراثية متميزة^(٢).

وإن كان بعض العلماء قد وقف بموضوعية في دراسة كل ما يتصل بالجنس، فإن هناك نوعاً آخر وضع نفسه في خدمة أغراض بعيدة عن العلم مثل هؤلاء الذين قالوا "بالامتياز الأري" وهؤلاء الذين دمغوا الإفريقيين بالعجز

(١) ما هو الجنس؟ تعريف الدكتور يوسف أبو الحجاج ص ٥٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥.

الطبيعي، وكذلك المحاولات التي حاول أصحابها إثبات أن حجم الجمجمة وحجم المخ عند السود أصغر من حجمها عند البيض، وقد وضع "أرنولد روز" أن الباحث "مول" أعاد القياس على العينات نفسها التي قاس عليها "روبرت بين" وكانت النتيجة أنه توصل إلى إثبات عدد من الأخطاء الهامة في القياس، وفي النتيجة التي انتهى إليها^(١).

وعلى كل فأكثر الذين بحثوا في المسائل العنصرية من المختصين في الغرب يرون أن كلمة للعنصر أو الجنس Race ترجع إلى أصل سام، كما يرجحون أنه هو اللغة العربية، ولأن هذه الكلمة ترجع إلى كلمة "الراس" التي كانت تميز بين رؤوس السلالات الأنمية وغير الأنمية.

وإذا كان لا يمكن القطع بأصل هذه الكلمة، فإن من الثبات أن تمييز العناصر البشرية معروف قبل هذه الكلمة التي وجدت في عديد من اللغات^(٢).

وقد صاحب هذه الكلمة فكرتان لا يعترف بهما دائماً، أما للفكرة الأولى فهي أن الذين ينتمون إلى جنس معين يمكن تمييزهم عن أي فرد آخر ببعض أنواع من الفوارق الموروثة.

وأما للفكرة الثانية : فهي أنه من الممكن ترتيب العناصر في تسلسل بالنسبة للجودة^(٣). وفي اللغة العربية.

الجنس : كل ضرب من الشيء ومن الناس والطير، ومن حدود النحر والعروض والأنثى، جملة، والجمع: الأجناس، ويقال هذا يجنس هذا أي يشاكله، وفلان يجنس البهائم ولا يجنس الناس إذا لم يكن له تمييز ولا عقل.

والإبل : جنس من البهائم العجم.

والحيوان : أجناس، فالناس: جنس، والإبل: جنس، والبقرة: جنس، والشاء: جنس^(٤).

(١) Rose, The Negro in American, P. 34, Boston, 1957.

(٢) بين الكتب والناس ص ٦١، وداعي السماء ص ٨، لمياس محمود العقاد.

(٣) فكرة صليبة عن الأجناس والعنصرية، تأليف : فيليب ماسون، تعريف د. شوقي طوموم ص ٧.

(٤) للسان ص ٥٩٠.

ومن الملاحظ أن كتاب "الشام" يستعملون في هذا المقام كلمة "العرق" ويرجح ساطع الحصرى استعمال كلمة "الرم" لأنها تدل على أصل الشيء^(١).

٢- وعلى كل فمن قديم والناس تتفاخر بما يميزهم عن غيرهم، سواء أكان هذا الشيء أصلاً، لم نسباً، لم لوناً، لم مالاً، لم سكنى، أم حضارة، وسواء أكان ما يفخرون به حقيقة أم باطلاً.

فقدماء المصريين كانوا يرون أن الإنسان المصرى هو الإنسان الكامل، وأن دونه درجات يقف عندها الإنسان اليونانى مثلاً فى الدرجة السادسة، وفى اللوحة الثانية التى عثر عليها للملك منوسرت الثالث عند "سمنة" على مقربة من الشلال الثالثى، يوجد شيء من الترفع عند الحديث عن اللجوبيين، وهذا الترفع شبيه بما جاء فى النصائح الموجهة إلى "مريكارع" حين كان الحديث عن البدو الآسيويين.

ويبدو أن مصر القديمة قد شغلت فى كثير من الفترات "بتمصير" الأجانب، إلى حد أنها كانت تحرم عليهم للتحدث بلغة غير لغة مصر، وفى ضوء هذا يمكن التعرف على موقف مصر فى التثقل بين التسامح والاضطهاد، فالذين كانوا يقبلون مضمونها الحضارى كانت تمتصهم وتسمح لهم بالدخول فى نسيجها، أما الذين كانوا يستعصون على الامتصاص مثل بنى إسرائيل فإن مصر كانت تلفظهم، وتنف منكم موقفاً صاخباً، فالإسرائيليون قاوموا عمليات "التمصير" .. وفى قصة موسى نفسها نراه قد ألقى بتعاليم مصر بعيداً عنه، وانفج بحماسة نحو تعاليم حياة شعبه، إنه كان واحداً من الذين هربوا من مصر، ولم يكن من أولئك الذين كانوا يبنلون قصارى جهدهم ليصبحوا شبيهاً بالمصريين^(٢).

ومثل هذا وجد على عدة مستويات فى الحضارات القديمة، فال يونانيون إذا كانوا ينظرون إلى من يسمونهم البرابرة نظرة احتقار، فإن هؤلاء البرابرة كانوا ينظرون إليهم وإلى الرومانيين على أنهم مؤثثون ومبالغون فى الأخذ بالترفيه.

ونحن نعرف أن العرب كانوا يرون من عداهم "أعاجم" يقلون عنهم فى الحسب والمروءة، ومع أن الإسلام قد غير من نظرتهم إلى الجنس فإن هذه النظرة

(١) آراء وأحدث فى اللغة والأدب ١٩٥ (دار العلم للملايين - بيروت).

(٢) الحضارة المصرية "جون ولسمون. ترجمة أحمد فخرى ص ٢٢٢، ٢٢٣، ٤١٢، ٤١٣، ساعات بين للكتب للمقاد ط ٣ ص ٤٢١.

المترفعة لم تمت عندهم تماماً، ولنتأمل قول الجاحظ "فإذا أبيض الحمام [كالقنبر] فمثله من الناس الصقلابي، فإن للصقلابي فطير خام تتضجج الأرحام في البلاد التي شمعنها ضعيفة"^(١)، ونحن لا ننسى أن ابن فضلان الذي عاش بين الإسمكندنافيين من أهل الشمال في القرن العاشر قد قال عنهم بعد حديث عن القذارة والابتذال "إنهم كالخمر المستفزة"، ونحن لا ننسى كذلك وصف كاتب عربي يسمى سعيد من أبناء طليطلة للأوروبيين الذين يعيشون شمالي جبال البرانس بقوله: "...إنهم أصحاب مزاج بارد، وهم لا يبلغون مبلغ للنضج لبدأ، وأن لهم أجساداً ضخمة، وبشرة بيضاء، ولكنهم خلو من البديهة الحاضرة، والذكاء الثاقب، وإذا كان بعض المعتزلة قد قال عن جماعة من الليبى أنهم أمه لم تتضججها الأرحام فإن الحطينة قد ذكر أنهم لسائم الحبب"^(٢) فالعرب قد خرجوا إلى الدنيا وريح العصبية تملأ معاطسهم، والإسلام يشعر بهذا من أمرهم، فيصدع فيهم بالراى جاهراً: ليس منا من دعا إلى عصبية"^(٣).

ثم بعد ذلك تظهر الموضوعية والنظرة الحقيقية للأمور شيئاً فشيئاً على نحو ما نعرف مثلاً من قول أبى حيان التوحيدي: الأمم عند العلماء أربع: الروم والعرب وفارس والهند، وثلاث من هؤلاء عجم، وصعب أن يقال للعرب وحدها أفضل من هؤلاء الثلاثة مع جوامع مالها، وتفريق ما عندها"^(٤)، ثم يقول: اعتبار الفضل والشرف موقوف على شئئين: أحدهما ما خص به قوم دون قوم أيام للنشأة بالاختيار الجيد والردي، والراى للصائب والفلل، والنظر الأول والآخر، وإذا وقف الأمر على هذا فلكل أمة فضائل وذنابل، ولكل قوم محاسن ومسلو، ولكل طائفة من الناس فى صناعتها وحلها وعندها كمال وتقصير، وهذا يقضى بأن الخيرات والفضائل والشور والنقائص مفاضة على جميع الخلق، مفضوضة بين كلهم، ثم إن هذه الفضائل فى هذه الأمم المشهورة ليست لكل واحد من أفرادها، بل هى الشائعة بينها"^(٥).

(١) الحيوان ٣ ٢٤٥.

(٢) الحيوان ٣ ٢٤٥ الأغنى ٥/ ١٨٤، شعراء موريثانيا. محمد يوسف مقلد ١٢٠، ١٥١.

(٣) انظر مالك أمين الخولى ص ١٨٢.

(٤) الإمتاع والمؤانسة/ ٧٠١.

(٥) المصدر نفسه ٧٢/١.

.. ثم بعد ذلك تكون اتجاه حضارى محكم عبر عنه "أبو سعيد السيرافى"
بقوله : إن علم العالم مبثوث فى العالم بين جميع من فى العالم.. ولهذا قال القائل

العلم فى العالم مبثوث ونحوه للعقل محثوث

وكذلك الصناعات .. ولهذا غلبه علم فى مكان دون علم، وكثرت صناعة
فى مكان دون صناعة.. إن الاتفاق لم يحصل فى تفضيل أمة على أمة، ولا فى
تفضيل بلد على بلد، ولا فى تقديم رجل على رجل، ولو لم يكن فى هذا الأمر إلا
التعصب واللعاب والهوى والمحال، ولذهب مع السابق إلى النفس، والموافق
للمزاج، والخيف على الطبايع والملأ للقلب.. لكان كافياً بالغاً بالإنسان كل
مبلغ^(١).

ثم كان قولهم: الأم كلها شركاء فى العقول وإذا اختلفوا فى اللغات^(٢).

ويمكن أن نعر على هذه النزعة المتكورة عند ابن قتيبة، كما نراها ملاحظة
فى مقدمة ابن خلدون.

فالاعتقاد بأن الزنجر ينقصه التفكير المعتدل وفد إلى الحضارة الإسلامية
من بعض مفكرى اليونان كجالينوس الذى كان يخص الجنس الأسود بعشر صفات
من بينها حب للذة "وإنما غلب على الأسود الطرب لفساد دماغه فضعف لذلك
عقله"^(٣).

وفى العصور الحديثة وجدنا الألمان يكونون نظرية كاملة تتلخص مبادئها
الأساسية فيما يلى :-

- ١- كل صفات الإنسان ولادة للجنس أو الأجناس التى يرجع أصله إليها.
- ٢- الجنس الشمالى خير الأجناس.
- ٣- اختلاط الأجناس أمر ضار^(٤).

(١) المصدر نفسه ١٨٧/٣.

(٢) البصائر والذخائر ٢٧٦/١.

(٣) عن الجاحظ والحاضرة العباسية. د. وديعة طه لنجم ص ١١٨.

(٤) الإسلام والاشتراكية. ميرزا محمد حسين. ترجمة د. عبدالرحمن أيوب ص ١١٦.

..كما أنه فى العصور الحديثة تردد أن الإنجليز هم السادة، وأن الفرنسيين هم معدن الحضارة، وأن الطليان يرون أن أمم الشمال همجية ومتبريرة، والروس يرون أن عليهم إصلاح العالم كله من خلال مفاهيمهم الخاصة بالمادية الجدلية "الفخر بالأجناس قديم لم تخل منه أمة أو قبيلة، فما من جيل من الناس إلا وله فضائل يدعيها، ومناسب يرتفع بها أحياناً إلى آلهة السماء، وأحياناً إلى أعظم القديسين، فضلاً عن المناقب والصفات التى لا شريك له فيها من أجيال الأرض أجمعين، ولا غربة فى هذه الدعاوى إذا سوغتها ظواهر الأمة، وساندتها القوة، والثروة، والكلمة للغلبة، ولكن الغريب أن تشيع هذه الدعاوى بين أمم لا قوة لها ولا مال ولا غلبة، ولها ربما كانت فى هذه الأمم أكبر مزمعاً، وأشد غروراً مما تكون فى غيرها كأنما هى عوض عما فقدته الأمة من نواعى الفخر الصحيح، وعزاء عما تصبو إليه من العزة والكرامة"^(١).

وهكذا يكون الأمر - كما قال الجاحظ - إنه ليس على ظهرها إلا فخور!

٣- وقد كان وراء هذا ويجواره كتاب "هارون" عن أصل الأجناس، ونظرية نيته فى "الإنسان الأعلى" والإشادة بالجنس التوتونى، والقول بأن التطور يستلزم أن تستخدم الأجناس والأنواع العليا من هى أحط منها، فالحياة قائمة على الافتراض. وقد توسع "رينان" فى فرنسا فى تطبيقات هذه النظرية، كما ضرب على هذه النغمة فى فرنسا كذلك، "جوزيف آرثر دى جوبينو"، وظهرت الفلسفة المعروفة بالجوبينزم Gobinism كما أن "هوستون تشمبرلين" قد ذهب إلى أن المدينة تكين بكل شىء للأريين، وبلا شىء لليهود، ولا شىء مطلقاً يرجع الفضل فيه إلى الأجناس الحامية السوداء فى الجنوب، والقليل - أو ما يشبه العدم - يرجع إلى الأجناس الصفراء فى اليابان والصين، وأقل من لا شىء يرجع إلى الأجناس السامية فى فلسطين وبابل ومصر"^(٢).

وهذه الآراء وأمثالها لم تكن مقصورة على المفكرين والفلاسفة الأوربيين، ذلك لأنها امتدت منهم إلى بعض رجال الدين فى أوروبا.. ذلك لون من ألوان الفكر الأوربى الذى ظهر فى القرون التى تلت عصر النهضة الأوروبية الحديثة، وهو

(١) ساعات بين الكتب للعقاد ٤٢١.

(٢) بين الكتب والناس ٥٧-٥٩، نهضة إفريقية العدد ١٥ فبراير ١٩٥٩.

لسون لم تعهد الإنسانية له شبيها من قبل، اللهم إلا فى بعض عهود الدمار القليلة كعهد التتر والمغول، وما أبعد هذه الروح التى لتصف بها جانب من الفكر الأوربى، عن روح الشرق التى اتسمت دائماً بالخير والرحمة والعدالة والإخاء^(١).

٣- حاجز اللون :

الذى لاثلك فيه أن "النظرية العنصرية" تعتمد بعنف على مشكلة "اللون" وقد نبهت البشرية إلى هذا من وقت مبكر جداً.. ووصلت السير فى الطريق الخاطئ! فقدماء المصريين قد حرصوا فى فنهم للتشكيل على مسألة اللون هذه فقد أعطوا الزنجى اللون الأسود، واللبى اللون الأبيض، أما اللون الأحمر فقد قصره على أنفسهم، ولا شك أن المصريين القدماء قد رمزوا إلى الاختلافات فى المستويات الحضارية بينهم وبين الشعوب المجاورة لهم باختلاف ألوانهم^(٢).

ومع أن مصر القديمة كانت لا ترى مانعاً فى استيعاب الأجناس الأخرى والألوان الأخرى، فإن اليونانيين، والرومانيين قد وقفوا وقفة متعالية من غيرهم.

.. والواقع أن فى الغرب تاريخاً طويلاً للامتياز الذى إن لم يتصل باللون الأشقر فعلاً، فهو على الأقل يتصل باللون "الفتح" وحتى بين الإغريق القدماء كانت الأساطير تصور الآلهة من أمثال أبوللو أشقر اللون، وكل نظام المبنودين فى الهند يتوقف على ما يسمونه "قارنا" أى اللون، وحتى فى التقاليد الفنية المسيحية نلمس اتجاهات معينة لتصوير القديسين أشد شقرة من المذنبين الأثمين ولسنا ندرى من السانحة العلمية إذا كان الشقر يميلون إلى أن يكونوا أكثر فضيلة من السمرة، والموضوع فى أساسه ليس له معنى^(٣).

.. وعلى كل فالبشرية من بنىها حتى الآن قد سارت فى هذا الاتجاه الخاطئ، بل يمكن القول بأنها عمقه واستحدثت له العديد من النظريات المساندة، بحيث استقر فى الذهن دائماً أن السواد لا بد أن يكون غضباً من قوة أكبر من الإنسان، ثم إنه "وصمة قابيل" للباقية.

(١) صفحات من تاريخ الاستعمار. د. سليمان حزين ٧٩.

(٢) مجلة نهضة إفريقية (العدد ١١ سبتمبر ١٩٥٨) مقال للدكتور رياض.

(٣) أفكار ورجال. تليف كرين برنقن ترجمة محمود محمود ص ٥٨٨.

ونحن إذا أخذنا ما جاء فى سفر التكوين، وفى بعض الأساطير، نجد أنه كان هناك دائماً اتجاه يرمى إلى الغرض من الإنسان الأسود ودمغه، فهناك قول بأنه قد هبثت للإنسان فرصة أن يتحول من لونه الأسود - لأنه خلق فى البدء أسوداً^(١) وذلك بأن أعد ماء خاص لهذا الغرض، وقد تحول الذين تمكنوا من هذا الماء إلى بيض، أما الذين بقوا سوداً فهم الذين لم يتمكنوا من الماء إلا بالقدر الذى أصاب راحات أيديهم، ويطون أقدامهم.

وهناك قول: بأن الناس جميعاً أبناء الله، وأن جلودهم فى الأصل كانت بيضاء،^(٢) ولكن الذين تحولوا إلى سود هم الذين سرقوا "الموز" وكان عليهم أن يرحلوا إلى أعالي النهر لدخل القارة، وهناك أسطورة من جزائر "فيجي" تقول إن من يحسن العمل يحافظ على لونه الأبيض، وعلى الوفرة من الملابس، ومن يسئ إلى العمل يتحول إلى أسود، ويفتر عليه فى الملابس، أما المسمر فهم فى حالة بين الحالتين.

وتقول أسطورة: إن الله رأى ثلاثة من السود سيكون، وحين أراد أن يذهب عنهم حزنهم أمرهم بالاعتسال، ليتحولوا إلى بيض، وقد قيل عملية "التطهير" هذه كانت لولاحد فقط، وحين أبصر لونه الجديد ندم، وكان أن أسرع الأول إلى إلقاء نفسه فى بقايا الماء العالق فى التربة، وكان أن تحول إلى اللون الأحمر، أما الثانى فلم يدرك من بقايا الماء إلا ما يكفى راحتيه وبطن قدميه^(٣)، وهناك أسطورة تقول إن الديك الأبيض ينجح فى طرد الأثباج أما الديكان الأسود والأحمر فيفشلان^(٤).

وفى الكاميرون قصة شعبية تقول: إن الله خلق ثلاثة أنواع من المخلوقات هى: الرجل الأبيض والرجل الأسود والغوريلا، ولنه بعد أن تمت عملية الخلق أخذ الله فى يده الرجل الأبيض، تاركاً وراءه الرجل الأسود والغوريلا^(٥).

(١) نظرية جريجورى تقول: إن إنسان ما قبل التاريخ كان لونه أسود.

(٢) نظرية ملايت تقول : إن الإنسان فى الأصل كان ذا بشرة بيضاء.

(٣) لون البشرة وكثره فى الملاحظات الإنسانية، ر.د.ج. سيمونز ترجمة على عزت الأنصارى ١٢٠ وما بعدها.

(٤) علم الفولكلور : الكزنندر هجر فى كراب. ترجمة أحمد رشدى صالح ص ٢٩٦.

(٥) نهضة إفريقية العدد ٢٠.

ومثل هذه المنوعات نجدها في عدد من الحضارات القديمة، وفي العربية مثلاً نجد أين جرير يذهب إلى القول بأن السبب في السواد هو دعوة نوح على ابنه حام حين انكشفت عورته، وتكملة القصة في نهاية الأرب تقول فأما حام فإنه واقع زوجه فولدت غلاماً وجارية سوداء^(١)، وحين أنكرهما قالت له: لحقتك دعوة أبيك، وحين واقعها بعد ذلك ولدت مثلهما.. ومثل هذا تجده في تسويغ اسم البيض والكحل في موريتانيا^(٢) ويقرب ابن الجوزي من التفكير العلمي حين يقول: فأما ما يروى من أن نوحاً انكشفت عورته ولم يغطيها حام فدعا عليه فاسود.. فتشأ لا يثبت ولا يصح كما ذهب إلى عدم صحته ابن خلدون في مقدمته^(٣)، ويؤيد جلال الدين السيوطي هذا الرأي اعتماداً على قول الرسول "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك السهل والحزن والخبيث والطيب"^(٤).

أما ابن سينا في أرجوزته في الطب فيقول :

بالزنج حرّ غير الأجساد	حتى كسا جلودها سوادا
والصقلب اكتسبت البياضا	حتى غدت جلودها بضاضا

وقد سار وراء هذه الفكرة النووي^(٥)، كما وقف عليها الشريف المرتضى فقال: فأما الأدمة فليس تؤثرها الشمس على الحقيقة في وجوها وأبدانها، وإنما الله تعالى هو المؤثر لها، فاعلها بتوسط حرارة الشمس^(٦)، أما الجاحظ فردّها إلى البيئة الطبيعية حين قال: إن الله لم يجعلنا سوداً تشويهاً بخلقنا، ولكن البلد فعل بنا ذلك، والحجة في ذلك أن في العرب قبائل سوداً كبنى سليم بن منصور، وكل من نزل الحرة من غير بني سليم كلهم سود، وقد بلغ من أمر تلك الحرة أن ظبأها ونعامها وهواها ونذابها وتعالبها وشاءها وحميزها وخيلها وطيرها سود^(٧).

(١) ٤٠ / ١٣ وقد أُرِدَ بالجمع ما فوق الواحد فقال: سوداً.

(٢) الوسيط في تلجم أنباء شنتيط ص ٤٧١، ٤٧٢.

(٣) المقدمة بتحقيق د. علي عبد الواحد وإفي ١ / ٤٩٠.

(٤) مخطوط رفع شأن الحبشان. للورقة ١٤١.

(٥) نهاية الأرب ١ / ٤٦.

(٦) الأمالي ٢ / ٣٨٤.

(٧) رسالة في فخر السودان ص ٧٨.

ثم إن الكنيسة حين أصدرت مرسوماً بالوياء عام ١٤٥٥ بحق سيادة المسيحيين على الكفار، تكون قد "بلورت" النظرية للقللة بالحاجز اللوني، فهذا الإجراء فى الواقع قد أقر استرقاق الزنوج والهنود الحمر، بل ويمكن القول بأنه أثار موجة جديدة من الدعاية التى ظلت منطلقة دون قيد عدة قرون، "وليس هناك شىء أقوى من حيوية الخطأ"^(١).

فإذا أضفنا إلى ذلك هذا الانتصار الذى تحقق على المسلمين بوساطة فرديناند وإيزابلا فى الأندلس، وهذا "الخروج العظيم" للكشف والتبشير والاستعمار فى عدد من بقاع العالم وبخاصة فى آسيا وأفريقية.. أدركنا أن نظرية "الحاجز اللوني" قد اكتسبت إلى صفها السلاح لتعميق أبعادها وفى ضوء هذا تكون عدد من المدارس حول هذه النظرية، ويمكن تلخيصها فى الآتى:

- ١- المدرسة العنصرية البريطانية.. وهى تعارض الزواج، والتساوى الاجتماعى بين الأوربيين والزنوج.
- ٢- المدرسة العنصرية اللاتينية.. وقد طبقتها الدول اللاتينية وبخاصة فرنسا والبرتغال وهى تسمح بالزواج، وبعض نواحي التقدم الاجتماعى، فهى تعتمد على امتصاص الوجود الإفريقى.
- ٣- المدرسة العنصرية للخاصة بميسيل رودس والمارشال سمطس.. وقد رأت أن من مصلحة المصالحات والأجناس عدم الاختلاط الآن حتى يتساوى الزنوج بالأوروبيين حضارياً.
- ٤- المدرسة العنصرية للخاصة بالدكتور سالان وأعوأنه.. وتتفق مع النظرية الخاصة، وإن كانت تفصل بين السود والبيض فصلاً تاماً، وتعمل على عرقلة السود بكافة الوسائل.

.. من هذا نرى أن الكائنات البشرية تختلف فيما بينها اختلافاً واضحاً فى لون البشرة.. ويمكن تقسيم كل الكائنات البشرية فى نوع من أنواع لطيف اللوني، كل لون فيه يدخل فى غيره، من الأسود للفاحم إلى ناصع البياض، وإن لم يكن من العسير جمع للحقائق التجريبية التى تتعلق بهذا التقسيم، فالخلافاً الفردية إذن لها أهميتها القصوى، ومع ذلك فالمجموعات من الرجل الأبيض إلى الرجل الأصفر

(١) لون البشرة وأثره فى العلاقات الإنسانية ص ١٥.

إلى الرجل الأسود لها أهمية أكبر، هذه المجموعات أو هذه العناصر ليست كما يظن الجاهلون أو المتعصبون، ولكن لا ينكر أنها من حقائق الحياة، وربما كان بين الصينى المتوسط والأمريكى المتوسط والإفريقى اللزجى المتوسط - إذا جمعنا كل الصفات البشرية وكل ضروب نشاط الإنسان - من التشابه أكثر مما بينهم من خلاف ولكنهم يختلفون فى لون البشرة، وعلى هذا الخلاف قامت أهمية كبرى فى العلاقات الإنسانية^(١)، ومع أن علاقة الإنسان الأسود قد تطورت من علاقة الرقيق بالسيد، إلى علاقة الخادم بالسيد، ثم إلى فكرة الأخ الأكبر إلا أن الذى لا شك فيه أن لون البشرة كان العامل الهام فى تقرير وضع الفرد^(٢) فى مسيرة الحياة.

١- السواء:

ذكر عدد من العلماء فى أعقاب المناقشات التى دارت حول نظرية "دارون" أن الإنسان ليس نوعاً واحداً، وإنما عدة أنواع، وقد كان معظم القائلين بهذا رأى من الليبى، وفى الوقت الذى كانت فيه سيطرة الإنسان الأبيض تمتد كشبكة لتغطى الكثير من أجزاء العالم.

ولكن الأبحاث التى جاءت بعد ذلك دلت على وحدة الأصل البشرى، وهو الرأى المأخوذ به علمياً، فهناك مبدأ وحدة النوع بالنسبة للإنسان، والكلمة العلمية للتقسيمات الفرعية التى يحتوئها النوع الواحد هى subspecies.

أما فى علم الأحياء فيستعملون كلمة عنصر أو جنس، وبالنسبة للحيوانات التى توجد فى المزارع تستعمل كلمة سلالة أو نسل أو فصيلة.

ولما كان الإنسان فى حركة دائية، وفى تنقل مستمر فإن الفوارق التى تنمو بين أشكاله المختلفة تتلاشى تدريجياً بعضها فى بعض، بمعنى أن "أشكالاً وسطاً" تقع بين كل صورة وأخرى" ولذلك فإننا لا نعتبر البيئة هى الأساس الذى يعزى إليه سر الفوارق القائمة بين صور الإنسان المختلفة، وليس أدل على ذلك من بقاء هذه الصفات المميزة، بل وتزايدها بين أفراد مجموعة من البشر تغير مكان بيئتها^(٣).

(١) أفكار ورجال تأليف كرين برنت: ترجمة محمود محمود ص ٤٨، ٤٩.

(٢) لون البشرة وأثره فى العلاقات الإنسانية ص ٥٦.

(٣) فكرة صلبة عن الأجناس ص ٢٠.

فقال قول بأن السواد لا يخرج عن كونه نوعاً من الفطرة، أو عن تكيف الإنسان وفق البيئة^(١) يلزم عنه أنه لو أن قبيلة سوداء قد عاشت في الشمال مدة طويلة لعادت بيضاء كما كانت من قبل، على رأى من يقول: إن الإنسان القديم كان أبيض اللون^(٢).

ثم إن هناك شعوباً ظلت معزولة بحكم الظروف الجغرافية أو المناخية مثل سكان أوسط استراليا الأصليين، ولكنهم يشتركون في أوجه شبه كثيرة مع بقية الإنسان، وهم صالحون للإيجاب من المجموعات الأوربية، وعاداتهم تمثل - مهما كانت - طريقة من طرق تطور الإنسان، بالإضافة إلى الأعضاء للدخالية الدقيقة، وفي الجهاز العصبي المعقد^(٣).

وعلى كل فإن المورثات genesis تقيد بدء كل منا حقاً.

وقد وضع العالم يده على هذه الحقيقة حين قام "جرجور مندل" بتجهين أنواع من البازلاء، وتسجيل حركات النمو، فبهذه الطريقة استطاع أن يكتشف قوانين معينة للورثة، هي بحث الأساس الذي يعتمد عليه علم الوراثة الحديث، وهذه المورثات من الصغر بحيث لا يمكن رؤيتها تحت أقوى الميكروسكوبات، ومن الكثرة بحيث تحدد ذلك العدد الذي لا يحصى من الصفات الجسمية، وهي تعطينا الطاقات للون عيوننا وشكلها، ولون جلدها وتركيبه، وشكل شعرنا ولونه، وبنية العظام، والحساسية بأمراض معينة، وصفات عقلية معينة، ولغير ذلك، وبطبيعة الحال تتأثر معظم الصفات الوراثية بعوامل خارجة عن ذواتنا، فطول القامة وبنية العظام مثلاً تتأثر جزئياً بالطعام الذي نتناوله أو بالمرض، ولكن المورثات التي تولد معنا هي التي تحدد الطاقة، على حين أن البيئة - أي الأشياء التي تحدث لنا بعد مولدنا - تحدد أي شكل سوف تتخذ هذه الطاقات^(٤).

وفي ضوء هذا نرى أن للتركيز على الوراثة لا يعنى إلغاء دور البيئة، فمهما كان امتياز عناصر الوراثة إلا أن وجودها في البيئة غير الملائمة يضيع

(١) يذهب إلى عملية التكيف الجاحظ في الحيوان ٣١٤/٢.

(٢) لون للبشرة وأثره في العلاقات الإنسانية ص ١٩، ٢٠.

(٣) فكرة صابغة عن الجنس ص ١٦، ما هو الجنس ص ١٢.

(٤) ما هو الجنس ص ٢٢.

فرص ازدهارها ولمعانها، وحين نصل إلى التطبيق في هذا المجال مثلاً نرى أن نكساء الزوج يقل عن نكساء البيض في الجنوب الأمريكى، ونرى تنوع الزوج في الشمال على الزوج في الجنوب بحوالى تسع نقاط، ويزداد هذا التنوع في المدن الكبيرة، كما يزداد مع كل عام يمر على الزوج بعد هجرتهم إلى الشمال.. وكذلك تتنوع بعض مجموعات الزوج الشمالية على بعض مجموعات البيض الجنوبية، كل هذه الحقائق تشير إلى أن نوع البيئة في الجنوب وتاريخ الرق فيه وحرمانهم من الحقوق والامتيازات تلعب جميعها دوراً كبيراً في نشأة هذه الفوارق^(١).

وعلى كل فالمورثة gene قد ثبت من خلال العديد من الأبحاث أنها تتصف بالدوام، كما ثبت أنها تجدد نفسها في العادة، فهي تضع "نسخة من نفسها" في كل مرة تنشأ فيها خلية جديدة، أو بويضة جديدة أو حيوان منوى جديد.

ومع وجود هذا النظام ينشأ أحياناً ما يسمى "بالطفرة" حين تضع مورثة قديمة مورثة جديدة.. ولعل الأناس الأوائل الذين ورث منهم الزوج الشعر المغفل حصلوا عليه بهذه الطريقة، بالطفرة، أو لعل الأناس الأوائل كان شعرهم مغفلاً، وحصل الأوروبيون على شعرهم المستقيم بالطفرة، لا نعلم كيف حدثت في التاريخ، ولا نعرف بالضبط كيف تحدث اليوم، ولكننا نعرف معرفة اليقين أنها تحدث فعلاً، للطفرة هي التي تفسر كيف ظهر أول طفل مصوف الشعر في النرويج، تلك البلاد التي يتصف شعبها بالشعر المستقيم^(٢).

من هذا نصل إلى أن لون الجلد شيء يورث وأن وجود "الطفرة" في هذا النظام هو الذى كان وراء مستويات اللون، ويمكن أن يقال هذا مثلاً بالنسبة للون العين وشكلها، وبالنسبة لشكل الشعر، أما المورثات الخاصة بالجوهريات (أى الجهاز المعد الذى يجعل منا نوعاً فريداً) فهي واحدة في كل الأجناس.

فالقول بالطفرة، والقول بالانتخاب الطبيعى عند "دارون"، والذى يقوم على القول بأن البيئة اجتثت الأضعف في القدرة على التكيف في كل نوع، وتركت أحسن الذين استطاعوا التكيف ليتكاثروا بمعدل أعلى.. القول بتفاعل هاتين

(١) فكرة صالبة عن الأجناس ص ٥١.

(٢) ما هو الجنس ص ٢٩.

العمليتين البيولوجيتين الرئيسيتين مع عامل ثالث يمكن أن يؤدي إلى تشكيل طائفة معينة من المورثات، تؤدي بدورها إلى ظهور جنس من الأجناس^(١)، ولتحديد هذا يمكن القول بأن لون البشرة تحدده المورثات، وأن التغيرات في اللون تحددها طفرات المورثات، ثم إن أحدث النظريات في هذا المجال تقول: إنه إذا ما أنتجت الطفرة قوماً سود البشرة أثرتهم البيئة فترعرعوا، وفي ضوء هذا يكون نوع جلدهم أكثر ملائمة، ونقدر على التكيف مع المناخ الذي يشتد فيه ضوء الشمس، من الجلد فاتح اللون الذي تطور أصحابه وفقاً لمقتضيات بيئات أخرى، ولكن ليس لكل الصفات هذه القيمة في التكيف بالظروف.

فالغدد التي تكون تحت الجلد تكون أكثر إفرازاً في سكان الأقاليم التي يتعرض كثيراً لأشعة الشمس، وعلى مضي السنوات يثبت اللون الداكن أو الأسمر، فإذا انتقلت جماعة سوداء البشرة إلى إقليم آخر أقل تعرضاً للأشعة، فإن لونها لا يتحول عن الطبيعة التي اكتسبها في البيئة الأولى^(٢).

ونحسن لا ننسى هنا ما ذكره الجاحظ عن الأضواء والألوان، وعن مدى ما بينهما من ضد وخلاف ووافق، وكيف أن البياض ينصبغ ولا يصبغ، والسودا يصبغ ولا ينصبغ، وليس كذلك سائر الألوان لأنها كلها تصبغ وتنصبغ، وقد تنبه ابن سيدة في المخصص^(٣) إلى أن هناك ألواناً قريبة، وهي الأحمر والأسود والأبيض، وأن هناك ألواناً غريبة لا تكور مدارها، أما للنمو في الملمع^(٤) فقد رأى أن الألوان الأساسية في العربية هي في الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والأخضر وقال أنها النواصع الخوالص من بين جميع الألوان، فإن قال قائل فإين الخبرة والسمة والزرقة والصحمة والشفرة، قيل إنها ليست من النواصع، وكل يرد إلى نوعه فالغبرة إلى البياض، والسمة إلى السود، والزرقة إلى الخضرة، والصحمة إلى الصفرة، والشفرة إلى الحمرة، والمعروف أن العرب أكتت نواصع الألوان فقالت: أبيض يقق، وأسود حالك، وأحمر قاني، وأصفر فاقع، وأخضر

(١) نفس المصدر ص ٢٩.

(٢) الشعوب والسلالات الإفريقية د. محمد عوض محمد ص ١٧.

(٣) ١٠٥/٢ (٣)

(٤) ص ٢.

ناضِر وقد أطلق العرب السواد على جماعة للنخل. وعلى الشجر لخضرته، ولمقاربة الخضرة للسواد، استخدموا الأسود للتمر والحرّة وللليل تلمح صفة السواد فيهما، كما أطلقوا على الماء والتمر تغليياً، كما أطلقوا الأسود كحلياً على الماء وللبن، وعلى الماء وللغث^(١) فالمصطلح العلمي للون يقول إنه، خاصة ضوئية تعتمد على طول الموجة، ويتوقف اللون الظاهر للجسم على طول موجة الضوء الذي يعكسه، فالجسم الذي يعكس كل للموجات يبدو لونه أبيض، والذي لا يعكس أى موجة يبدو أسود. وقد ذكر للرأى الذى يقول: إن الألوان كلها إنما هى من السواد والبياض وإنما يختلفان على قدر المزاج، ثم وقف عند القول الذى يقول بالقوة للسواد على البياض، إذ أن الألوان كلها كلما اشتدت قربت من السواد وبعدت عن البياض فلا تزال كذلك إلى أن تصير مواداً^(٢) ومعنى هذا أن الكلام فى فلسفة الألوان كان قضية من قضايا الفكر عند المتكلمين المسلمين من وقت بعيد.

(١) اللغة واللون د. أحمد مختار عمر ٤١.

(٢) الحيوان ٥٦/٥ وما بعدها.

آثاره

١ - هل هناك فروق بين البيض والسود، وما هذه الفروق؟

أما أن هناك فروق، وأن هذه الفروق قد تكون شاسعة فليس لا خلاف عليه، ثم إن هذه الفروق يتدخل فيها بشكل كبير عاملاً للوراثة والتعليم، في الوقت الذي يستحيل فيه إثبات عامل الجنس في إحداث هذه الفروق^(١).

وعلى كل فلكي نجيب على السؤالين المطروحين هنا، لابد أن نعال هذا السؤال الذي يقول: هل هناك جنس ممتاز؟ ولما كان الامتياز يتعلق عادة بثلاثة موضوعات هي:

١- الامتياز في الدم.

٢- الامتياز في الذكاء.

٣- الامتياز في الثقافة.. بالإضافة إلى ما يستتبع هذا من فروق نفسية فإنه ينبغي أن نرى في هذا كله كلمة العلم:

١- الجنس والدم:

نحن نسمع عادة هذه العبارات التي تتكرر، ولتي نقول: إن الدم ينسب والأصل "يونس" وهذا دمه أزرق، وفي عائلة فلان دم يهودي أو زنجي، بالإضافة إلى القول "بالأرومة".

وكل هذه المرددات الشعبية - إن صح التعبير - تعتبر نتاجاً خاطئاً لتلك الفترات التي سبقت طريقة اكتشاف المورثات حين كان يعتقد أن الصفات الموروثة تنقل بواسطة الدم.

وعلى كل فالناس جميعاً - بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو أي مميز آخر - ينقسمون إلى أنواع محددة بحسب نوع المواد التي تضمها خلاياهم الدموية الحمراء، وهذه الأنواع المحددة يرمز لها بالرموز الآتية "أ"، "ب"، "ب"، و"و". فالمورثات المسؤولة عن هذه الأنواع موجودة في كل مكان في العالم، وإن كانت

(١) فكرة صائبة عن الأجناس والخصرية من ٥٣.

"ينسب" هذه المورثات تختلف أحياناً من بيئة إلى بيئة ومن جنس إلى جنس... ومن توزيع المورثات التي تحدد فصيلة الدم أكثر من أى شيء آخر، نستطيع أن نبين فى جلاء أن المجموعات البشرية، أجناساً سميت أو قبائل أو شعوباً، تملك فيما يبدو التشكيلة الأساسية للصفات الوراثية نفسها ولكن بنسب مختلفة، والمجموعات التي تصير منفصلة تشترك فى: أنها تختلف عن المجموعات الأخرى باحتفاظها بنسبة مختلفة من أنواع العناصر الوراثية نفسها^(١).

٣- الجنس والذكاء :

يرى بعض العلماء - نظراً لأنه يصعب اختيار الطفل عند مولده وقيل السلالة وبعدما - أنه خير من تحديد أى الجانبين أهم الوراثة أم البيئة؟ أن نتعرف على الكيفية التي يعملان بها معاً، فالطفل يأتي بالأوليات الجسمية عن طريق "المورثات" ومن هذه الأوليات يتطور يتناول الطعام .. ولما شيء تناوله حوله إلى نوع مانتة الخاصة به، فالطفل لا يستحيل إلى كلن بشرى فحسب، بل إنه يستحيل إلى شخص من نوع معين^(٢).

وعلى الرغم من أن هناك تفاوتاً كبيراً فى المقدرة الذهنية داخل كل المجموعات الجنسية والدينية والقومية، إلا أن هذا يعنى أننا إذا وضعنا مجموعة منتجة من السبيض والسود معاً فى بيئة مختارة اقتصادياً وتربوياً، فإن نتائج الاختبارات العقلية ستجنى للتحسن فى المتوسط، وفى الوقت نفسه إذا عاشت المجموعتان فى بيئة ذات مستوى منخفض من الناحيتين الاقتصادية والتربوية، فإن النتائج ستميل إلى السرداءة. وفى ضوء هذا يظهر أن الاختلاف بين الأفراد فى الجنس نفسه أعظم من الاختلاف بين متوسطى أى جنسين، كما يظهر أن حالات الذكاء الخارق والقصور العقلى لا يختص بهما جنس دون الآخر .. ويبدو أن هذه الحالات للفاجعة موزعة بين كل شعوب الأرض توزيعاً عادلاً^(٣).

(١) ما الجنس من ٥١.

(٢) لمرجع نفسه ص ٥٤.

(٣) نفس المرجع ص ٥٦-٥٩.

.. وهكذا يتأكد عدم صحة الآراء التي تقول بالفروق العقلية بين السلالات البشرية على أساس من الجنس، وإن كان هذا لا ينفي وجود تأثيرات على النشاط البشرى، وعلى التوجه نحو حرف خاصة وإنتاج غلات معينة^(١).

وقريب من هذا قول للنظام في علاقة الزكاء بالجنس فهو يقول: إن الأمة التي تتزوجها الأرحام (يقصد الجنس الأبيض) ويخالفون في ألوان أبدانهم، وأحداق عيونهم، وألوان شعورهم سبيل الاعتدال، لا تكون عقولهم وقرائحهم إلا على حسب ذلك، وعلى حسب ذلك تكون أخلاقهم وأدبهم وشمائلهم وتصرف همهم في لزومهم وكرمهم لاختلاف السبك وطبقات الملبخ.. كالنقاوت الذى بين الصقالبة والزنج^(٢).

وقريب من هذا ما جاء فى البخلاء للجاحظ فقد قال: قد علمنا أن الزنج أقصر الناس فكرة وروية وأذهلهم عن معرفة العاقبة^(٣) وقد قرر هذا فى رسالة فضل السودان.

وعلى كل، فكل هذا لا ينفي وجود العامل الوراثى فى درجة الزكاء مع مراعاة أن العامل الوراثى هنا ليس من العوامل الوراثية النوعية الذى ينتقل عن طريق "جين" واحد، ذلك لأنه عامل كمى، ويوجد فيه تداخل بين المجموعات البشرية المختلفة كما هو الحال فى خاصية الطول^(٤).

٣- الجنس والثقافة :

من الأقوال التى يسلم بها الآن أنه توجد صلة بين التكوين البيولوجى للشعوب وبين مستوى ثقافته، كما أنه ليس هناك سبب وراثى أو بيولوجى لافتراض أن بعض الأجناس قد يكون أقل استعداداً من البيض لتعلم نوع من المهارات الفنية، صحيح أن حضارة البيض الآن لها الصدارة، ولكنها مسبقة بلا شك بحضارات لأجناس غير بيض، أنه لا يوجد ما يمنع الآن من مناقشة غير البيض للبيض على كافة المستويات، ما دامت الفرص ستكون متكافئة بالنسبة

(١) الجغرافيا والتحرر الإفرقى.. د. عبدالعزيز كمال ص ٤٠.

(٢) الحيوان ٣٥/٥، ٣٦.

(٣) ص ١٦٠ بتحقيق د. طه الحجارى.

(٤) فكرة صالبة عن الأجناس والعنصرية ص ٤٥.

لجميع، ثم إنه لا يوجد كذلك من علماء الوراثة المحدثين من يعتقد أنه وجد بين أسلافنا، أو أنه ظهرت بالطفرة "جينات" خاصة بالثقافة، فليست هناك مورثات تجعل من الإنسان شاعراً أو رساماً أو سياسياً أو قاطع طريق، كما أنه لا يوجد في الجنس الزنجرى مورثات خاصة مثلاً بموسيقى الجاز.

نقول هذا ونحن نعرف أن الطفل الأبيض الذى يصهر داخل حضارة متقدمة تتفتح مواهبه عن الطفل الذى يعيش داخل ثقافة بسيطة منعزلة، فالطفل الأول من السهل عليه أن يدرك أن $2+2=4$ ومن السهل عليه أن يتخرج من السبب إلى النتيجة، وأن يتعرف شيئاً فشيئاً على هندسة الوجود من حوله، ولكن الطفل الإفريقى الذى يولد في قرب غابة، وفي صحراء أو مرعى، يجب عليه أولاً أن يدفع عن نفسه تأثيرات الأرواح والسكر والنظرة الساذجة للأشياء، ثم عليه بعد ذلك أن يدخل عالم القوانين العلمية الصارمة فهناك "فترة ضائعة" من حياته بالنسبة لاطفال الأبيض. ومع هذا فإن هذه الفروق تبدو ثقافية وليست جنسية، ويمكن أن يتغير الحال لو أن الطفل الأسود عاش في مناخ حضارة علمية، ولو أن الطفل الأبيض قد حكمت عليه الظروف بأن يعيش الحياة نفسها التى يعيشها طفل أسود.

وما يجب أن يدرك في هذا المجال أن الإنسان الأسود قد حصل من الثقافة ما يحتاجه .. إن العبارة بالمجهود العقلى الذى يتطلب فهم أمر من الأمور لا بالطريقة الثقافية التى تحسب لذلك الأمر في سلم الثقافة العامة^(١). فالجواب حين تحكم على مدرسته العقلية أن تعد إلى أذهاننا تلك المعوقات التى باعدت بينه وبين غيره في مواطن الإدراك، وهى مباحث العلوم والصناعات فقصوره في الهندسة والفلك والكيمياء ليس لنقص فيه، وإنما لأن حياته لم تلجأ إلى الملاحة في البحار للوسعة، ولم تلجئه إلى إقامة الصروح والبناء بالأحجار، ولم تلجئه إلى إقامة الصروح والبناء بالأحجار ولم تلجئه إلى التنفن في إعداد الأطعمة، وصناعة الأكيسة، ولم تلجئه إلى أن يحفظ طعامه خوف العطب والحاجة، ولم تلجئه في الحرب إلى مد أجل الحصار وتنوع الأسلحة فكل ما احتاجوا إليه من ضرورة المعيشة وجدوه سهلاً ميسراً غنياً عن الجهد والحيلة في مواعيده التى تعودوها،

(١) داعى السماء ص ٤٦.

فالأهم التي عرفت للهندسة والفلك والعمارة والكيمياء وأدوات البذخ والرفاهية إنما عرفت لأنها لا تستطيع أن تعيش في بيئتها حقبة طويلة بغيرها ولو عاشت في القارة الإفريقية كما عاش للزنج لأهملتها ولم تفكر فيها^(١).

ونحن لا نعلم بأن الجنس الأسود لم يكن له إسهام في الثقافة نظراً لأنه فقد أساسين هامين هما :- فن الكتابة، وفن العمارة، ذلك لأنه في إفريقية جنوب الصحراء تنذر الحجارة ويصعب في الوقت نفسه نقلها من مكان إلى آخر، ولأن البردى والجلود بل والخشب وكل ما يمكن للكتابة عليه لا يعيش مدة كبيرة بسبب الحشرات ورطوبة الجو.. وإن كان هذا لم يمنع قبائل "الوى" في سيراليون من اختراع نوع بسيط من الكتابة يفى بأغراض القبيلة، بالإضافة إلى اللغة العامة المنتشرة وهي لغة الكتابة بالطبول والموجهة أساساً إلى الأذن، فالطبول تحفظ السنن بدقة أكثر لأنها - وهذا ناتج من طبيعة اللغة الموسيقية - لا تحفظ الإيقاع والتغني فقط، ولكنها تحفظ للرنين الكامل للكلمة^(٢).

ثم إن هناك عدة مكتشفات ظهرت أخيراً لأثار ما قبل الميلاد وبعده، وكلها توضح أن الإنسان الأسود لم يكن "مادة غفلاً" طيلة حياته، وإنما كان له دور رائع في الثقافة^(٣).

وعلى كل فما نريد أن نصل إليه هو أن ثقافة إفريقية قد حالت دون وصولها إلى مراكز الثقافة الأخرى.. للصحاري، والغابات، والسواحل المنفرة، وما نريد أن نصل إليه كذلك أن مشكلات التقدم والتأخر - برغم وجودها الحقيقي الآن - إلا أن تفسيرها الحقيقي لا يرجع إلى الجنس، ذلك لأن الظروف المحيطة كانت بلا شك "مفتاح الموقف".

وفي ضوء هذا نرى أن الزنجي حين ينشأ متصالحاً مع ثقافة متقدمة لا يختلف عن الإنسان الأبيض، فالزنج - على حد تعبير ريتشارد رايت - لم يصبحوا زنجاً إلا لأنهم عوملوا معاملة الزنوج، وعلى هذا يمكن تزنج أي أبيض

(١) المصدر نفسه ص ٥١-٥٣.

(٢) الإنسان. جاكوا ينزجون. ترجمة عبدالرحمن صالح ص ١٩٤-١٩٧.

(٣) إفريقية تكتشف من جديد. باسيل دافيمسون. ترجمة نبيل بدر، وسعد زغلول ص ٦٨، فجر التاريخ الإفريقي. ترجمة عبدالوحد الإيملي ص ٤١-٤٢.

فى أقل من ستة أشهر حين يوضع تحت الإجراءات المتعمفة والأحقاد والمظاهرات العدائية^(١).

وقد تنبه لهذا ابن قتيبة حين ذكر أن من قدم من شق العراق إلى بلد الزنج لم يزل حزينا ما أقام بها، فإن اندمج فى الحياة التى يحياها الناس هناك لم يكن بينه وبين المعتوه إلا شئ يسير^(٢) وحين نقرأ رثاء فيرلين لرامبو نجده يقول: ولكنك على الأقل تريد الميتة التى تريد، زنجيا أبيض، متوحشا رثع التمدن^(٣).

ومهما يكن من شئ فالسود الذين يوجدون فى وسط أوروبا أو أمريكا ويكونون منقطعى الصلة بالثقافة الإفريقية يعتبرون بيضا كباقي البيض فيما عدا لسون بشرتهم، ولكن الذى يحدث أن البيض يرون أن هذا السواد عار، وفى الوقت نفسه يعملون على أن يحس الأسود بهذا العار، وبهذا فالأسود الأمريكى يذكر دائما بأصله الذى فقد بمرور الأيام كل معنى بالنسبة له^(٤).

٤- الجانب النفسى من المشكلة :

لقد ظل الرجل الأبيض من فترة كبيرة لا ينظر إلى للرجل الأسود إلا على أنه مجرد عبد أو عدو له، سواء أكان عاملا فى مزرعته، أم حمالا ينحنى تحت حاجياته، ثم إن الظروف العاطفية للعلاقات بين المحاربين فى المعركة، أو بين السيد والخدام لم تكن تسمح للرجل الأبيض بأن يرى الرجل الأسود إلا على أنه واحد فى جماعة، وليس فردا.

ولقد حاولت الهيئات التبشيرية أن تعالج قضايا السود من حيث.. "الشخصية الفردية" ولكنها لم تحقق فى هذا نجاحا كبيرا، ذلك لأن "المبشر" كان يرى نفسه "وصيا" يمثل حضارة سامية يجب أن تتم حضارة الرجل الأسود لأنها مناوئة للمسيحية^(٥)، ويذهب برتراند راسل إلى أن الجنود الغريزية للاضطهاد العنصرى للقائم على الكون ترجع أساسا إلى الخوف من الخضوع لسيطرة أجنبية "وهو خوف

(١) اسمع لها الإنسان الأبيض ص ١٤٠.

(٢) عيون الأخبار ٢٢٠/١.

(٣) رامبو : صدقى إسماعيل ١٨٧.

(٤) الإنسان ص ٢٠، ترجمة عبدالرحمن صالح.

(٥) The African Image by Ezekiel Mphahlele, P. III.

يرجع بعض السبب فيه إلى عملية (الاستيطان) السيكولوجى فهو يذكر أنه قابل جماهير غاضبة فى إنجلترا ولكنها لم تخفه بقدر ما أخافتها فكرة وهمة عن إمكان حدوث ذلك فى اليابان.. وإلى جوار هذا الجانب يوجد جانب آخر وهو الشعور بالاشتمزاز نحو المجهول والغريب^(١)، فالنمل يقتل النملة التى تنتمى إلى جحر آخر، والحمام للمسور ينقض على الحمامة الدخيلة ويظل ينقرها حتى تموت، فالقنص الغريب لا يمكن فهمه، وما لا يمكن فهمه خطر^(٢).

من هنا نرى أن للعلاقة غير متوازنة، ونرى أنها تؤثر على العلاقات النفسية بين عالمى البيض والسود.. فلذا تركت هذا إلى العوامل النفسية التى تكمن وراء الاستعمار الأوروبى الحديث، وجدنا أنها ترجع فيما ترجع إليه - إلى شهوة الامتلاك واقتناء الأشياء، وهى ظاهرة يعرفها علماء النفس حين تبدأ برغبة الفرد فى امتلاك ما يشبع حاجاته الأصلية، ثم تتحول بعد ذلك إلى التطلع إلى ما عند الآخرين واغتصابه.

وجدنا إنها ترجع إلى حب للتافس وللظهور، وهذه الظاهرة يتصف بها فى العادة الضعفاء والمصابون بمركب النقص أو بالعظمة الجوفاء.. فإذا أضفنا "حب القوة" إلى الشعور بأن أوربا قارة صغيرة تقع فى ركن من أركان العالم، ولم تكن لها مشاركة فى مسيرة الحضارة البشرية إلا بقدر.. إذا أضفنا ذلك، أدركنا الدوافع النفسية التى تحكم نظرة الرجل الأبيض إلى الأسود، والتى تربى عنده ما يعرف بـ"الانجروفيو" وهى تلك الحالة النفسية من المقت والكرهية التى تتحرك فى الرجل الأبيض ضد الرجل الأسود.

ومن الطبيعى أن الرجل الأسود قابل كل هذا بهزات نفسية، وبطبيعة خاصة جعلته يتصرف فى ضوئها مع الرجل الأبيض.

ومن خلال هذه التوترات النفسية نشأت تلك الحالات المتعددة التى تحكم العلاقات بينهما، وهذه للحالات هى :

(١) آمال جديدة فى عالم متغير. ترجمة عبدالكريم أحمد ص ١٠٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٧.

١- التحامل :

ويكون نتيجة للتلقين والتجربة، وقد عرف بأنه: الموقف العدائى الذى يقفه إنسان نحو إنسان آخر ينتمى إلى جماعة ما بسبب انتمائه إلى هذه الجماعة، وقيل: إنه الرأى الذى يستند إلى مفاهيم خاطئة سواء أكانت النتيجة طيبة أم غير طيبة.

٢- وصم النوع :

وهو نسبة بعض الخصائص لكل فرد فى جماعة، مثل كل الإفريقيين سود.

٣- الدمغ :

وهو ينشأ من الجهل أو من الأحكام التى لا تستند إلى أسس سليمة مثل: الزنوج أكلوا لحوم البشر، أو الليبض يقتلون الجماعات الكبيرة.

٤- كره الأجنبى :

وهو النفور الغريزى من كل ما هو غريب، كالتحفظ نحو جماعة بعينها كما فى جنوب إفريقية، أو أمريكا.

٥- رد القيمة أو "الاعتبارات"

كما فى رسم صورة المسيح فى بعض الكنائس على صورة زنجى، وللعزاء على صورة زنجية.

٦- التعصب: يقوم على صورة عقلية عامة تطبق عشوائياً وبدون قياس لحقيقة كل فرد.

٧- التفرقة :

إذا كان للتعصب حالة عقلية، فإن التفرقة "فعل" يفعل.

٨- الفصل الاجتماعى :

وهو عزل كل جنس عن الآخر فى السكنى، وبعض المحال والنوادى، وكذلك بتحديد عمل لكل عنصر^(١).

(١) لون البشرة ولثته فى العلاقات الإنسانية ص ٢٢-٢٩ : ٥٧ - ٦٨، نهضة إفريقية (العدد ٢٢ سبتمبر ١٩٥٩).

وعلى كل فقد اهتمدى الطبيب والعالم النفساني "فرانز فانون" إلى أن معظم الزنوج الأمريكيين يعتبرون مرضى من الناحية النفسية، ويتصرفون فى حياتهم تصرف المرضى، ذلك لأن هناك نوعاً من لا معقولية الحياة يسيطر على حياتهم، ولأنهم ينكرون دائماً بأنهم شئ مخالف للطبيعة البشرية السوية^(١).

من كل هذا نرى أن هناك فروقاً نفسية بين السود والبيض، وأن هذه الفروق ترجع إلى أسباب كما تجوز عليهم تجوز على غيرهم.. فمن يوضع فى مثل هذه الحالات المشابهة لابد أن يظهر عليه هذا النوع من الأمراض، سواء كان قوة تضغط، أم قوة مضغطة، ومما يؤيد هذا قول الزعيم الأسود "ستوكلى كارمايكل" صاحب الدعوة إلى ما يسمى القوة السوداء.. قوله: "إننا أحسننا جميعاً بكعب الحذاء القاسى الذى لا يرحم للسيدة البيضاء، لقد جعلنا "زنوجاً" بشكل أو بآخر، وقد صممنا جميعاً على أن من واجب الإنسان الأسود هو التخلص من عالم الزنوج"^(٢).

٢- ما تأثير هذه الفروق على النتاج الأدبى والفنى :

(١) إذا كان عدد من المفكرين قد حفروا خنادق الفوارق بين الأجناس، بل ذهب بعضهم مثل للكاتب الفرنسى دى جوبينو De Gobineau إلى أن الأوروبيين أنفسهم يتفاوتون فى درجة الارتقاء إلى حد القول بفكرة الإنسان الأرسقراطى بالطبيعة.. إذا كان بعض هؤلاء المفكرين قد ذهب إلى مثل هذه الأفكار، فإننا نجد كذلك عدداً من الأدباء والفنانين قد تبنا هذه الاتجاهات.

فابتداء نجد أن "عطيل" فى عالم شكسبير، مع أن "إياجو" يطلق عليه كلمة ذا الشفاه الفليضة، إلا أن الإنسان يحس أن السبب فى الاعتراض على زواجه من "ديمونة" كان يرجع إلى أنها من الطبقة الأرسقراطية لا لكونها بيضاء^(٣).

وعلى كل فالقول بأن الوراثة هى الأساس فى الفروق الطبقيّة موجود بحسب فى القصص الإنجليزية التى كتبت فى القرن التاسع عشر، وفى نهاية القرن التاسع

(١) الإنسان ص ٢١.

(٢) الطبعة الحد ٨ من السنة الرابعة ص ٦٦.

(٣) آمال جديدة فى عالم متغير ١٠٨.

عشر حين كان الصراع حول إفريقية قد وصل إلى الذروة وجدت أعمال تؤكد فكرة التمييز العنصرى على نحو ما هو معروف فى أعمال كيلنج Kipling وريدر هاجارد Rider Haggard.

"وهكذا أصبحت الوراثة فى نظر هذه العقيدة هى السبب الأساسى فى قيام هذه الفوارق العنصرية"^(١).

وهذه النظرة التى تشوه الإنسان الأسود توجد فى "كلنيد" لفولتير وفى "الأب جوريو" لفوتران، وفى "تمبكتو" لموباسان وفى "باريس المجهولة" لبريفات وأنجيليمون، حتى "توماس" الذى تجرى فى عروقه دماء زنجية يتحكم فى روايته الطويلة "جورج" على الزنوج الذين نسوا ثورتهم من أجل الحرية حين وجدوا فى طريقهم بعض البراميل المملوءة بالنبيذ^(٢)، ولا شك أن هذه النظرة قد تغيرت أخيراً كما فى أعمال سارتر، وتيتيسى وليامز.

(٢) ويهمنى هنا أن نتعرض لتلك النظرية الشهيرة التى تعرض لها هيبوليت تين Hippolyte Taine وتعمد على مرتكزين يقولان بالتأثير المتبادل بين العوامل الطبيعية والعوامل النفسية وبأن الأبحاث العلمية لابد أن يكون لها تأثير فى الأدب والفن، وقد نصح المؤرخين بضرورة دراسة هذه العوامل النفسية والاجتماعية التى إليها ترجع الخصائص الثقافية والاجتماعية لكل أمة، وقد حصرها فى ثلاثة عوامل هى:

١- الجنس. ٢- البيئة.

٣- القوى الموجهة للعصر والمكتسبة فيه.

وهو يقصد بالجنس مجموعة الاستعدادات الفطرية التى تميز مجموعة من الناس انحدروا من أصل واحد، وهذه الاستعدادات مرتبطة بالفروق الملحوظة فى مزاج الفرد وتركيبه العضوى^(٣).

(١) فكرة صائبة عن الأجناس والعنصرية ص ٣١.

(٢) دفاع عن إفريقية. سعد زغلول نصار ٥٠ : ٥١.

(٣) الأدب المقارن. د. ضيفى هلال ط ٣ ص ٥٥، ٥٦.

فالجنس للزنجى مثلاً له صفاته العضوية الخاصة به، وله خصائصه الفكرية التي تظهر في نتاجه العقلي والفلسفي والفني، مهما تفرقت بين أبناء هذا الجنس البيئات، ومهما كان خضوعهم لنظم متنوعة من نظم الحكم ومهما اختلفت بينهم درجة للتمدن.

وهو يرى أن عامل الجنس هو أقل العوامل الثلاثة في اختلاف الإنتاج الفكرى وتنوعه، فخضوع الجنس للبيئة الطبيعية ونظم الحكم والعادات والتقاليد قد جعلته يكتسب صفات مشتركة ثابتة كلها للفرز الفطرية التي لا سبيل إلى القضاء عليها.

كما يرى أن هناك أجناساً كبيرة تدرج تحتها أجناس أخص منها، وحين يأخذ في التطبيق على نظريته يقول: إن الأشعار الأنجلوسكسونية يلحظ بها بعض مظاهر لقوة الخيال، وضعف الاعتقاد في الحياة الأخرى، وقبض من الإحساس ألام الطبيعية، كما تلحظ في الوقت نفسه دلالات قوة الإرادة والاتجاه العملى^(١).

إذاً قيل إن للفرنسيين يحبون للكلام الجيد فهذا حكم يرجع إلى "الجنس" وإذا قيل إنهم يحسنون الكلام في حضرة الملوك كان مرجع ذلك إلى البيئة^(٢) حيث رقى الأدب في أندية الملوك، وإذا قيل إن للنثر الجيد ازدهر في عصر لويس الرابع كان ذلك بتأثير "للحظة".

وإذا قيل إن "راسين" هو شاعر الملوك بحق كان ذلك بيئناً للموهبة الرئيسية فيه، وقيلساً على هذا إذا أردنا أن نبحث عن "شوقي" كان لابد أن نتعدى إلى تركيسته، وإلى المواطن السرى درج فيها طفلاً ودارساً وممارساً للحياة، أما تأثير اللحظة فنراها بوضوح في شعره السياسى والوصفى للملوك وحياتهم، فإذا انتهينا إلى أنه شاعر للملوك والأمراء كان مرد ذلك إلى القوة المسيطرة عليه، وهذه القوة قد كان من وراثتها: الجنس، والبيئة، واللحظة^(٣).

(١) نفس المرجع ص ٥٧.

(٢) تنبيه لهذا عند الحديث عن رقة شعر عدى بن زيد ابن سلام في طبقاته ١١٧، وابن قتيبة في الشعر والشعراء ٦٣، وأبو عمرو بن العلاء في المؤلف والمختل ٢٤٩، وكذا هذا بموضوعية لقاضى الجرجاني في الوسيلة ٣١، ١٨١.

(٣) تيارات أدبية د. إبراهيم سلامة ص ٩٠.

ومما أخذ على هذه النظرية أنها تقوم بعملية تفسير آلى للظواهر النفسية، فى ضوء جمع الحقائق والوقائع وتحليلها، كما أنها تعتمد على أن هناك جنساً نقياً، مع أن القول بوجود جنس نقى على امتداد التاريخ غير مقبول، وبالإضافة إلى هذا فإن هناك كثيراً من الحالات يكون للتأثير فيها من خارج نطاق الثقافة والفن القومى، وقد كان الأولى أن يدرك "تين" نظريته على الوجه الآتى .. هناك لجناس معنوية وفكرية منتبه - على سواء - فى الأمم المختلفة، ونتيجة لها توجد بينات أدبية وفنية ذات طابع عالمى، ثم هناك عهود يطبعها طابع السيطرة لبعض حالات الفكر، فتتلكى فيها أنواع من التأثير بمختلف الآداب^(١).

ولمستدأداً من هذه النظرة نجد "هربرت ريد" حين تحدث عن "مسألة الجنس" مع اعتقاده بأن الفن عالمى بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة، ينكر أن أنواعاً معينة من الفن كانت مميزة لأنواع معينة من الشعوب، فهناك اختلاف ملحوظ فى أساليب التعبير الجمالى "وهذا يعنى أن هذه الأساليب ليست أصيلة أو فطرية فيهم"^(٢) ونحن لا ننسى أن ننكر أن ابن خلدون قد دار فى كتاباته حول أساميين علميين يعتد بهما عند علماء الاجتماع وهما أساس الجنس وأساس البيئة، فتأثيرهما حتمى عند بعض العلماء، ولا بد من ظهوره فى الأمم وفى الأفراد معاً، وإذا كان ابن خلدون لم يدرس الأساس الأول دراسة علمية، فإنه بلا شك قد درس الأساس الثانى دراسة مستوعبة^(٣).

وعلى كل فالذى أصبح يطمان إليه أن أسطورة التفوق بين الأجناس لا تثبت أمام الأدلة العلمية، صحيح أنها قد سادت فترة عند المفكرين فى الغرب، ووجدت لها صداها المبكر عندنا كما نجد مثلاً عند أحمد أمين فى "فجر الإسلام"، وعند توفيق الحكيم فى "تحت شمس الفكر"، وعند العقاد فى "الفصول"، وغاية ما يمكن قوله فى هذا المجال أن هذه الأسطورة تتم عن تعصب مكين فى نفوس قائلها وعلى مغالطة ظاهرة^(٤).

(١) عن الألب المقارن ص ٦٢.

(٢) معنى الفن : ترجمة سلمى خشبة.

(٣) تيارات أدبية. (١٦٣).

(٤) فى الألب الحديث عمر السموقى ٣٢٤-٣٢٩.

(٣) الأسود يحس أنه ما دلم الاضطهاد يقع عليه من خلال جنسه وبسببه، فإن عليه أن يعي هذا الجنس بحرارة بل ويصخب، إن اليهودى يستطيع أن يعلن أنه إنسان بين البشر، أما الأسود فلا يستطيع أن ينفي أنه أسود، ويستطيع أن يطالب لنفسه بكل ما يتمتع به الآخرون، لقد أهين واستعبد ومن هنا فهو مرغم على تلصق ذاته، ومرغم على أن ينهض ويلتقط كلمة زنجى التى رموه بها كما لو كانت حجراً.. ثم يطالب بحقوقه، إنه يكشف للماهية السوداء أولاً من ينبع قلبه، وبهذا يكون "منارة ومراة" فى الوقت نفسه.

إنه يبدأ من "المنفى" ومن هنا فلا يجد فى أول الأمر من يتحدث إليه إلا السود.. ليحدثهم بدوره عن أنفسهم، ليحدثهم عن عالمهم. عالم الكهرمان الأسود، إتهم من عالمهم عالم الألم والغضب والكبرياء يلجأون إلى الشعر، وهذا بعكس السبيض الفقراء مثلهم، وهم فى كحهم لا ينسون "الغناء"، ولا ينسون أنهم يبدلون من الجرح الذى يسببه الجنس.

.. وهم يبدعون بحنين إلى العودة إلى إفريقية، "الفردوس المفقود" فهم يكافحون من أجل الانسلاخ من العالم الأبيض البارد الملئ بالفخاخ المنصوبة لهم إلى إفريقية مرة للعالم، وزهرة للشعر الأسود، إفريقية الباهرة المحروقة، الزيتية كجلد اللعبان، إفريقية النار والمطر والشبح المتأرجح بين الكينونة والعدم^(١)، إفريقية الرجال الأشداء وغابات المسافنا وأغالي الجدات، إفريقية بلد الدم الأسود الجميل^(٢)، وحين يرون أن هذا الأمل بعيد يبالغون أكثر فى التثبث بأنفسهم، ويبالغون أكثر فى تحدى للعالم الأبيض، وقد وضع هذا سارتر من منظور الوجودية فقال: ها هم أولاء رجال واقفون ينظرون إلينا، وولتمنى لو شعرون مثلى بالرهبة التى يشعر بها من يعلم أنه منظور، ذلك أن الأبيض قد تمنع ثلاثة آلاف عام بامتياز أن يرى الآخرين دون أن يروه، كان نظرة خالصة، وكان نور عينيه يخرج كل شيء من ظلمة الأرض السوداء، وكان بياض بشرته هو الآخر نظرة، نوراً مكثفاً، كان الإنسان الأبيض، الأبيض لأنه إنسان، الأبيض كالتنهار،

(١) أدباء معاصرون (موقف ٧) جان بول سارتر ترجمة جورج الطرابيشي

The African Image, P. 177.

Modern Poetry from Africa, P.58. (٢)

الأبيض كالحقيقة، الأبيض كالفضيلة، كان يضئ الخليفة كالشعلة، ويكشف عن ماهية الكائنات البيضاء السرية، واليوم ينظر إلينا أولئك البشر السود فترتد نظراتنا إلى عيوننا إن شئت شعلاً سوداء تضئ الآن بدورها للعالم، ولم تعد رؤوسنا البيضاء إلا مصليح خالقة نؤرجحها للريح^(١).

ثم إنهم يصفون أوروبا بالعنكبوتية، ويرون الزمن فيها ملطخاً بالعار، وللليل له صمت مرثئ، وللشوارع مكتظة برجال الشرطة، كما يرون أن مفاصل العالم الأبيض تطلق تحت النجوم، وفي النهاية فإن قلوب الناس في أمريكا صناعية، والمسيقان من "النيلون"، وأنه لا علاج للمفاصل التي تصلبت إلا بالدم الأسود فهو "زيت الحياة"^(٢).

وهو حين يعبر عن ذاته يجد نفسه مضطراً إلى استخدام الطباق (أسود وأبيض) وهو حين تد هاتان الكلمتان إلى فكرة، يتذكر أنه تراكمت حولها رموز لا تنتهى، ومن هنا تتساب إلى نفسه سلسلة من التداعيات التي تقول، أبيض كالثلج، وأسود كالجرمة، وهكذا تكون هذه الكلمة قد احتوت على الخير كله، وعلى الشر كله في آن واحد، ويكون قد أصبح للبياض سوداً سرياً، وللأسود بياضاً سرياً، ويكون على وعى في الوقت نفسه بأنه حين يريد أن يبنى حقيقته لابد أن يهدم حقيقة الآخرين.

وهو قد يجد نفسه مدحوراً حين يولج اللغة الأجنبية التي يكتب بها، حين يروض مثلاً بكلمات فرنسية قبله الذي جاء من السنغال، حين يحس أن هناك ريحاً شمالية تسرق منه أفكاره، ولا تظهرها بالحجم الذي يريده لها، وبالإشعاع الذي يحبه منها، وفي ضوء هذا يحس أن للكلمات البيضاء تتشرب فكره تماماً كما يتشرب الرمل الدم، ويجد أنه في غلبانه كثيراً ما يجد الألفاظ راقدة.. ويجدها بنصف طاقتها.

وهو أمام العجز لا يملك إلا أن يجعل للكلمات مجنونة، فهو يحرق اللغة، ويستخدم الرمزية السحرية، والتباس المفاهيم، واختلاط الحواس، والتشجن الذي ينتمى إلى الفولكلور، كما يستعمل للإيقاعات البدائية البعيدة، ويصل إلى حالة من

(١) أدباء معاصرون ص ٧٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٨٠، ٨١، P. 51 Modern Poetry from Africa.

حالات فقدان الوعي، فهم يردون على مكر المستعمر بمكر مضاد مماثل فما دام المصطهد حاضراً حتى في اللغة التي يتكلمون فسوف يتكلمون بهذه اللغة لتتميرها.

إن الشاعر الأوربي المعاصر يحاول أن يجدد الكلمات من إنسانيتها ليردها إلى الطبيعية، أما الأسود فسوف يعمل على تجديدها من فرنسيتها، فهو يضرب بعضها ببعض، ويحطم تداعياتها المألوفة، ويزلج بينها بالعنف.. إنه لا يتبنى الكلمات إلا بعد أن تكون قد تقيأت بياضها، فيجعل من هذه اللغة المنقوضة لغة عليا احتفائية ومقمنة، هي الشعر بعينه^(١).

(٤) .. ثم كان أن ظهرت في الثلاثينيات تلك الحركة التي اصطلح على تسميتها الزنجية^(٢)، Négritude، ومع أنه يقال إن هذا المصطلح قد ظهر في العشرينيات في منطقة البحر الكاريبي رد فعل للإحساس بالضياع في كوبا، هايتي، وپورتوريكو والمارتنیک، فإن المصطلح لم يصبح واجهة لتيار كبير إلا في فرنسا على ألسنة عدد من المثقفين السود مثل سيزير وسنغور ووليم داماس، فقد رفضوا القول بأن لهم جنوراً في فرنسا، وراحوا يؤكدون أنهم زنج فکراً وسلوكاً، الزنجية في نظر هؤلاء المثقفين ليست سلبية لأنها كما يقولون تنقب لحم السماء والأرض، فهي ضد أوروبا والاستعمار، وهي في صميمها شعر خالص، ولكنها شعر الزراع في مقابل شعر المهندسين، ذلك لأن الأسود فلاح قبل كل شيء، فهو ينمو مع السنبال ويكتسب لوناً ذهبياً ببطء، وهو أثنى للطبيعة وذكرها فهو في أعماق ينابيعها (خنوثة)، وفي ضوء هذا يكون الانبساط الساكن، وتكون في الوقت نفسه (العذاب)، ذلك الأسود يحصل على عائقه كل آلام البشر، ولكنه ليس العذاب المعروف في المسيحية، لقد قيل عنها إنها إحدى المصاهمات السوداء القليلة في القاموس الفرنسي، ولقد قال عن جانب منها ليوبولد سيدار سنغور: إن ما يكسب القصيدة زنجيتها ليس هو الموضوع بقدر ما هو الأسلوب، الحرارة الانفعالية التي تمنح الكلمات

(١) أدباء معاصرون ص ٩٣، ٩٤.

(٢) هناك من يرى تسميتها الزنجية على وزن العربية (دراسات في إفريقية المعاصرة ص ١٩٨) وهي تهدف أساساً إلى إعادة الجوهري التي للذات السوداء بعد أن فقدته، ويسمها سنغور الشيء الذي يجاهد الشاعر الأسود لإبرازه من أصاقله، وهي عند سنغور غضبية في مواجهة للتعصب، ورد فعل للميادة البيضاء، وكلمة "لا".

الحياة، والتي تحول الكلام إلى فعل، كما وضحتها الشاعر إيميه سيزير في قصيدة يقول فيها:

ليست زنجيتى حجراً يهاجم صخب للنهار.

ليست زنجيتى غشاوة من الماء على عين الأرض الميتة.

ليست زنجيتى برحاً ولا كاتدرائية.

إنها تفوس فى لحم الأرض الأحمر.

تفوس فى لحم السماء الحار.

تنقب الإرهاق للعظيم بصبرها المستقيم.

إن هناك من يربط بين الزنجية والميرالية، ومن يربط بينها وبين التعبيرية، ولكن هناك من يذهب كذلك إلى أنها لا تنتهى إلى مدرسة أوربية أدبية لأنها تشأ من موقف خاص بقائله ويصنعه كذلك موقف معين وبطريقة عليها بصمات أرواح قائلها، ولأنها تشمل العلاقة بين هيكل الثقافة^(١) الأوربية والحياة الإفريقية، مع مراعاة أن العلاقات بينهما ينبغي أن تتبع من المستوى الثقافى.

(٥) إذا كنا قد تعرضنا بصفة عامة لإبداع السود خارج القارة، فإنا سنخرج هنا على إبداعهم داخل القارة.. ولأول من يقللنا هنا هذا النموذج الذى يمثلته "توماس مفلو" من باسوتولاند، فقد آمن تومس مفلو بكل ما قاله الأوربيون حيث تعلم فى إرسالياتهم، وكان أن مجد فى روليت "المنافس نحو الشرق" المسيحية، وهاجم معتقدات قومه فى روليت "تشاكا" مع ملاحظة أنه - أى تشاكا - كان أعظم ملك لقاتل الزولو، وكان يطلق عليه اسم "تابليون الأسود"، فهو يسمى بحق رائد أحب للحماية.

ثم جاء بعد ذلك جيل احتذى "الشكل" فقط فى الأعمال الأوربية. أما الآن فيوجد جيلان، أولهما يحاول "التوفيق" بين الحضارتين، ويصل إلى الإحساس بأن مأساة الإفريقى - كما ذكر الكاتب الكمرونى مونجوباتى - هى مأساة الإنسان الذى

(١) أدباء معاصرون ص ١٠٥، ١٠٦، الإنسان ص ١٦٥، ١٦٦، دراسات فى إفريقية المعاصرة ص ١٩٨.

ترك لأخطائه فى عالم لم يخلقه ولم يفهمه.. إنها مأساة الإنسان الذى حرم التفكير، والذى عليه أن يتخبط فى طرقات مدينة معادية، وعيانه معصوبتان.. ويوجد داخل هذا الجيل من يرى إفريقية - كما فى رواية للصبي الأسود لكاملارى - مكاناً شاعرياً خالياً من التناقضات ومن يضحى بالحقيقة من أجل الصورة.

ولكن إلى جانب ذلك يوجد التيار الحقيقى والعارف، وأنصار هذا التيار يرون أن الكفاح للتحريرى غير من جوهر الأدب وشكله، وفتح الأعين على التحولات الاجتماعية، وعلى الإحساس الخاص بالقومية.. وهم فى الوقت نفسه يدينون النقل عن الأجانب، والأخذ بمنهج التصوير الخارجى للشكلى والقائم على الوصف من غير التعرض لمأساة الإفريقيين الآن تحت ظروف الاستعمار، وهم فى الوقت نفسه يصادرون الفكرة التى تقول إن الإفريقيين أطفال للحياة، وأنه يمكن أن تتم معايشة فى ظل الاستعمار، بين الطبقات الرجعية وبين الجميع.

ويعتبر من يمثل هذا الاتجاه بحق فرديناند أوبونو من الكمرور، وعبدالله سادجى من السنغال، وبرنارد دلاى من ساحل العاج..^(١) الخ. إلا أن الذى يجب ألا ننساه هو أن هذا الأدب للنضالى يختلف تمرده عن تمرد أدب الثورات العمالية، ذلك لأن الأسود لا يلغى ذاته وإنما يتعمقها ويوسع دائرتها بوضع اليد على يناييعها الحقيقية، ولأنه فى الوقت نفسه لا يرغب فى "التحول" من دور الضحية إلى دور القاتل، لا يريد أن يطفو من اغترابه فى قاع المجتمع ليضغط على البيض حتى يصلوا إلى للقاع نفسه الذى عاش فيه.

(٦) وإذا أردنا أن نصل إلى بعض خصائصه فى الفن، وجدنا أنه قد سلك سبيله إلى الحضارة راقصاً، فلزنجى بما هو عليه من مرح مطبوع على الولوج بالموسيقى والغناء والرقص، وكثيراً ما تتشابه هذه الفنون بعضها مع بعض بحيث ترسم جميعها لوحة فنية حارة.

فهناك الرقصات الفردية، والرقصات ذات المحتوى (الدرامى)، التى يقوم بها راقصون محترفون مثل رقصات التضحية، والشجاعة، والتوتم، والصيد، والقردة، والفرس، وهى فى أسسها تختلف عن فن "الباليه".

(١) الإنسان ص ٢٠٥ وما بعدها، والعدد ٣٥، ٣٦ من مجلة نهضة إفريقية .

كما ينتشر الغناء الفردي والجماعي الذي يصل إلى درجات مذهلة من العذوبة وعشق الحياة والخوف منها، وهي غزيرة إلى حد أن هناك من يقدر أغاني "الكلاما" في "غانا" وجددها بما يزيد على ستين ألف أغنية، بالإضافة إلى غناء نوع يقرب من الملاحم ويقوم به شعراء متخصصون في غرب القارة، وإلى هذه الحيوية التي تضيفها البطانة على الغناء، وكذلك عمليات التصفيق المنظمة.

ونحن لا ننسى أن "الإيقاع" يعتبر العمود الفقري الذي يركز عليه جسم الموضوع الفني وهيكله، وسواء أكان بسيطاً أم مركباً إلا أنه يمتاز في الغالب بالسرعة على نحو ما نرى في الجاز^(١) وبالتحديد إدراك الحيوية من أنه تنفذ سبع دقات على الطلبة في الثانية الواحدة، ومع أن هناك تشابهاً في الآلات المؤدية، مما يؤدي إلى تشابه في الألحان، إلا أن هناك من اهتم بالإيقاع مثل "بلابارتوك" الذي ألف "كونشرتو" لمجموعة من الآلات الإيقاعية فقط، ومثل للموسيقى النيجيري "فيلاسوفاندي" الذي سار في هذا الطريق في عمله المعروف "منتابعات إفريقية" وهو يبلغ الذروة في هذا العمل وبخاصة في الحركة التي تغني فيها أم أفريقية لطفلها.

وهناك من يذهب - مثل الدكتورة سمحة الخولي - إلى أن النوع المركب من الإيقاع يحل بوجه عام أزمة الإيقاع في الموسيقى الأوربية الكلاسيكية منذ مطلع القرن العشرين، والذي يعطى هذا النوع من الموسيقى حيوية إنه ليس خلفية للصوت على نحو ما نعرف في الموسيقى والغناء العربي، ذلك لأن له نغماً مفتوحاً ومتدفقاً.

والإيقاع هنا ينقلنا إلى الفن التشكيلي الإفريقي، وبخاصة النحت الذي يذكر أنه - مع غلبة الإيقاع عليه - يتسم بالخوف والتخويف نظراً للأخطار التي تحيط بالإنسان في الطبيعية، كما يتسم بالرؤوس الضخمة والعيون الواسعة ليمثل الأرواح. بالإضافة إلى قربيه من التجريد، ذلك لأن الإفريقي مضطر بحكم الكثلة الواحدة، وبعدم الإضافة، والبعد عن كسر الخط. إلى عدم التقيد بالتناسب الذي يوجد مثلاً في السماتيل الإغريقية التي تعطي الجمال والجلال معاً... وعلى كل

(١) موسيقى الجاز. لاتجستون هيز. ترجمة نلى عبدالنور ١٠ وما بعدها.

فالانطباعيون يشتركون مع الفن الإفریقی فی انفعال اللون وتغییر الشكل، والتکمیبيون يشتركون معه فی البناء الهندسی المتکامل، والسریرالیون يشتركون فی الخیال والغموض.

ولعل نقطة الالتقاء الواضحة بین هذا النوع من الفن الإفریقی والفن الحديث، إنهما یعبران عن "الشیء" بدلاً من ملء الوسط الذی يحدث فیہ بمعنى أن الموضوع وسیلة للفكرة، وأن المقصود هو الصورة للذهنية لا للمرئية^(١).

ثم إنه لا یجب أن ننسى اهتمام الإفریقیين بالألوان، واستخدامهم للحدا لحاسة البصر، وربما كان لهذه الحاسة أقوى للتأثیر ولبقاء بديل أن فكرة الجمال قد نشأت لدى الإنسان عن بعض المعطیات البصرية، بالإضافة إلى ارتباط الخبرة الجمالية بالمدرک الحسی، ومن هنا یكون "اللون" من أقدر عناصر الموضوع الحسی. على استثارة الإعجاب وتولید للذة، كما هو معروف عند الأطفال والمصورین وعند اللذین یرون فی الألوان أقوى تعبير عن تضارة الأشياء "والحق أن تأثیر الألوان لیس مجرد تأثیر حسی، بل هو تأثیر عاطفی (أو وجدانی) أيضاً بديل أن منظر غروب الشمس، ومنظر الزجاج الملون فی بعض الکفترائیات یتیر فی النفس من الارتباطات المتنوعة ما یخترق للحواس عبر للقلوب فتتفعل له النفس والجسم معاً"^(٢).

وعلى کل فالفن الإفریقی بصفة عامة لا ینعزل عن حركة الحياة، وهو لیس ترفاً وإنما فی خدمة الحياة الاجتماعية، وفی خدمة العمل من حولهم.

٣- هل یشعر السود بعقدة اللون ؟

إذا أخذنا رأى الطییب والعالم النفسی الأسود البشرة فرانز فاتون... نجد أنه برى أن معظم السود فی أمريكا یعانون مرضی من الناحية النفسية فطائفة منهم تطمح فی کل سوکها إلى أن تصبح بیضاء، ذلك أنهم یریدون تحریر أنفسهم من هذا الکلبوس الذی یجثم على ذلکرتهم لأن جلودهم سوداء.

(١) آفاق للفن. لکسندر البوت ترجمة جبرا إیراهیم جبرا ص ٧٢، وما بعدها، العدد ١٠، ٢٨، ٣١ من مجلة نهضة أفريقية.

(٢) فلسفة الفن فی الفكر المعاصر د. زکریا إیراهیم ٧٨.

والصحافة فى هذا للمجتمع تلج على الإحساس المرضى وتؤكد فتلح دائما
عن تركيبات، ووصفات لتبيض الجسم^(١).

وهناك طائفة أخرى تجد خلاصها فى الانكباب على التراث الإفريقى،
والتمسك بكل ما هو أسود كرد فعل لما يلاقونه.

فالأسود الآن مسئول عن نفسه مسئولية الإنسان الأبيض عن نفسه، ولكنه
يزيد عليه أنه مسئول عن لون جسمه، وجنسه، وأجداده، ومن هنا يرى نفسه شيئاً
فشيئاً يكتشف سواده، وخصائصه العنصرية، وكل ما يقال ضده، وهو حين يرفع
صوته لمعرفة السبب يعرف أشياء لا تمت للمنطق بصله، ومن هنا يكون مثل
الطفل - كما يقول أخصائيو التحليل النفسى - الذى لا شيء يهز أعصابه أكثر من
اصطدامه بالحقيقة، فهو ينتقل بين اللامعقول ولللامنطقى، ويجد نفسه فى دائرة لا
تنتهى من إقناع الببيض الذين يظنون متفوقين عليه.. بأنه لا يقل عنهم فى شيء^(٢)
فالإنسان الأسود يرى نفسه فجأة فى حالة عجز أمام قوة حضارية جديدة تعمل دائماً
على السخرية منه، وإقلاقه، وحتى الذين لغفموا غمساً فى الحضارة الغربية
وجدوا أنفسهم فى حالة اغتراب .. من نوع آخر، ذلك لأنه كان يتعامل ويعيش مع
القيم التى تؤكد انحطاطه، وتدفعه إلى أن ينقسم على نفسه.

ويرى دى فرايز De Vries أن أشد لطمة يقشع لها بدن الطالب الملون أن
يسمع العبارات الدالة على التفرة توجه إلى من عاشوا داخل المدنية الغربية، وهو
حين يعود إلى وطنه فيجد مكانه اللاتق به لابد أن تتحرك داخله تلك الإهانات التى
انصبت عليه، ومن ثم يطالب بالانتقام، ذلك لأن ما وجده هناك قد كان - على
أحسن الظروف - هو الإخاء لا المساواة..

(١) يذكرنا هنا بالقصة التى تروى عن معاوية من أنه دخلت عليه جارية بوضاء متجردة من
ثيابها، وحين أراد أن يهديها إلى يزيد استشار فى هذا الأمر الفقيه ربيعة بن عمر الجوشى،
فأرى أن يتحول معاوية عن هذا الأمر، فما كان منه إلا وهبها لعبدالله بن مسعود الفزارى مولى
فاطمة بنت رسول الله وكان أسود وكان مما قلله له "بيض بها ولذلك" (معاوية بن أبى سفيان
فى الميزان. دار الكتاب العربى - بيروت ص ١٣٠).

(٢) الإنسان ص ٢١-٢٥.

وقد يولد هذا عند الشعوب السوداء ما يسميه "ريتشارد رايت" تفكير الضفدع.. وهو تعبير استعارى من نيشته ليصف به الأدنى حين يتطلع إلى الأعلى، وبخاصة حين يتولد عند الأدنى شعور الكراهية، ذلك لأنه يجد نفسه قليل الحظ فى محاكاة الأعلى، فالذى لا شك فيه أن الرجل الأبيض قد سلب احترام النفس من الإنسان الأسود وولد عنده الإحساس بأنه يجب عليه أن يستعيد شيئاً مما فقد منه، وهذه السنمة لا توجد عند الرجل العادى فقط، ولكن عند الزعماء كذلك، وتفكير الضفدع لا يسيطر فقط على الآسيويين والأفريقيين الذين كابدوا النظام الاستعمارى بل أيضاً على زواج أمريكا، ونتيجة لذلك يمكن القول بأن القرب المادى من الأمريكى أو الأوروبى الأبيض أو البعد عنه ليس لهما أى تأثير، والسبب فى كل ذلك هو الامتنان أو التمييز للذات يبعثان فى نقر من البشر شعوراً بانهم خاضعون إلى قوى تتفوق عليهم^(١).

وقد يرد سؤال يقول: أليس هناك من السود من ينجحون فى تحطيم الحواجز العنصرية والاجتماعية، ويصلون إلى المكانة التى يستأثر بها الإنسان الأبيض، وبهذا يصلون إلى ما يمكن تسميته بالاندماج؟

والجواب هنا أن الاندماج ظاهرى، وإن كان من العسير التفرقة بينه وبين الاندماج الحقيقى، نظراً للكرامة التى تحيط بالمراكز الجديدة المنتزعة، ومن الطبيعى أن هذه الحالة تختلف عن حالة محدودى الطموح الذين يرضون البقاء داخل الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها معظم ذوى قرابته، ذلك لأنها تؤدى إلى حالة تسمى الاعتزال سرعان ما يحس بها السود^(٢).

٤- هل الشعور بعقدة اللون دائم أو مرهون بوجودهم فى مجتمع من البيض:

من الطبيعى أن هذا الشعور بالدونية أو بالغيرة، لا يوجد إلا فى المجتمعات التى يشكل فيها الإنسان الأسود أقلية (أمريكا) أو حين يكون الإنسان الأبيض هو

(١) اسمع أيها الإنسان الأبيض ص ٢٦-٢٩، لون البشرة وأثره فى العلاقات الإنسانية ص ٥٩.

(٢) لون البشرة ص ٦٠.

لقائم على مقدرات الناس (جنوب إفريقية)، وأما في المجتمع الذي يتشكل من السود (غينيا) فإن هذا الشعور بالطبيعة لا يكون موجوداً، وحتى إن حدث، فإنه يكون نتيجة لظروف أخرى فرضت نفسها عليه، ذلك لأن قضيته العنصرية في إفريقية وإن كانت ترتكز على قاعدة عريضة من اللون، إلا أن لها عوامل أخرى مساعدة توجد في الفروق الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وفي ضوء هذه الحقيقة يمكن أن تبرز تلك العنصرية التي اتفق على تسميتها "العنصرية للسوداء" والتي تقوم في المقام الأول على الميراث الثقافي.

وقد ظهرت هذه العنصرية كحقيقة واضحة في ليبيريا وسيراليون.. فقد ظهرت في سيراليون تلك الطبقة من السود التي عملت بريطانيا على نقلهم منها إلى سيراليون وبخاصة هؤلاء السود من الأمريكيين الذين حاربوا في صفها ضد الأمريكيين في حرب الاستقلال الأمريكية.. بالإضافة إلى بعض سود "جمايكا" فقد تكون من هؤلاء وهؤلاء طبقة سميت "لكولول" وعددهم الآن ثلاثون ألف بينما الإفريقيون نحو مليونين.

وعلى كل فحين رأى "الكريول" أنفسهم متقدمين ثقافياً واقتصادياً على أهل البلاد الأصليين، عملوا من جانبهم على الترفع عن أهل البلاد، وأبقوا الصلات بينهم وبين الإنجليز.

وهكذا احتفظوا بالبقاء "جسماً ناتئاً، وسط السكان، إلا أنهم أصبحوا يحرمون على أنفسهم الزواج من السود في الداخل، وقد وصل بواحد من زعمائهم - هو الدكتور بانكول بریت Bankoi Bright إلى أن يقول: أن الكريول يرفضون أن تكون الأغلبية في المجلس التشريعي من السود الوطنيين، ذلك لأن الكريول رعايا بريطانيون بالمولد، وكذلك مسيحيون، أما السكان الآخرون فوثنيون وأكلوا لحوم البشر!

.. والحال في ليبيريا يشبه الحال في سيراليون، ذلك لأن الأمريكيين عملوا من جانبهم أيضاً على توطيد طائفة من العبيد الذين تحرروا في هذه المنطقة، إلى حد أنه رفع شعار في ليبيريا عام ١٨٤٧ يقول: "حب الحرية جاء بنا إلى هنا" وقد كان عدد هؤلاء للقلمين خمسة عشر ألفاً إلى جانب مليونين ونصف المليون من السكان الأصليين، وقد وصل الأمر بهؤلاء السود الوافدين إلى أن يشكلوا هناك

الواجهة السياسية والاقتصادية والثقافية، وإلى أن تقول الفقرة الرابعة من وثيقة الاستقلال: نحن شعب جمهورية ليبيا كنا أصلاً من سكان الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية.

والذى لا شك فيه أن أمر هذه التفرقة السوداء أخذ في الازمحلال من فترة، ولكن هذا لا يمنع من وجودها حقيقة^(١).

وعلى كل فإن هناك من يرى - مع الاعتقاد بأن العداء العنصرى ميراث ضد الحرية وضد العقل، وأنه موروث من ماضى الإنسان الحيوانى - أن القضاء على هذه للعقد ليس أمراً مستحيلاً كما يعرف كل من اقتنى قطرة وكلباً في وقت واحد^(٢).

٥- ما حقيقة نظرتهم إلى الرجل الأبيض؟

هم ينظرون لعالم البيض على أنه عالم متفوق، وعالم البيض في نظرهم يمثل كله شيئاً واحداً في نفسية الإنسان الأسود، ذلك لأنه تعاون فيما بينه على قهره واستغلاله والتعالى عليه، وقد يكون هناك استثناء في نظرة للعالم الأبيض إلى إفريقية، ولكن "بياض" أوروبا يعتبر في ذهن الأفريقى حقيقة قديمة مترسبة.. فقد كان هذا "اللبياض" وراء الكشف، والتبشير والاستعمار، والاحتكار والتمييز، والتفتت، ولتمتصاص للقوى الجديدة أو ضربها " .. وعندما ينظر إلى العالم الأبيض من داخل عالم الملونين، لا يشكل هذا العالم الأبيض إلا كتلة واحدة، تكاد تكون بلا حواجز أو تجزئات، لقد استعمت إلى نقر من الفرنسيين المتحررين بيدون لشمزأزاً صلاتاً لدى معرفتهم بأن أحد الزنوج قد ذهب ضحية تعصب بعض البيض في الممبسي، وبالنسبة لابن آسيا وأفريقية ليس أبيض الممبسي هو الذى قضى على الزنجى، بل أبيض الغرب ومن العسير جداً على بيض أوروبا الغربية أن يفهموا، ويتحققوا كم هى صغيرة القارة الأوربية فى أذهان الشعوب الملونة^(٣).

(١) دراسات فى إفريقية المعاصرة د. عبدالعزيز كامل ص ١٧٤، وما بعدها العدد ٤١ من مجلة نهضة إفريقية.

(٢) آمال جديدة فى عالم متغير ١١٤.

(٣) لسمح ليها الإنسان الأبيض : ٣٠، ٣١.

ثم إن الإنسان الأبيض ليس بشرة بيضاء وعينين زرقاوين وشعرًا أشقر فقط ولكنه إلى جانب ذلك احتكار واستعمار وعرقلة لتقدمهم، وذود لهم عن الاقتراب من عالمهم الخاص، يقول الرئيس كينيدي كاوندا إنه دخل على الحاكم في بلاده، وحين حياه لم يرد عليه وإنما التفت إلى سكرتيه قائلاً.. أبلغ هذا الرجل بلغة البمبا أن يقول صباح الخير يا سيدى.. وطول المقابلة كنت أتكلم بالإنجليزية ولكن الحاكم كان يرفض الاستماع إلى ويطلب من سكرتيه أن يترجم أقوالى إلى لغة البمبا، وذلك ترفعاً بنفسه وبلغته أن يتكلمها أسود مثلى، وهكذا أراد الحاكم أن يلغى تلك اللسنيين الطوال التي قضيتها فى دراسة الإنجليزية وآدابها، وأصر على اعتبارى "إفريقيا جاهلاً"^(١)، وهذا الأمر لم يكن مقصوراً على الحاكم وإنما تعداه إلى عمال بيض فى صيدلية، اضطراه حين تكلم بالإنجليزية إلى أن يقبضاً على ذراعيه ويمسكانه للخارج كالضفدع^(٢) أن للرجل الأبيض فى أمريكا مثلاً يولد أمريكياً، أما الأسود فكيفاح ليكون أمريكياً وهو يصدى دائماً كلما احتك بعالم البيض فهم ينظرون دائماً إلى العالم على أنه خريطة ملونة "إننى عندما أنظر إلى العالم، وأقيم الشعوب والقادة لا يمكننى - حسب ما تربيته وتثقلت فى المجتمع العنصرى - إلا أن أرى أبيض أو أسود أو ملوناً، حتى أصبح تعبير الأبيض بالنسبة لى يعنى أنه مستغل ورجعى وعنصرى ومتواطىء وانتهازى، وأصبح تعبير غير أبيض يعنى باختصار شديد أنه ثورى مناضل يكافح ليُحرر أو يموت حتى ولو كان أبيض كالكوبيين أو أشقر كجيفارا"^(٣).

على أنه يجب ألا نغفل عن أن تركيز البيض على للفرقة للعنصرية يقابل من الأسويين والإفريقيين بالتحدى والكبرياء، وقد كانت نتيجة هذا أن ظهرت عصبية قارية، وعصبية ألوان فى مواجهة تلك العصبية التى تقول بالأرية أو السامية، فالأفريقى أصبح فى الغالب يشيد بنسبته إلى موطنه، ولا يعلن هروبه من جنسه الأسود، بل أصبح لا يسره أن ينتمى إلى سلالة البيض، كما أصبح غير فى أشياء كثيرة حتى فى المعتقدات على نحو ما هو معروف فيما يسمى بالكنايس المسقتلة، وكنايس المتبنيين، والعبادات المستحدثة، وإلى حد أنه أصبح يدعو أحياناً إلى الكراهية، ولا شك أن هذا يعتبر عقبة فى وجه الدعوة إلى الإخاء والمساواة.

(١) زامبيا فى سبيل التحرير. كينيدي كاوندا. ترجمة حسين الحوت ص ١٧.

(٢) نفسه ص ٢٦.

(٣) تصريح للزعيم الأمريكى الأسود ستوكلى كارماكل (المصور عدد ٢٢٤٢، ٢٩ سبتمبر ١٩٦٧).

ولعل أهم دعوة في هذا المجال هي تلك الدعوة التي دعا إليها ماركوس أورليوس جارفي M.A.Garvey والتي تدعو إلى اللقاء العنصري الأسود، وترفض "المولدين" الذين يكونون شرة اللقاء بين الجنسين، لأن عملية الالتقاء هذه تضيق عليهم حقوقهم، وتجعلهم يذوبون في غيرهم وقد نظرت هذه الدعوة إلى إفريقيا على أنها أرض الميعاد، والوطن القومي للسود.. ومن هنا أطلق على حركة جارفي اسم الصهيونية السوداء، وكانت الخطوات تكوين كنيسة خاصة بالسود، وجريدة، وإنشاء خط ملاحى بين أمريكا وإفريقية، والمناداة بالامبراطورية زنجية اعتبر نفسه رئيسها المؤقت^(١).

وهكذا فإن عقيدة "السيادة للبيض" تثير عقيدة "السيادة للسود"، وأن العنصرية الأوربية تولد العنصرية الأفريقية^(٢).

٦- هل الأسود همجي؟

هناك من يؤكد أن الإنسان الأول العاقل قد ظهر على الهضاب العالية لإفريقية الشرقية والشمالية والوسطى، ثم إن الإنسان الأسود قد عرف الزراعة قبل أكثر من خمسة آلاف سنة في الوقت الذي كان فيه للكثيرون من أبناء الأجناس الأخرى يجهلون، ويعيشون في الوقت نفسه في البقاع الخصبة معتمدين على الغير.

والثابت من الجنس الأسود، أنه زرع الأرض، واعتمد على ثمرتها من قبل أن يعرف الماشية. وهذه الخبرة بالزراعة هي التي جعلت للسود تلك المكانة الملحوظة في البرازيل، فلم يحدث فيها ما حدث في الأقطار المجاورة من التعصب والنفور بين الأوربيين المهاجرين وقبائل الهنود لبحر في أمريكا الجنوبية، فقد كان السود أساتذة للمهاجرين إلى البرازيل في فنون الزراعة باعتراف المؤرخين البرتغاليين، وكان لهذا الفضل حقه الملحوظ في شعور البرازيليين البيض والسود بالمساواة والتقارب في المنزلة الاجتماعية^(٣).

(١) دراسات في إفريقية المعاصرة ١٩٢-١٩٥، للديانات في إفريقية السوداء هوبير ديشان. ترجمة أحمد صادق حمدي ص ١٧٦، ١٧٧.

(٢) صحوة إفريقية. بازيل دافيدسون. ترجمة عبد القادر حمزة ص ٢٢٤.

(٣) يوميات عباس محمود ج ١ ص ٢٨١، ١٨٢، مجلة الأدب الأفريقي الآسيوي العدد الأول مقال لمنفور عن الزنوجة والعروبة.

وعلى كل فهناك كتب عديد تتصف أفريقية، وتحدث عنها بنبرة موضوعية ولعل من أهمها فى هذا المجال كتابين قد مر بنا ذكرهما وهما، "إفريقية تكتشف من جديد"، و"تجر التاريخ الأفريقى" وهناك مثقفون مرموقون قد وقفوا كثيراً عند هذا الجانب مثل ليوبولد سيدنر سنغور، ومثل أ.أ. تولفور من نيجيريا، ونحن لن ننسى هنا كوامى نكروما وهو يقف وقفة طويلة ليؤكد الحجم الكبير لدور بلاده فيقول: لقد استطاع أجدادنا منذ قرون طويلة أن يثيدوا إمبراطورية شامخة، شيدها قبل أن تكون لسبريطانيا لية أهمية فى الوجود. وقبل أن تتجمع قبائلها فى شعب موحد. وظلت هذه الإمبراطورية قائمة، تظلها أجواء الحضارة من تمبكتو إلى باماكو إلى شاطئ المحيط. وكان بها العلماء والفقهاء يحوطهم الاحترام والتبجيل، ومن حولهم شعب غانه رافلا فى أثواب المخمل والحريز، يصوغ صناعة أفانين الذهب والجواهر والفضة والنحاس، وتنتج أناملهم أروع أنواع النسيج.. نحن لا نخجل من ماضيها فإنه يشع علينا فخراً^(١).

ومع هذا فما أكثر الذين ذكروا عن الأفريقيين إنهم أولاد سيئون ومهيجون.. بفتح الياء وأطفال لا بد لهم من أولياء أمور.. وحين كانوا يرضون عنهم كانوا يسمونهم البرابرة للتبلاء على من الصفقة التى لصقت بالأسود هى الهمجى وبخاصة حين اتخبط فى عمليات إرهابية مثل حركة الكيكويو فى كينيا، ومثل تفجيرهم الثورة بعد الثورة على الإنسان الأبيض فى الفترة الأخيرة.

.. وكلمة الهمجى إذا كان المقصود بها إهانتهم وبشكيكهم فى أنفسهم، فإن المقصود بها كذلك أن تكون مسوغاً للسيطرة عليهم سياسياً واقتصادياً وفكرياً، وقد تشبه ريتشارد رايت لعملية الدمع هذه فكان أن وقف بأناة عند هذه الكلمة، موضحاً فى أول الأمر أنها تشبه سيفاً ذا حدين على الصعيد النفسانى، وأن هذه الكلمة الصاخبة تعنى عند السود معنى غير المعنى الذى يرد بها عند البيض فيقول: إن الهمجى موجود بالطبع ولكن ليس كما يعتقد الأوروبيون، لقد لعب الأوروبيون دوراً جوهرياً لساغية فى تشويه معنى الكلمة كى يكونوا قادرين على التصرف كما يشاءون، إنك تلاحظ أن حيلتنا القبلية هائلة ومنظمة كل التنظيم، وأن النظام ساند

(١) للعدد ٨، ١١ من نهضة إفريقية.

فى كل قرانا للنظيفة، وأن بنى قومنا يطيعون سلطات القبلية، وإذا كان هناك ما يمكننا أن نأخذه على حياتنا القبلية فهو هذا الضجر المميت الذى لا يقطع حبله سوى الاحتفالات الدينية^(١).

إن من متى يبدأ التفسويز والاضطراب؟ إنه يبدأ عندما يتدخل الأوروبيون السبيض فى شئوننا، وينتزعون أحد أبنائنا، وينقلونه إلى محيط غير محيطه ودائرة غير دائرة، نهل من الغريب أن يتنذب هذا الإنسان المنتزع من بيئته، ويتصرف تصرفاً فيه بعض المقاومة؟ وهل يصح أن تسمى هذه المقاومة وحشية؟

ثم يذكر أن هناك مسلماً وحشياً بالفعل، ولكنه فرض فرضاً على هذا الإنسان، حين كان هناك هدف واضح ومحدد وهو استغلاله تحت سائر الإنقاذ من الوثنية^(٢). بالإضافة إلى وجود طاقة تسمى مروضى الزنوج للهم من كيانته^(٣) ومن الطبيعى أن إنساناً وقع عليه مثل هذا الضغط، لابد أن يكون همجياً بالمعنى الذى يريده الأسود، لا بالمعنى الذى يريده الأبيض.

(١) صحوة إفريقية ص ١١٠، ٣١٤ وما بعدها.

(٢) اسمع أيها الإنسان الأبيض ٣٢ وما بعدها.

(٣) مشاهير الزنوج، لا نجستون هيوز ترجمة عمر الإسكندري، ص ٤٠.

الكتاب الأول
صلوات السود بالعرب



صلات السود بالعرب قديماً

أولاً: الصلة بالأحباش قبل الإسلام

(١) لقد كان هناك تماس بين الأحباش والعرب من وقت بعيد، وهناك من يذهب إلى أن النشاط اليمني في الحبشة يرجع على الأقل للقرن العاشر قبل الميلاد^(١).

والسبب أنه في هذا الزمن المبكر قد تحركت نواة يمنية صلبة إلى الحبشة لتمثل أكثر ما تتمثل في قبيلتي الحبشان والأجاز، وهناك من يشكك في أن السود الوطنيين كانوا يستطيعون وحدهم القيام بهذا النوع من الحضارة في الحبشة لولا هذه الأمواج العربية القديمة التي وضعت بصم أساس السامية في الحبشة، وقد ازداد هذا التأثير أكثر ما ازداد حين تصدع سد مأرب حوالي منتصف القرن الخامس ق.م، وكان هذا الميل الذي لا ينتهي من الهجرة مخلفاً وراءه اليمن.

وقد أثبتت النقوش القديمة في بلاد الحبشة أنهم كانوا يستخدمون في هذه الفترة المتقدمة للغة والكتابة السبئية^(٢) وإذا كان هناك من يقول: بأن الحروف الأثيوبية قد تطورت عن أصل يوناني، فإن هذا الرأي يجب طرحه الآن تماماً وبشكل لا يقبل المراجعة، ذلك لأن الحروف الموجودة في المخطوطات الحبشية إما مطابقة تماماً للسبئية، وإما أنها تشبهها إلى درجة لا تدع مجالاً للشك في تطورها عن السبئية، وإذا كان لا يمكن أن نقول إن اللغة الأثيوبية هي مجرد واحدة من اللهجات العربية، إلا أن هذا لا يمنع الاستنتاج الذي ينتهي إلى أن اللغة الأثيوبية القديمة بعد انفصالها عن اللغات السامية الشمالية قد سارت في طريقها نفسه فترة من الزمن؛ ولكن عملية الانفصال عن العربية كانت في وقت مبكر لم

(١) السودان وولدي للنيل د. محمد عوض محمد ص ٣٥.

(٢) تاريخ العرب. فليب حتى. ترجمة محمد مبروك نافع جـ ١/٦٧، ٦٨ بين الحبشة والعرب الدكتور عبدالمجيد عابدين ص ١٠.

تكن فيه العربية قد وصلت إلى أشكالها الحالية، وإلى قواعدها التي كانت في طريق الاستقرا^(١). وبالإضافة إلى هذا ثبت أن هناك أماكن، وآلهة وبعض نظم الحياة كانت مشتركة بين الحبشة واليمن، وهذا يدل على الدور العربي الذي لاشك فيه في الحبشة^(٢).

(٢) وبالتالي كانت هناك رياح عكسية تهب من الحبشة إلى اليمن، وإذا كانت هذه الرياح غير ذات فاعلية في عهد المملكة المعينية، والمملكة السبئية، والدولة الحميرية الأولى، فإن الثابت أنه في عهد الدولة الحميرية الثانية قد غزا الأحباش اليمن غزواً أسفر عن حكم قصير، ولكن ملوك حمير الوطنيين سرعان ما تخلصوا من هذا الحكم، وظلوا يحتفظون بمكانتهم حتى حوالي عام ٥٢٥م، وفي النقوش الأكسومية التي ترجع إلى منتصف القرن الرابع نجد الملك الحبشي يذكر أنه ملك أكسوم وحمير وريدان وحبشة وسلع وتهامة، ومن المعروف أن هذه الغزوة لم تكن الغزوة الأولى للأحباش في بلاد العرب، ذلك لأنه حدث قبل ذلك في القرنين الثاني والثالث الميلاديين أن الأحباش تمكنوا من بسط نفوذ مؤقت لهم على بعض أجزاء بلاد العرب الجنوبية، وقد احتفظت النقوش بأسماء تسعة من ملوك حمير في ذلك العصر.

والثابت وراء هذا أن الهمدانيين قد تحالفوا مع الأحباش ضد الحميريين وأنه قد كان ثمار هذا الحلف أن اتخذ الأحباش لهم قاعدة في مدينة "سحرت" ثم لما أراد الملك شهريرمرعش استخلاصها من أيديهم قامت الحرب مرة أخرى^(٣).

ثم إن المسيحية قد أخذت طريقها إلى اليمن بواسطة الأحباش ومن ورائهم الروم، وفي الوقت نفسه وجدت لليهودية لها متنفساً في عهد الدولة الحميرية الثانية، وربما كان وراء ذلك غزو فلسطين، وتحكيم مقدساتهم على يد تيطس في سنة ٧٠ م، إلا أن من الثابت أن معظم لليهود في بلاد العرب كانوا من الآراميين، والعرب المستهودين، وقد وصلت اليهودية إلى الحد الذي تمكنت فيه في الشطر الأول من

Ethiopic Grammar Dillmann and Bezald, P. 7.(١)

(٢) بين الحبشة والعرب من ١٠، ١١.

(٣) تاريخ العرب جـ ١ ص ٦٢ وما بعدها، بين الحبشة والعرب من ٢٢-٣٤.

القرن السادس من أن تجعل ذا نواس آخر ملك حميرى ولحداً من معتقيها، وهناك من يذهب إلى أن اعتقله اليهودية كان بوازع من الروح القومية التي جعلته ينظر إلى المسيحية من خلال الأحباش على أنها أداة للسيطرة^(١)، وإلى هذا الملك اليهودى تنسب تلك المحرقة المشهورة التي ذهب ضحيتها مسيحو نجران في عام ٥٢٣، وإلى هذا إشارة القرآن الكريم^(٢) عند بعض، ولكن أحمد أمين يقول: وذلك بعيد لأن كلا من اليهود والنصارى يؤمن بالله العزيز الحميد^(٣)، وعلى كل فحين يصل هذا النبأ إلى قيصر الروم "جيسنتيان" نراه لا ينسى أن للروم ثأراً قديماً فى هذه البلاد، فقد جهزت فى سنة ٢٤ ق-م حملة مؤلفة من عشرة آلاف رجل، وخرجت هذه الحملة من مصر تحت لواء حاكمها أيلوس جالوس Aelius Gallus وقد ساعد الروم فى هذه الحملة حلفاؤهم الأنباط من أجل تحقيق هدف الاستيلاء على شبكات طرق النقل التي كانت محتكرة لعرب الجنوب، ومن أجل استغلال الموارد اليمنية لمصلحة روما، وقد توغلوا بالفعل فى المنطقة الجنوبية، وحين لم يحققوا أغراضهم استداروا محطمين إلى نجران التي سبق أن استولوا عليها، ثم اتجهوا بعد ذلك إلى ساحل البحر، ثم عبروا إلى الشاطئ المصرى، بعد مدة استغرقت فى العودة ستين يوماً، ومع هذا فقد كانت أقصى نقطة وصلت إليها هذه الحملة المشنومة، هى مريابا التي يحتمل أنها لم تكن مارب عاصمة المسينين بل مريابا الواقعة إلى الجنوب الشرقى منها، وقد لعن الجغرافى المشهور سترابون - الذى كان مؤرخ الحملة، والذي كان صديقاً شخصياً لجالوس - سوء الحظ، وصب جام غضبه على خيانة دليل الحملة "سايليوس وزير الأنباط".. وهكذا انتهت بفوضىحة وعار، وبكل تأكيد كانت آخر حملة حربية ذات أهمية عظيمة خاطرت دولة لوروبية بإرسالها إلى بلاد العرب^(٤).

(١) تاريخ العرب ج١ ص ٧٥.

(٢) قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الورد، إذ هم عليها قوم، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقصوا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد" ٨٥ سورة البروج.

(٣) فجر الإسلام ط١ ص ٢٤، وقد ذهب إلى مثل هذا من قبله الطبرى وياقوت الحميرى (تفسير الطبرى ٨٤/٣٠، معجم البلدان ٢٦٢/٧).

(٤) تاريخ العرب ص ٥٥، ٥٦.

والروم لا ينسون كذلك عملية التقارب بين "ذى نواس" وبين الفرس إلى حد القول بأنه تهود ليعطى للدليل الواضح على أنه ضد الحبشة وضد الروم أعداء فارس.

ولا ينسون كذلك أنه حين كانت سياستهم اقتحام البلاد العربية من الشمال أو الشرق أو الغرب، وأن هذا حين لم يجد شيئاً.. كان لابد من الفقر عليهم من الجنوب بوساطة الحبشة، بالإضافة إلى الرغبة في استخدام القبائل العربية ضد الفرس. وعلى كل فقد تحمس قيصر الروم "جستيان" حين تمكن نصراني من الفرار من محرقة "ذى نواس" إليه، ومن هنا نراه يكتب إلى النجاشي لينتار من اليمن، وكانت الحبشة والنجاشي على رأسها في نزوة مجدها، بأمرها على البحار تجارة واسعة، ويمخر لها العباب أسطول قوى يجعلها تتسلط بنفوذها على ما حاذها من البلاد، وكانت حظوة الإمبراطورية البيزنطية، ورافعة علم المسيحية على البحر الأحمر، كما كانت بيزنطة ترفع علمها على البحر الأبيض^(١).

وهكذا يكون الدين - كما قال روم لانتو - قد أصبح كرة قدم سياسية في هذا الملعب الجنوبي^(٢).

وسواء أكان للدافع إلى غزو اليمن هو هذا، أم أن لغزو كان من الحبشة ذاتها بغير مؤثر خارجي، فإن الذى لا شك فيه أن قوة عرب الجنوب كانت قد بدأت تضمحل، وتفتت ابتداء من العصر الحميري الأول، حين أخذ زمام البحر الأحمر بفلت من أيديهم، بعد أن كان بحيرة عربية.

وكانوا مع ذلك إذا رأوا أن النقل بطريق البحر أصلح فإنهم كانوا ينقلون المستاجر إما عن طريق البحر الأحمر كله إلى اللقاة التي كانت تربطه بأحد فروع النيل للشرقية، وإما عن طريق الجزء الجنوبي من البحر الأحمر إلى وادي الحمامات، ومنها عبر الصحراء المصرية إلى طيبة أو منف، وكان الطريق البري عبر الحجاز غاصاً بالمحطات الحميرية^(٣).

(١) حياة محمد د. محمد حنين هوك: ٧٤، ٧٥.

(٢) الإسلام والغرب ترجمة منير البعلبكي ٢٧ ط.

(٣) تاريخ العرب ج١ ص ٦٩، ٧٠، حياة محمد ص ٧٥ الآيات التي تشير إلى ذلك هي وجملة بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة، وقدرنا فيها السير، سيروا فيها الوالي وأياماً آمنين، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم لحديث ومزقناهم كل ممزق، إن في ذلك آيات لكل صبار شكور. (٢٤) سورة سبأ. الآيات ١٢-١٨.

وفي ضوء هذا كان الانتصار للحلم للحبشة على اليمن في عام ٥٢٥، بقيادة أرياط، ثم أبرهة، وكانت هذه النهاية المؤسفة لذي نواس الذي يقال إنه حين لم يجد أمامه مفرأ من الهزيمة لقتحم بجولاه البحر ليموت^(١)، وقد حفظت عنه قوله:

"الموت بالبحر أحسن من إسارود" ويموته ففدات اليمن استقلالها. وفي صنعاء أقام نائب الملك الأكسوي أبرهة واحدة من أعظم كاتدرائيات هذا العصر^(٢)، بعد أن استثار في هذا الأمر للنجاشي، وكذلك إمبراطور القسطنطينية، وقد ورد وصفها في نهاية الأرب، ولعل هذا يؤكد دور روما في هذه الغزوة ذلك لأنه مع الغزو الحربى ازدهر الغزو العقائدى للمملى فى المسيحية، فقد صمم الأحباش على تنصير أهل البلاد وعلى خلق منافس لمكة الوثنية فى الشمال، وضربها فى الوقت نفسه اقتصادياً تمهيداً لتوحيد الشمال مع الجنوب.

والذى لا شك فيه أن هذه الكاتدرائية قد اجتذبت عدداً كبيراً من الناس، وأنها سببت مضايقات اقتصادية للذين ينتفعون بموسم الحج فى الشمال، مما دعا اثنين من وثنى العرب، ومن قبيلة فقيم إلى أن يقوموا بعملية تنديس لهذه الكاتدرائية فى أمسية أحد أيام الأعياد، وقد كان هذا العمل بالإضافة إلى العوامل الأخرى داعياً لأبرهة بأن يقوم بحملته التليبية ضد مكة فى عام ميلاد الرسول عليه السلام (٥٧٠ ل أو ٥٧١م) وهو العام الذى يسمى عام الفيل نسبة للفيل الذى كان فى جيش أبرهة، ثم كان أن دمر مرض الجدرى هذا الجيش^(٣)، فإذا أضفنا إلى هذا التصدع

(١) ترى هذه الروايات العربية مثل ما جاء منها فى أغاني ٣٠٤/١٧، أما الروايات الإغريقية والحبشية فترى أنه وقع حياً فى ليدى الأحباش وقتلوه، وقد مال إلى هذا الراى فون كرىمر (تاريخ العرب قبل الإسلام. د. جولد على ص ١٩١).

(٢) هى التى يسموها الكتاب العرب القليس، والقليس من الكلمة اليونانية لكليزيا Ekklesia ومعناها كنيسة (تاريخ العرب، ص ٧٦).

(٣) إلى هذا أشار القرآن (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَلْ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَهَيْبَتِهِمْ فِي بُغْيِهِمْ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)، ١-٥ سورة الفيل. قال ابن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدكم نطس جلده، فكأن ذلك أول الجدرى وقيل: إن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام "سنة ليان - لعماني للقرآن. حسين محمد مخلوف".

الأخير الجارف الذى أصاب سد مأرب^(١)، ودخول السفن الرومانية مياه البحر الأحمر، أدركنا سر الظلام الذى خيم على هذه البلاد فى هذه الفترة، وأدركنا سر الهجرات الكبيرة التى خرجت من اليمن، بالإضافة إلى أن بعض الباحثين يؤكد أن السبب الأول فى الهجرة إلى الشمال يرجع إلى تغير مناخى، فتدهور الحضارات القديمة، والتشتت الذى أصاب القبائل، واستمرار حركة الهجرة قبل الإسلام مرتبط - على ما يظهر - ارتباطاً وثيقاً بتغيرات المناخ ونزباته وعودته إلى الجفاف النسبى بعد الحالة الممطرة^(٢).

.. ومع أن الظروف كانت مواتية لهذا الاحتلال، إلا أن تزايد النفوذ الرومانى من خلاله قد أقلق الفرس وجعلهم يستشيرون عليه أهل البلاد الأصليين، ثم إن الأحباش أنفسهم قد دب بينهم الخلاف، وقد ظهر هذا واضحاً حين عمل أحباش اليمن على الاستقلال عن أحباش إفريقية.

وقد دعا كل هذا أصحاب البلاد إلى أن يتحركوا، فكانت ثورة الأمراء الوطنيين^(٣) فى هذه الفترة، وكان على رأسها (سميفع أشوع) وقد كان الغرض منها انتزاع السلطة من الخاصيين، وطردهم من البلاد^(٤)، غير أن الثورة الحقيقية كانت تسلك السبيل التى قادها واحد من أبناء البيت الملكى الحميرى.. هو سيف بن ذى يزن الذى ما زال يتجول إلى الآن فى أدبنا، وبخاصة فى السيرة الشعبية.

وقد بدأ أولاً بمستجد بالروم، ولابد أنه كان يملك مسوغاً من واقع ظروف البلاد ومن الصلة بين الأحباش والروم، وبين أحباش اليمن وأحباش إفريقية.. جعله يركب البحر، ثم يذهب إلى قيصر مستجداً، ولكنه يأبى عليه هذه النجدة، ثم يقول له (.. أنتم يهود والحبشة نصارى، وليس فى الديانة أن ينصر المخالف على الموافق^(٥)).

(١) إلى هذا أشار القرآن (لَقَدْ كَانَ لِسَيِّدِي مُسْكِنُهُمْ آيَةً جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ بَارِئَةٌ رِزْبٌ غَفُورٌ قَاطِرٌ خُشُوا قَارِسْتَا عَلَيْهِمْ سِيلُ الْغَرَمِ) سورة سبا ٣٤، آية ١٥ وما بعدها.

(٢) لشعراء العماليك د. يوسف خليف ص ٦٥ عن بحث وتقرير للدكتور سليمان حزين.

(٣) بين الحبشة والعرب ص ٥٧.

(٤) تاريخ مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ٢٨٢.

ثم نراه - بوسطة ملك الحيرة العربى - يتصل بالفرس المزدكيين، وفى السيلاط الفارسى فى المدائن نراه يقابل كسرى أنوشرون، ثم يعرض عليه شئون بلاده، ويطلب منه النجدة، ثم يذكر له القرابة التى تجمع بينهما وحين يسأل كسرى عن هذه القرابة مندحشاً، نراه يقول له (أيها الملك الجهلة، وهى الجلدة البيضاء، إذ كنت أقرب إليك منهم^(١))، وقد استجاب له الإمبراطور الفارسى، وكان أن أرسل فى عام ٧٥ ق.م ثمانمائة رجل تحت قيادة وهرز (أو وهرز) الذى أسرع فبند شمل الأحباش فى اليمن، وخلص البلاد من حكمهم.

وحين سلم وهرز الأمور لمسيح بن ذى يزن فى مقابل جزية وخرج بسلامان فارس كل عام، قام مسيح بعملية تطهير داخل البلاد من الأحباش، حتى إذا لم يبق منهم إلا القليل جعلهم خدماً يسعون بين يديه، وقد تمكنوا منه فى يوم من الأيام فأخذوه بحرابهم، وتمكن واحد منهم من إعادة سيطرة الأحباش على البلاد، مما جعل كسرى يرسل وهرز مرة ثانية فى أربعة آلاف من الفرس وأمره ألا يترك باليمن أسود ولا ولد عربية من أسود إلا قتله صغيراً أو كبيراً، ولا يدع رجلاً جعداً قطعاً قد شرك فيه السودان إلا قتله، فأقبل وهرز حتى دخل اليمن ففعل ذلك^(٢).

وفى هذه المرة قويت قبضة الفرس على أهل البلاد الأصليين، إلى الحد الذى أحصوا فيه أنهم استبدلوا سيدها بمسيد... (وقد حفظت لنا هذه الرواية فكرة واضحة عن التناقض بين القوتين العظيمنتين الواقعتين على جانبي بلاد العرب، ونقصد بهما دولتى فارس الزرادشتية، والحبشة المسيحية (وتعاضدها بيزنطة) وتنافس هاتين القوتين على وراثته جارتهم دولة العرب الجنوبية التى قضت نحبها، وكان عطف المسيحيين من عرب البلاد على بيزنطة تكأة للتدخل الحبشى، على حين أن الميول اليهودية واللوثية نحو فارس اتاحت للأخيرة فرصة صالحة، ولما كانت صحراء الشام العربية فى الشمال تغف حائلاً دون تدخل قوى العالم إذ ذاك، فإن بلاد العرب الجنوبية كانت بمثابة البوابة التى سلكت منها تلك الدول سبيلها إلى شبه الجزيرة^(٣)). ونحن لا ننسى أن الذى حكم من صنعاء كان أسود اللون^(٤).

(١) نفسه ص ٢٨٢.

(٢) طبرى ج ٢ ص ١٤٨ (الجد: القيصر الشعر، كذلك القطط).

(٣) تاريخ العرب ج ١ ص ٨٠.

(٣) فإذا أردنا أن نقف وقفة عند الصلات بين الأجاس وللشمال متخطين حادث للغزو الذي قام به أبرهة.. أدركنا أن مكة نفسها كانت إحدى المناطق الحيوية التي دار حولها نزاع بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية.

ونحن نلاحظ أنه قد استمرت سبل للتجارة بين الشمال والحبشة، فالمطلب أكبر أولاد عبد مناف قد عقد أحلافاً تجارية مع النجاشي، وهاشم قد تلقى من قيصر كتاباً بشأن أخذ حلف لقريش، وقد كتب قيصر كذلك إلى النجاشي من أجل إدخال قريش في أرضه^(١).

وعلى يد هاشم بن عبد مناف وأخوته خرجت قريش إلى مجال التجارة الخارجية، فقد اتصلوا فيمن اتصلوا بالأحباش، ووتقوا للصلات التجارية معهم، ومن هنا كانت رحلاتهم^(٢)، وكانت العهود المتعددة مع جيرانهم يقول المرتضى: كان هاشم صاحب إيلاف قريش للرحلتين ولؤل من منهما فألقوا الرحلتين: في الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق، وفي الصيف إلى الشام^(٣).

وهكذا نرى أن الحبشة قد أصبحت متجراً لقريش، ذلك لأن الحبشة كانت أحد المصادر الهامة للتجارة الشرقية، فمن منتجاتها كان البخور، واللدن، والأطياب، وريش النعام، والعماج، والجلود، والتوابل، كما كانت المصدر الأول لتجارة الرقيق الأسود، وفي الوقت الذي كانت فيه قريش تحصل منها على هذه السلع الهامة كانت تحمل إليها ما تحتاجه من حاصلات الشام، ومن مصنوعات، إلى جانب حاصلات للجزيرة العربية نفسها.

وحين استولت الحبشة على اليمن ضعف الدور التجاري لقريش، ولكنها ظلت مهيمنة على التجارة الداخلية، مما اضطر أبرهة إلى أن يفكر في انتزاع

(١) تاريخ الطبري ٢٣٦/٣ وما بعدها، وهو الذي قال فيه النبي: أن الله قد قتل الأسود الكذاب الغنى. قتله بيد رجل من إخوانكم.

(٢) ابن سعد ج ١ ص ٥٤، ٥٨.

(٣) يشير إلى هذا القرآن (إيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليجئوا ربهم هذا آية، الذي أمعنهم من جوع وأمتهم من خوف) ٦-١ سورة قريش.

(٤) الأمالي ٢٦٩/٢.

هذه السيطرة من أيديهم على نحو ما مر بنا، ثم لما انحسر الأحباش عن اليمن استعادت قریش زعامتها^(١).

وهذا التبادل للتجارى البحرى الذى كان بين الحبشة والشماليين ربما كانت تشير إليه آيات متعددة من القرآن^(٢) وهناك من يقول إن قریشاً لعدم تفرغها لشئون الحرب كانت تستأجر "جنداً مرتزقة" من الحبشة وإفريقية للقيام بالحراسة^(٣).

وقد كان الشماليون يذهبون إلى الحبشة، وهناك روايات عن هذا كثيرة منها أن الشاعر عماره بن الوليد المخزومي حاول في إحدى زيارته للحبشة الاتصال بإحدى نساء القصر الملكى فلما أحس بذلك للنجاشى أنهى حياته، كما أنهم سموا بأسمائهم، فمن رجالهم فى الجاهلية أو يكسوم بن عتاهية، وكان شريفاً وله عقب فى الكوفة^(٤).

فلذا أضفنا إلى ذلك أن الرقيق الحبشى المسيحى كانت تزخر به مكة وأنه كانت فى مكة مستعمرة حبشية من المحتمل أنها كانت مسيحية^(٥) أدركنا إن الأحباش كانوا يدخلون فى نميج الحياة العربية.

ونحن لا ننسى هنا تلك الوثيقة التى جاءت فى المحير لابن حبيب، والتى أورد فيها مسار العرق الأسود، وكيف كان يتردد كالصدى بين عديد من الناس

(١) المحير لابن حبيب ص ١٦٢، مكة والمدينة أحمد إبراهيم الشريف ص ١٥٧ وما بعدها.
(٢) (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَغْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَّكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فُضْلِهِ وَلَكُمْ تُشْكِرُونَ) (سورة النحل آية ١٢).
(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرَحْتُمْ بِهَا جَاءَهَا رِيحٌ غَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَلَنَّا لَأُنْجِيَنَّ مِنْ هَذِهِ تَكُونُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا أَلْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَتَفَوَّنُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَثْنَاكُمْ عَلَى الْفُلِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ) (سورة يونس آية: ٢٢، ٢٣).
(أَوْ كَطَلَمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجِيٍّ يَلْهَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا وَمَنْ كَفَرَ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نَصْرًا لِمَنْ يُوْرِيهِ) (سورة النور: آية ٣٩).

(٣) عصر ما قبل الإسلام للثمان ترجمة مبروك نافع ١٧١.

(٤) الاشتقاق ص ٢٠٨، تاريخ الشعر العربى للكفرأوى ٢٠٣، ٢٠٤.

(٥) تاريخ العرب ج ١ ص ٢٣٠، العصر الجاهلى د. شوقي ضيف ص ١٥٠.

وبين أسر بعينها، وسنوردها هنا كما هي مع مراعاة أنها تجاوزت العرب في الجاهلية إلى ما بعد الإسلام، وهذه الوثيقة بعنوان أبناء الحبشيات:

نضله بن هشام بن عبد مناف

نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عدى بن

كعب.

عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن جنيمة من بنى عامر بن لؤى، وأمه سهال، حبشية كانت لها ثم بن عبد مناف الخطاب بن نفيل، وأمه حية، كامن لجابر بن أبي حبيب الفهمي، وذكروا أن ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري غير عمر بن الخطاب فقال له: يا ابن السوداء، فلنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾^(١).

عمرو بن العاص بن وائل السهمي

معمر بن عثمان التيمي

الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي، وأمه سبحاء، حبشية نصرانية.

عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالعزيز بن قصي

صفوان بن أمية بن خلف الجمحي

هشام بن عتبة بن أبي معيط

مالك بن عبيد الله بن عثمان الأموي

عمير بن جدعان التيمي

أبو مليكة بن عبدالله بن جدعان التيمي

عبدالله بن أبي مليكة بن جدعان

عبيد الله بن عبدالله بن أبي مليكة

(١) سورة الحجرات. آية ١١.

المهاجر بن قنفذ بن عمرو بن جدعان

عبد الله بن عبدالله بن معمر بن عثمان التيمي

مصافع بن عياض بن صخر بن كعب التيمي قرطه بن عبد عمرو بن نوفل،
أبو فاخته بنت فرطة زوج معاوية ابن أبي سفيان.

المسباق بن عبدالدار بن قصي

عبدالله بن قيس بن عبدالله بن الزبير بن العوام

سموه بن حبيب بن عبد شمس

عبدالله بن مصافع بن طلحة، من بني عبدالدار

عبدالله بن زمعة، أخو بني عامر بن لؤي

أسامة بن يزيد بن حارثة، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عمرو بن هيصم بن لؤي، وأمه أسامة.

عبد الأعلى بن عبدالله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس

يزيد بن كنان الضمري.

كردوس بن السفلح للتغلبى

عنترة بن شداد بن معاوية الحنسي. أمه زبيبة.

السليك بن يثربى السعدى. أمه السلكة

خفاف بن عمير، وأمه ندبه، بها يعرف

عبدالله بن خازم السلمى، وأمه عجلي

عمير بن الحباب السلمى، أمه الصمحاء

همام بن مطرف التغلبى

يعلى بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وله يقول الشاعر

كان على مفارق راسي على خنافس موت زمن البطاح
 شعبه بن هاني بن قبيصة الشيباني
 سعيد بن عمرو الحرشي
 أسيد بن علاج النقي
 عبدالله بن سبأ ، صاحب المبياتية
 المتمسك الضبعي الشاعر . أمه يقال لها سحمة
 زياد بن عوف بن حارثة بن قنيرة ، من التكون ، كان فارساً ، وأمه هنداب .
 محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي
 علي بن محمد بن علي بن موسى
 موسى بن محمد بن علي بن موسى
 جعفر بن إسماعيل بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي
 عبدالله بن حمزة بن موسى بن جعفر بن إسحاق بن موسى بن جعفر ،
 درج (١) .
 إبراهيم بن حسن بن حسن
 محمد وجعفر ابنا إبراهيم بن حسن
 سليمان بن حسن عقيلي .
 محمد بن داود بن محمد بن سليمان ، حسني
 أحمد بن العباس بن الحسن بن عبيدالله من بني العباس بن علي بن أبي
 طالب .
 العباس بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام

(١) وردت هكذا.

العباس بن المعتصم

العباس بن عبدالله بن إسحق المهدي الملقب بنفاطة

أيمن لهبة الله بن إبراهيم بن المهدي - أمه . رمار

أحمد بن محمد بن صالح المخزومي

الأخنس وهو.. الأرقم وهو..^(١).

(٤) ومهما يكن من شيء فإن الذي لا شك فيه أن العرب قد استيقظوا على دوى طبول في مكة لا على الحدود فقط، ولا في الجنوب فقط، ولكن هذا الدوى امتد حتى للشمال، وقد أحس العرب أنهم في خطر حقيقي، فكان أن توقفوا عن الكثير من نزاعاتهم في الداخل، وأخذوا في التلاحم، والإحساس بأنهم سيكونون في خطر حقيقي إذا ظلوا هكذا ممزقين فاليقظة العربية في الجزيرة كانت على صوت الأحباش، ولكن النشاط العدائي كله تحول بعد قليل إلى قوم من العرب أنفسهم كانوا سبب تعطيل هذه النهضة^(٢)، ولقد كان من جراء هذا كله التعاطف مع الديانة اليهودية، في مواجهة المسيحية القادمة عليهم من الحبشة، كما أنه في الوقت نفسه تشدد التفاهم حول الحنفية باعتبارها الدين القومي^(٣).

(٥) إذا كانت أصداء الحضارتين الرومانية والفارسية تتردد في الجزيرة العربية، فإننا نزع أن للصوت العالي هناك كان صوت الحضارة الإفريقية المتمثل أساساً في للتأثير والتأثر من الحبشة.

فالأحياء كانوا يوجدون جيراناً وغزاة وقوة بشرية كبيرة داخل نسيج الحياة العربية في الجنوب وفي الشمال معاً.

(أ) فنيما يتصل بالعقيدة نجد أنه كان هناك تأثير لا جدال في قيمته، وهناك ثروة عظيمة من التأثير لا شك في أهميتها، وإن كان من الصعب وضع اليد تماماً

(١) كذا البيضاء بالاصل.. (المحرر ٣٠٦-٣٠٩)، هناك وثيقة بالأسماء وبخاصة لشعراء في كتاب المذاكرة في لقاء الشعراء لمجد الدين النشاط. تحقيق شاكور الماشور ط١ بداد.

(٢) تاريخ الشعر العربي د. شوقي ضيف ص ٣١.

(٣) نفسه ٣٩-٤١.

عليها لأنصارها في بوتقة الوجود اليمنى.. ولعلك تعجب أيضاً حين تجد اختلاط آثار الحبشة واليمن بالأخبار اليهودية والنصرانية وغيرها مما جاعنا عن طريق الحبشة أو لليمن، مثال ذلك قولهم إن لقمان كان عبداً حبشياً، وفي رواية أنه كان فاضياً إسرائيلياً، وقولهم إن طفلاً من بنى إسرائيل كان يسمى صاحب الحبشة كان قد نطق في المهده، وقولهم إن أصحاب الأخدود كانوا قوماً من بنى إسرائيل، أو قوماً من الحبشة، أو قوماً من اليمن أو غير ذلك^(١).

ومما يدل على قوة الصلة في هذا الأمر أن مذهب الطبيعة الواحدة.. الذى قال به "فرونتيوس" فى الحبشة منذ القرن الرابع سرعان ما وجد صداه فى اليمن، وأن إرسال خطاب بالسريرية على نحو ما فعل يعقوب السروجى - إلى نجران يدل على أن هذه اللغة كانت مفهومة هناك وهناك الأخبار التى تثبت أنه كان فى دولة حمير أسقفيات أربع فى ظفار وعدن، وعلى مدخل الخليج الفارسى، وفى نجران^(٢) وقد كانت كنيسة صنعاء من الشهرة بحيث قيل أن كثيراً من القبائل العربية قد حجت إليها عدداً من السنوات، وأن بعضهم أقام فيها للعبادة^(٣).

وعلى كل فقد شاعت تأثيرات مسيحية حفظها لنا الشعر العربى، فأمية ابن أبى الصلت يعلم العرب كلمة باسمك اللهم .. ويقول:

مَجْدُوا الله وهو المَجْد أَهْلٌ رَبَّنَا فى السماء أَمْنَى كَبِيرًا

ويروى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال إن كاد أمية ليسلم لما سمع هذا البيت.

الحمد لله مُمَنِّعَانَا وَمُصَنِّحُنَا بِالْخَيْرِ صَبَّحْنَا رَبِّى وَمُسَانَا

(١) بين الحبشة والعرب ص ٩٣، ٩٤.

(٢) التى قال فيها الأغشى:

وكعبة نجران حتم عليه سلك حتى تتلخى بأبوابها

نزور يزيد، وعبد المسيح وقيساهم خير أربابها

وممن اشتهر من أساقفتها قس بن ساعدة الأيادى، ومن عظمائها يزيد بن عبدالمدان وكلامها لنبيان (الأغلى ١١٣/٩، بين الحبشة والعرب ص ٩٧.

(٣) بين الحبشة والعرب ص ٩٧.

وقال حواس :

وتسمع تزقاء من اليوم حوّلنا كما ضُربَتْ بعد الهدوء النواقرُ
وأعرضتُ للشعري العبورُ كأنها مُعلّقُ قنديل علقته الكنائسُ

وقال بشر بن أبي حازم يهجو عرجاً في بني حذاء

للهُ ثُرُ بني حذاء من نفرٍ وكلُّ جبار على جيرانه كَلْبُ
إذا عَدُو أو عصي الطلح أرجلهم كما تَتَصَبُّ وسط البيعة الصُّلْبُ

ويشبه ابن زيد العبادي الجميلات بنمي المحاريب وقس بن ساعدة الأيادي أدخل شيئاً جديداً على الأدب العربي لم يكن معروفاً من قبل، وهو التعقيب بالشعر على النثر، متأثراً في هذا بما كان يفعله رجال الدين من الأبحاش في مقطوعاتهم المسماة "سلام" لأنها تبدأ بلفظ سلام ونظن أن نظام التثنييل هذا ولو أنه لم يصل إلينا منوهاً إلا في عصور متأخرة، متأثر بالأدب الحبشي، والمعروف أن الأدب الشعبي في أية أمة أعمق في تاريخ أجيالها، وأبعد تأثراً بالأدب الأجنبي من الأدب الرسمي^(١).

.. وبالإضافة إلى هذا يوجد تأثير حبشي في الحياة العربية، خاص بالخرافة والسحر، وهناك من يقول إن العرب قد أخذوا ظاهرة الزار من عندهم ومعنى الكلمة في الأمهرية الروح للشريرة، ومن الملاحظ أن المصريين إلى الآن يستخدمون بعض السود للقيام بمواسم حلقة الزار، وبالإضافة إلى هذا التأثير الواضح للحبشة في اللغة العربية، ونحن لا ننسى للكلمات الحبشية التي وردت في القرآن الكريم، وفي أحاديث الرسول^(٢).

(ب) كان من احترق المعركة بين الأبحاش واليمنيين ودخل عنصر ثالث في الصراع هو الفرس أن رويت أخبار، ولشعار كثيرة حول هذا الصراع، ففي بدء الحملة سار الفرس حتى أتوا ساحل حضرموت بموضع يقال له مثرب،

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي د. أحمد الحوفي ١٢١ بين الحبشة والحرب ١٢١، العدد ١٥ من نهضة إفريقية مقال درست في الآثار الإفريقية في الحياة العربية القديمة د. عبده بدوي.

(٢) بين الحبشة والحرب ٩٨، العدد ١٥ من نهضة إفريقية.

وقيل إن وهز أمرهم بحرق السفن ليعلموا أنه الموت ولا وجه يؤملون المغر
إليه فيجهدون أنفسهم وفي ذلك يقول رجل من حضرموت :

أصبح من مثوب ألف في الجَنِّ من رهط مسلمان ورهط مهرشَن
ليخرجوا المودان من أرض اليمن دلهم قصد السبيل ذو يزن

ومن هذا القبيل هذا الشعر الذي يقال على لسان فارس:

نحن خُضْنَا للبحار حتى فككنا حميراً من بالية السودان
فقلنا مسروق إذ ناة لما لن تداعت قبائل الخُشمان
وفلقنا بالقوتة من بين عتيب به بشفابة الفتى الساماني
وحوينا ببلاد قحطان قُصراً ثم سرنا إلى ذرى غمدان
فنعمننا فيه بكل سرور ومننا على بلى قحطان (١)

ولعل القصيدة الوثائقية الهامة التي ترسم صورة للفرجة التي شملت الناس
حين تخلصوا من الأحباش هي تلك القصيدة التي قالها أبو الصلت والد أمية (٢)،
والتي تقول:

لا يطلب الثار إلا كابن ذي يزن في البحر خيم للأعداء أهوالاً
أتى هراقل وقد شالت نعامته فلم يجدْ عنده النصر الذي صالاً
ثم اتَّحَى نحو كسرى بعد عشرة من المتفين بهين النفس والمالا
حتى أتى ببني الأحرار يقدمهم تخالفهم فوق متن الأرض أجبالاً
من مثل كسرى شهنشاہ الملوك له أو مثل وهز يوم الجيش إذ صالا
لله نذرهم من فتيحة صَبَرُوا ما إن رأيت لهم في الناس أمثالاً
بيض مرزئية، غلب أسورة أسد ترتب في الغنضات لشبالاً (٣)

(١) هذه الليرة تتردد في بعض الشعر العربي.

(٢) قيل أنها لأمة لا لأبيه وقيل أنها لجده أبو زعمه.

(٣) في المعيرة النبوية لابن هشام ص ٦٨ ط الحلبي ببضا مرزئية، وعطاك اختلاف في الرواية في
حسامة البحتري ١٢، وفي تاريخ الطبري ١٤٧/٢.

أرسلت أُنْدًا على سُدِّ الكلابِ فقد أضْحى شريذهم في الأرضِ أفلالا
فاشربْ هنيئًا عليكِ التَّاجُ مرتفعا في رأسِ غمدانٍ^(١) دارا منك مَحَلالا
واطلِ بالمسكِ إذْ شالتْ نعامُهم وأنسبلِ اليومِ في بُرْتِكَ إِبْشالا

وهناك قصيدتان كذلك قلينا في تهنئة سيف بن ذي يزن بالتخلص من حكم الأحباش^(٢).

... وقد وقف الشعر وقفة متأنية حين حاول الأحباش غزو مكة، ومما يروى في هذا أن عبدالمطلب بعد أن قابل أبرهة تلك للمقابلة المشهورة خرج من عنده وهو يقول :

يا أهلَ مَكَّةَ قد وافاكمُ ملكٌ مع الفُيولِ على أنيابها الزرُّ
هذا النجاشي قد سارتْ كَتَابُهُ مع السليوثِ عليها السبيضُ نَتَقْدُ
يريدُ كعبتكم، والله مانعُنا كمنع تبع لما جاءها حَرُّ

ثم أمر قريشا أن تلحق ببطن الأودية ورموس الجبال "من معرة الحبشة"، وقد الإبل النعال، وخلاها في الحرم، ثم وقف بباب الكعبة يقول:

يا رب لا أرجو لهم سواك يا رب فامنعْ منهمو حماك
إن عدو البيت من عادلكا فامنعهمو أن يخرّبوا قَراكا

وروى قوله :

يا رب إن المرةَ يمنَعُ رحلةَ فامنعْ رحلَكَ
لا يُظْلِمَنَّ صليبيهم ومحلهم غثوا محالكَ

وهناك شعر يروى عن نغيل بن حبيب^(٣) الأكلبي، للذي كان دليلاً لجيش الحبشة، ثم هناك هذا الشعر الذي سجل للفرح برد العنود عن الكعبة، وهو لعبدالمطلب :

(١) من مبالى العرب المشهورة وقد جاء وصفه في نهاية الأرب ٣٨٥/١ / ٣٨٤.
(٢) تاريخ مروج الذهب ج ١ ص ٢٨٢ وما بعدها، الطبري ١٢٥/٢ سيرة بن هشام ٦٥/١ وما بعدها.
(٣) الجمان في تشبيهات القرآن لابن نفلان تحقيق د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي ص ٣٨٤

ثم ما بى عن نداكم من صمم	لئها للدأى لقد أنمعتى
من يُردّه بآلام يصطلم	إن للبيت لربنا مانعاً
حمير والحي من آل قمر	رامه تبع فيمن جندت
جارح أمسك عنه بالكظم	فأننى عنه وفى أدرجه
إن ذا الأشرم غسر بالحرم	قلتُ والأشرم يرمى خوله
لم يزل ذاك على عهد أبرهم	فجزاك الله فيما قد مضى

وهذا من يذكر فى هذا المجال أن امرأ القيس حين أخذ يعمل على الثأر لأبيه، نزل بقيل يدعى مرثد الخير بن ذى جدن الحميرى، وقد كانت بينهما قرابة فاستصره، واستعداه على بنى أسد، فأمده بخمسمائة رجل من حمير، ولكن مات مرثد قبل رحيل امرئ القيس وكان أن قام بالمملكة من بعده رجل من حمير يقال له قمرل بن الحميم وكانت أمه سوداء، فردد امرأ القيس وطول عليه حتى هم بالانصراف، وقال :

وإذا نحن ندعو مرثد الخير ربنا وإذا نحن لا ندعى عبداً لقمرل^(١)

ومع أن ظلالاً من الشك يمكن أن تلقى على هذا الشعر كله، إلا أنه يرسم من أى عصر صورة لما حدث بالفعل فى البلاد العربية، ويؤكد فى الوقت نفسه التماس والاتصاف مع الأفريقيين.

(جـ) وقد تميز الأحباش بما يمكن أن يسمى "بالألب المكثوف فهم يميلون إلى الجموح فى العزل إلى حد المجون، ولعل هذا راجع إلى فطرتهم، وإلى أنه كان مضيفاً عليهم فى الحياة الاجتماعية وأنهم كانوا فى حالة ضيق داخل هذه الحياة مما جعلهم دائماً فى توتر، وأنه لم يكن لهم الحق فى دخول شئ لإعلاء غرائزهم وتعديل دوافعهم، وقد وصف النبى عليه السلام حالهم بأنهم "إن جاعوا سرقوا، وإن شبعوا زنوا"، وحين كتب لعثمان من أجل شراء الشاعر الحبشى سحيم رد بقوله فى حسم "إنما حظ أهل الشاعر منه إذا شبع

(١) تاريخ مروج الذهب ٣١٠/١-٣٢٦، شعراء النصرانية ١/١٨.

أن يشيب بنسبتهم، وإذا جاع أن يهجوم" ومما يدل على هذا أن عندهم نوعاً من الأناشيد الدينية يسمونه "ملكئ" وهو يتعرض لوصف أعضاء القديس أو الشهيد بطريقة عارية وحادة، ولعل مما يؤكد هذا أننا إذا تتبعنا الشعراء السبازيين في هذا المجال وجدناهم إما أحياناً، أو عرباً تأثروا بهم، على نحو ما سنرى من سحيم عبد بنى الصحاس وعلى نحو ما نرى من امرئ القيس الذى كانت قبيلته "كندة" مقصد الغزاة من الأحباش، وعمر بن أبى ربيعة الذى يقال إن أمه كانت أم ولد من حضر موت، أو حمير أو الحبشة، وقيل بل الحبشية لم أخيه ويرى بعضهم أن الغزل أتاه من "حمير" ومما يقال فى هذا: غزل يمان ودل حجازى.. وكان للعبيد الأحباش، والإماء الحبشيات ميزات تجعل سادتهم يؤثرنهم على غيرهم، ويعتمدون عليهم فى أعمالهم ولاحظ بعض الباحثين أن الجوارى فى بلاد العرب ولا سيما الحبشيات منهن كن أكثر حظوة لدى سادتهن من نساتهن الحرائر لأسباب كثيرة^(١).

(د) ومن الأحباش انتقلت إلى العرب المناثرات فى الحكمة والقرآن قد تعرض لوصايا لقمان لابنه، « وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرْ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ، وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعِظُهُ: ﴿٢﴾ (الخ)، وقد زعم وهب بن منبه أنه قرأ عشرة آلاف فصل من حكم لقمان، وقيل إن النضر بن الحارث قد حفظ من مجلة لقمان ليضاهي بها أقوال النبي فى مجالس قریش، ولقمان هذا قيل إنه حبشى.. ونحن لا ننسى هذا النوع من الحكمة الذى جرى على ألسنة مثل ألسنة الأعشى، وقس بن ساعدة وأمّية بن أبى الصلت.

(هـ) وأخيراً فهناك ظاهرة للمرح والمغنين والمسهمين فى تطوير الموسيقى الشعرية، ومم هناك الشعراء الفرسان الممثلون بالجسارة والذين سنرى أنهم سيكونون ملأح هؤلاء الذين أطلق عليهم اسم: "الشعراء الأعرية" وبالإضافة إلى هذا نجد تشبيه الأشياء بالرجل الحبشى، على نحو ما نعرف من شعر أبى

(١) بين الحبشة والعرب ص ١٠٦ وما بعدها، الشعر والشعراء ص ١٤٢.

(٢) سورة لقمان آية ١٣-١٩.

الطمحان القيني، وأعشى بكر، مهيار الديلمي وعلى نحو ما نعرف من قول العجاج: كالحيثى للنف أو تسجاً^(١).

ثانياً : الصلة بالأحباش بعد الإسلام :

(١) ثبت فضل الحبوش على سائر أنواع الموالى، لنقل من الأحاديث والأخبار والخصائص والآثار، "ولنا أن نذكر ما به امتيازهم وقبولهم واعتبارهم بأمور يقبلها العقل، ويشهد لها الطبع والنقل .. منها كمال عقولهم، موصفاء قلوبهم، وحنقهم ولطافتهم وفطانتهم ووجاهتهم وكونهم من جنس لقمان الحكيم، وبلال المؤمن، ومثقران، والنجاشي، ومهجع وغيرهم ممن أمن وتبع من الصحابة والتابعين وخدام سيد المرسلين، وكان جم غفير منهم في خدمة النبي، وبذلك نالوا للشفرف والفخر والثواب والأجر، وعدو من الصحابة التابعين والمهاجرين، والمجاهدين.

(٢) لا شك أن العبيد كانوا يشكلون طبقة كبيرة من المجتمع المكي، فهم مع أنهم كانوا يمثلون جانباً مراً من جوانب الحياة، غناء، ورقصاً وموسيقى، إلا أنهم في الوقت نفسه كانوا يمثلون الكادحين الذين يعملون في الأعمال الشاقة، والتي يسترفع عنها الكثير من العرب، فقد كان لا يخلو بيت شريف من العبيد، وقد كان مثلاً لعبد الله بن أبي ربيعة عبيد بن الحبشة يتصرفون في جميع المهن، وكان عددهم كثيراً، وروى عن سفيان بن عيينة أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج إلى حنين، هل لك في حبش بنى المغيرة تستعين بهم؟^(٢).

ويسبدو أن السواد كان قد دخل في جرثومة الحياة في اليمن، فحين قدم أولاد الحارث بن كعب من نجران إلى النبي عليه السلام لإعلان إسلامهم، حدث أن لفتوا نظر النبي بضخامة أجسامهم، وبسواد لونهم، فقال حين وقع بصره عليهم "من هؤلاء الذين كأنهم رجال الهند"^(٣)، وقال: اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، النجاشي وبلال المؤمن^(٤).

(١) يريد ابن قيساً.

(٢) الأغاني ٦٥/١، العصر الجاهلي. د. شوقي ضيف ٥١.

(٣) الطبقات الكبير لابن سعد القسم الثاني من الجزء الأول ص ٢٠٧.

(٤) زدهار العروش للسيوطي ٧.

٣- الهجرة والحبشة

إذا كانت هجرة للمسلمين إلى الحبشة تطرح سؤالاً يقول: ولماذا الحبشة؟ فإن من البدهي أن نعرف أن هذه الهجرة لم تتم عشوائياً وإنما كانت ثمرة بحث عميق، فنحن قد عرفنا أن أرض الحبشة كانت متجراً لقريش، وكانوا يجدون فيها "رفاعاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً"^(١) ثم إن هذه الفترة التي تمت فيها الهجرة كانت فترة استمرار للعلاقات بين ساحلي البحر الأحمر، ولقد كانت الرحلة سهلة، فهؤلاء المهاجرون لم يجدوا أية صعوبة في عبور البحر الأحمر والانطلاق إلى الحبشة، فقد تيسر لهم "مركبان" نقلهما إلى الحبشة، كما أن خروج أبي موسى الأشعري من اليمن مهجراً إلى الحبشة يدل كذلك على استمرار العلاقات في هذه الفترة بين بلاد العرب والحبشة، فإذا أضفنا لهذا سهولة وصول أخبار النبي عليه السلام إلى الحبشة، واستمرار وصول الوفود إلى النبي، أدركنا أن العلاقات كانت طيبة بين ساحلي البحر الأحمر، ولم تكن العلاقات لتستمر على هذا النحو من السهولة والبسر إلا نتيجة لظروف طبيعية تحتم وجود هذه العلاقات، فظروف الحياة القاسية في شبه الجزيرة العربية، وسهولتها في الحبشة، تجعل هجرة اليمنيين إليها سهلة مستمرة^(٢).

ومهما يكن من أمر فإن المسلمين كانوا على وعى بحماية المسيحية في اليمن ضد اليهودية، وكيف أن الأحباش كان من مهمهم تحطيم الوثنية العربية في الشمال.

وفي ضوء هذا نرى للنبي عليه السلام يرسل "بعثة استطلاعية" للتعرف الكامل على البلاد، ولتحسس رغبة النجاشي، في وصول عدد كبير من المسلمين إلى الحبشة.

وقد ذكر الرواة أن النجاشي أراد أن يتثبت من حقيقة هؤلاء الذين قدموا عليه، فما كان منه إلا أن أرسل وفداً إلى النبي وهو ما زال في مكة وهم الوفد الذي حين ظهرت استجابة أعضائه للرسول، قال لهم أبو جهل مع نفر من قريش

(١) الطبري ١/١١١.

(٢) سيرة الحبشة للحيمي تحقيق د. مراد كامل ٦٥.

"خبيكم الله من ركب" وقد رجع هذا الوفد إلى النجاشي وحدثه بما رأى فما كان من النجاشي إلا أن رحب بكل الذين جاءوا ومسيحيون إلى دياره، وهكذا لم يكن رجوع هذه البعثة الاستطلاعية "الإشاعة سرت بينهم أن أهل مكة قد أسلموا - كما زعم الرواة - ولكنهم رجعوا بعد أن أدوا مهمتهم وفاوضوا الملك في أمر إخوانهم^(١). ومن هنا كان إذن للنبي لهم بالهجرة إلى الحبشة بعد أن اطمأن تمام الاطمئنان أن هؤلاء المهاجرين سيكونون آمنين من وقت خروجهم إلى حين وصولهم، وأنهم بعد ذلك سيكونون في أمان غامر في ظل للنجاشي.

وقد أسرعت قريش - على نحو ما هو معروف - فأرسلت بعثة تحمل الهدايا لإحباط أمر المسلمين هناك، وهناك كان هذا الالتحام الفكري بين المسلمين وبين من قدموا من مكة، وكانت هناك محاولة الوقعة بين المسلمين ومن يعيشون في رحابهم.

ثم كانت الكتب المرسلة من النبي إلى النجاشي بشأن عرض الإسلام عليه، وبأن يخطب له السيدة أن حبيبة بعد أن تصر زوجها، ثم بشأن رد المهاجرين إلى ديارهم وفي السنة التاسعة للهجرة أرسل النبي إلى النجاشي هدية مكونة من حلة، وأواني من المسك فردت إليه لموت النجاشي، فلما عرف النبي ذلك أوفد عمرو بن أمية بكتاب يدعو فيه النجاشي الجديد إلى الإسلام.

وفي ضوء هذا نرى أن المسلمين قد كرموا في الحبشة، ولم تسمع المكائد فيهم مثل القول: إنهم مستكبرون عليك، ولذا لم يحيوك بتحيتك التي يحييك بها الناس وهم سجدوا ومثل القول: إنا كنا نحن وهم على دين واحد فخالقونا، وأتوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، فزريد أن نردهم إليه، وكذلك مثل القول: إنهم يخالفونك في ابن مريم العذراء، ولكن للنجاشي قال: أبشروا ولا تخافوا فإنه لا رهيب اليوم على حزب إبراهيم.

وقد استمرت الرسائل والهدايا متبادلة بين النبي وبين النجاشي^(٢) وبلغ من إكرام النبي لهم أن وفد الحبشة حين قدم، قام النبي يخدمهم بنفسه، وحين قال له

(١) بين الحبشة والعرب ٧٥ وما بعدها.

(٢) بين العرب والحبشة ٨١-٨٨، سير أعلام النبلاء ١٥٥/٢، الجواهر الحصان بما جاء عند الله والرسول وعلماء التاريخ في الحبشان. محمد الحفني القناني ص ٨٧، ٨٨-٢٠٧-٢١٠.

الصَّحَابَة: نحن نكنيك يا رسول الله، قال لهم (إنهم كانوا لأصحابي مكرمين فأحب أن أكافئهم) وحين بلغت للنبي وفاة للنجاشي، قال لأصحابه (أخرجوا فصلوا على أخ لكم)^(١).

٤- القرآن .. والحبشة :

(أ) في ضوء هذه العلاقة الطيبة بين العرب والحبشة، نرى القرآن في نظر بعضهم يستعرض لهذه العلاقة، فقد روى عن عطاء بن أبي رباح أن ذكر النصراني بالخير في القرآن يراد به للنجاشي وأصحابه، ومن هذا قول الله تعالى:

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ (الآية ١٩٩ من سورة آل عمران).

﴿وَلَسَجَدَتْ لَهُمْ مَوَدَّةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنْ نَصَارَى ذَلِكَ بَأْسٌ مِنْهُمْ قَسِيحٌ وَرُهْبَالٌ وَاللَّهُمَّ لَا تَسْكُرُونْ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (الآيتين ٨٢، ٨٣ من سورة المائدة).

(ب) شغلت الألفاظ الحبشية الموجودة في القرآن عدداً من الباحثين وقد اجتهد الأستاذ نلديكه في إيراد ما استطاع الاهتداء إليه من الألفاظ الحبشية التي استعملها القرآن والسغة العربية، وقد لقي الأستاذ برجشتراسر بالعربية محاضرات مطبوعة الآن ذكر فيها طائفة من الألفاظ العربية الدينية التي ترجع إلى أصل حبشي^(٢).. وقد أورد السيوطي في الإتيان باباً ذكر فيه تلك الألفاظ التي وردت في القرآن من غير العربية، وذكر منها قرابة ستة وعشرين لفظاً أرجعها إلى اللغة الحبشية، ولكن أكثرها لم يثبت اشتقاقه.. أما كتاب أزهار العروس في أخبار الحبوشي^(٣) فقد تعرض لهذه الألفاظ ومعانيها على الوجه الآتي، وتصل إلى نيف وثلاثين كلمة :

١- قيل قول وجهك شطر المسجد الحرام: تلقاء بلغة الحبش.

(١) بين العرب والحبشة ٨٨، الجواهر الحصان ٤١.

(٢) بين العرب والحبشة ٩٨، ٩٩.

(٣) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ح ٢٨٣١٨ ورقة ١٠-١٣.

- ٢- يؤمنون بالحبية والطاغوت: عن ابن عباس الحبية الشيطان بالحبشة والطاغوت الكاهن، وقيل الحبية: الساحر بلسان الحبشة.
- ٣- قال نافع بن الأزرق لابن عباس أخبرني عن قول الله تعالى: إنه كان حوباً كبيراً، قال إنما كبيراً بلفظ الحبشة.
- ٤- إن إبراهيم لأواب .. الأواب، الموقن بلسان الحبشة، وقيل الرحيم، وقيل الدعائي بلسانها.
- ٥- يا أرض ابلعي ماءك : بالحبشة أذربيه .
- ٦- واعتدت لهن متكأ : بكلام الحبش يسمون للترنح متكأ.
- ٧- طوبى لهم : قيل طوبى اسم الحبشة بالحبشية.
- ٨- طه : بالحبشية معناها يا رجل.
- ٩- حصب جهنم : عن ابن عباس حصب جهنم بالزنجية حطب جهنم.
- ١٠- السجل : للرجل (كطلى للسجل للكتاب).
- ١١- مثل نوره كمشكاة : المشكاة بلسان الحبشة للكرة.
- ١٢- تاكل منسأته : المنسأة العصي بلسان الحبشة.
- ١٣- ياسين : يا إنسان بالحبشة، أو يا رجل.
- ١٤- إنه لأواب : الأواب : المسيح.
- ١٥- يؤتكم كفلين : ضعفين بالحبشية.
- ١٦- إن ناشئة الليل: قيام الليل بلسان الحبشة، إذا قام الرجل قالوا نشأ.
- ١٧- السماء منفطر به : ممثلة به بالحبشية.
- ١٨- قصورة : الأسد بالحبشية.
- ١٩- أنه ظن أن لن يحور : يرجع بالحبشية.
- ٢٠- كوكب درى: مضى بالحبشية^(١).
- (١) ويلاحظ أن أغلبها يدور حول أمور دينية.

وإذا كان يمكن القول بأن اللغات السامية ترجع إلى أصل واحد، وإن في هذه اللغة الأم ألفاظ كثيرة مشتركة كالأب والأم والميد والدم والمهن والسنة والشفة والأمة وغيرها، فهي كلها مشتركة في جميع اللغات السامية أو في أكثرها.. إذا كان يمكن هذا القول للوصول إلى أن هذه الألفاظ ألفاظ مشتركة بين اللغتين العربية والحبشية، فإن الذي يحكم هذا كله هو التحقق من لفظ للكلمة ومعناها وكيفية استعمالها في اللغتين والعلاقة بينهما وبين سائر اشتقاقاتها، وبهذا تكون الكلمة حبشية الأصل إذا تحققت فيها صفة من الصفات الآتية^(١):

١- وجود اشتقاق للكلمة في الحبشية يكون أظهر وأبين في العربية ومثل هذا: حواريون، ومنبر، فكلية حوارى مع إدراكنا أن بناءها غير مأخوذ في العربية لا يمكن اشتقاقها من حار لأن أقرب المعاني التي تؤديها هو الرجوع، أما المعنى في الحبشية فهو السير والسفر، والحواريون في لغة الكنيسة هم رسل المسيح. وكلمة منافق معناها في الحبشية شك، وراهن وخالف، ولا علاقة في العربية بين النفاق وكل المعاني التي تؤديها كلمة نفاق. وفعل منبر في الحبشية نبر بمعنى جلس، ولا يوجد اشتقاق للمنبر في العربية^(٢).

٢- نقل الكلمة محرفة من الحبشة أو مغايرة للأصل مثل محراب والتي ربما كان أصلها محرام في الحبشية أى المعبود، وأبدلت الميم باء، وربما كان أصلها مكراب بمعنى المكان المقدس فأبدلت الكاف حاء، ومثل ذلك كلمة بقل^(٣)، فهي لفظ حبشية أصلها بقل، ومن هنا يتبين أن تغير الكلمة في حرف من حروفها قد يكون دليلاً على عدم أصالة الكلمة في اللغة التي نقلت إليها.

٣- أفراد الكلمة في العربية بحيث لا يكون لها قرابة إلا ما اشتق منها، مثال ذلك كلمة "مائدة" فهي في الحبشة "مائد" ولا يوجد لها في العربية أى اشتقاق من مانتها.

(١) بين العرب والحبشة ص ١٠٠ وما بعدها.

(٢) لكن يلاحظ أن النون والباء في ابتداء الفعل تدل على التطور والارتفاع في اللغة العربية مثل نبت، نيش، نبع، نبغ، نيق، نبذ، نبض... الخ.

(٣) وردت في القرآن "والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون.. سورة النحل، آية ٧.

ومن هذا النوع كلمات أخذت من الحبشية، وأخذتها الحبشة من قبل من لغات أخرى مثل إنجيل، وجهنم، وثابوت، فهي ألفاظ بعضها يوناني، وبعضها عبراني.

٤- وجود نص موثوق به يؤكد أن اللفظة حبشية الأصل من ذلك ما ذكر من أن مشكاة أصلها حبشى، فإذا رجع إلى أصل الكلمة في الحبشية نجد أن Maskot معناه للكوّة، وفي القرآن يرسم المقطع للثلاثى بالواو مما يدل على أن حركته لم تكن فتحة معدودة في الأصل بل كانت كما في الحبشة تماماً.

ومثلها كلمة مصحف، ففي الحبشية كلمة Mashaf مشتقة من صحف أى كتب، والكلمة في العربية تروى ميمها محرّكة بالحركات الثلاث.

٥- ندرة معنى من معانى الأوزان في العربية مع شيوعه في الحبشية، ومثل ذلك كلمة "أخدود"، فوزن أفعول بالفتح يأتى في الحبشية (وربما في لغات يمنية أيضاً) للدلالة على الجمع، فيقال أمجور أى بلاد جمع أمجر، وأجموس نوع من النقود جمع جمس "ولا نعرف أن أفعول قد ورد في العربية مفتوح الأول وإنسا ورد مضموم الأولى للدلالة على معان شتى من بينها معنى الجمع على أن ورود هذا الوزن للدلالة على الجمع قليل نادر في العربية، وقد وجدنا أن السبوطى لم يذكر مما جاء على هذا الوزن للدلالة على هذا المعنى إلا ثلاثة ألفاظ: أمعور: القطيع من الأطباء، وأحبوش جبل الحبش، وأركوب الجماعة من الركاب، وإذا أمعنا النظر نجد ألا فارق بين الوزن المضموم الأول الدال على الجمع في العربية ومثله المفتوح الأول في الحبشية واليمينية، ذلك أن العرب لم تجر ألسنتهم على نطق أفعول مفتوح الأول (كما لا تستمىغ نطق أفعول مفتوح الأول إلا في ألفاظ قليلة) ونرجع أن أفعول الدال على الجمع في العربية دخيل جاعلاً عن طريق الحبشة أو اليمن، وحين تسرب إلى ألسنة العرب أجروه مجرى ما ألفوه فضموا أوله، وأدرجوه في جملة أفعول الدال في أصل اللغة العربية على معان كثيرة لا صلة بينها وبين الجمع، ومما يؤيد رأينا فى أن معنى الجمع فى هذا الوزن دخيل ما نجده من معانى تلك الألفاظ الثلاثة التى أوردتها السبوطى: إمعور، وأحبوش، وأركوب، فمعانيها توحى بأنها غريبة جاءت عن طريق الحبشة أو اليمن^(١).

(١) بين العرب والحبشة ١٠٤.

(جـ) وهناك صلة مشتركة تدور حول مملكة ميا، فالأساطير الحبشية تتكلم عن ملكة تسمى "ماكيدا" كانت تحكم الحبشة واليمن، وقد زارت سليمان الحكيم ملك بيت المقدس، والأحباش يكونون الاحترام لهذه الملكة، ويتخذون حكمها مبدءاً لتأريخهم، كما يعتبرون زيارتها لسليمان الحكيم وإنجلبها منه ولداً يسمى منليك.. أسماً لملكهم.

وسبب هذه الزيارة يرجع إلى أنه كان هناك تاجر ثرى يدعى "تارين" أو "تمر الدين" فقد كان يملك خمسمائة وعشرين جملًا، وثلاثمائة وسبعين سفينة، وحين سمع سليمان به أرسل في طلبه ليحمل له بعضاً من تجارة الجزيرة العربية من الذهب الأحمر، والخشب الأحمر الذى يستعصى على "السوس" وقد حمل إليه التاجر ما أراد، وفى بيت المقدس شاهد ملكاً عظيماً، فلما عاد التاجر إلى ملكته "ماكيدا" فى الجنوب قص عليها ما شاهده، وما أعجبه من حكمة سليمان الذى كانت كلماته كالماء للعطشان، والخبز للجائع، والدواء للمريض، والكساء للعارى، كما وقف طويلاً عند أمر الهيكل فى بيت المقدس.

ومع أن الملكة استمعت فى أول الأمر فى سأم، إلا أنها بهرت بعد ذلك، ومن هنا استأذنت شعبها فى الرحلة إلى سليمان، وأعدت لها للرحلة، وهناك استقبلت بالترحاب، وبالاهتمام اللائق بها، وزارها سليمان فى جناحها أكثر من مرة، وطوف بها فى بعض ملكه، واكتشفت أن علمه محيط بأشياء كثيرة، وأنه يعرف لغات الحيوان والطيور، ويملك من القوة ما يجعله يسيطر على الأرواح والشياطين، ثم حدثته عن أنها وقومها يعبدان الشمس، وأنها سمعت عن إله إسرائيل، وتابوت العهد ولوح موسى، وحين شرح لها سليمان طبيعة هذا الدين دخلت فيه.

وحين عرف سليمان أنها عزمّت على الرحيل فكر فى الزواج من هذه الملكة الجميلة، وكان أن دعاها إلى قصره "لنتم حكمتها" وهناك وجدت عالماً رائعاً من الترف، وفى إحدى الليالى التى أسرفت فيها فى الأكل الشهى طلب منها سليمان أن تستريح حيث هى الصباح، فأنست إلى ذلك، ولكنها دعتة إلى أن يقسم بالله إسرائيل ألا يختصبها بالقوة حتى لا تعود حزينة، فذكر لها أنه يقسم ألا يختصبها

بالقوة إذا قصمت هي الأخرى ألا تأخذ شيئاً من قصره بالقوة، فما كان منها إلا أن ضحكته منه ثم قالت: ما بال الرجل للحكيم يتكلم كغير الحكماء، وبعد أن أقسم جهاز الخدم لكل منهما سريراً في جانب من الحجرة، وطلب سليمان بلسان عبري من الخدم أن يغلوا الأبواب، ويرفعوا للماء من كل مكان في القصر إلا ما كان منه في جنب سريره.

وبعد فترة من الزمن بحثت الملكة عن الماء مدى، وحين اقتربت من الماء الذي إلى جانب السرير أمسك بيدها.. وتحللاً من القسم!

وفي هذه الليلة رأى سليمان في حلم أن شمساً ساطعة ظهرت في السماء وظلت تسمير حتى وصلت إلى الحبشة، ثم استقرت هناك.

وفي عودة الملكة جاءها المخاض في مكان يدعى "بالأزادي ساربا" وولدت طفلاً.^(١)

وهذه القصة تروى على صورة أخرى في مقاطعة "تيجري" بالحبشة، وإن كانت الملكة فيها تدعى (أطى آزاب) أو ملكة الجنوب، وملخص هذه القصة أن الناس كانوا يعبدون الحية، ويقدمون إليها كل عام بكراً وثلاثمائة رطل من اللبن، فلما جاء الدور على (أطى آزاب) لتربط في الشجرة انتظراً للحية ظهر القديسون، وأنقذوها بعد أن قتلوا الحية، ولكن الذي حدث أن نقطة من دم الحية وقعت على قدم "أطى آزاب" فتحولت قدمها إلى حافر حمار، وحين أطلقها القديسون وعادت إلى قومها نصبوها عليهم ملكة.

وحينما سمعت عن حكمة سليمان عازمت على للذهاب إليه، ليعيد قدمها إلى ما كانت عليه.

وقد تنكرت مع خادمة لها في زي غلامين، فلما اقتربت من باب قصر سليمان عادت قدمها إلى ما كانت عليه، وعندما قابلاً الملك أمر لهما بالطعام والشراب، ولكنه اشتبه فيهما، وفي المساء أعد لهما فراشاً في غرفته وتظاهر

(١) على أساس من هذه القصة تنتمي الأسرة التي كانت تحكم الحبشة، وتسمى نفسها بالسليمانية، ولقب للملك: الأسد الخارج من سبط يهوذا.

بالنوم، وبعد قليل استيقظا، وحين تأكد منهما اغتصبهما وأعطى لكل منهما حقاً من الفضة وخاتماً وقال: إن كان نتاجكما بنتاً فأعيداهما إلى ومعهما الحق، وأما إذا كنا ولدَيْنِ فليكن معهما الخاتم، وعندما عادت الفتاتان أنجبت كل منهما ولداً^(١)..
والقرآن الكريم يقص هذه للقصة في سورة النمل حين تعرض لقصة سليمان مع الهمدود على النحو التالي:

«مكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وجئتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم، قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، إذ ذهب بكتلى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون، قالت: يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعملوا على وآلوتي مسلمين، قالت يا أيها الملأ أقتوني في أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون...» الآيات ٢٢-٣٢.

وهذه الملكة عند الكتاب العرب هي (بلقيس) ويقولون إنها ابنة الهمدود بن شرحبيل أو شرحبيل بن مالك من نسل يعرب بن قحطان، وهي الحاكمة الثانية والعشرون لسليمان، ويقولون إن سليمان أرسل إليها رسالة مضمخة بالطيب على أجنحة الطير، وفي هذه الرسالة يدعوها إلى دينه، وقد ذهبت إليه في قافلة كبيرة تتكون من خمسمائة فتى وخمسمائة فتاة كل منهما يلبس ملابس الآخر، كما أخذت معها خمسمائة قالب من الذهب، وتاجاً يرصعه اللؤلؤ والياقوت، وكمية ضخمة من المسك والعنبر.

أما سليمان فاستقبلها في فناء معبد بنيت حول طه من قوالب الذهب والفضة، وقد رفع لها عرش على أرض من الزجاج الذي يجرى تحته الماء وقد خالت نفسها وهي تسير على هذا الزجاج الذي يجرى من تحته الماء أنها مسير إليه فوق الماء، ومن هنا رفعت ثوبها فانكشفت قدمها المشبه حافر الحمار.

(١) سورة الحنثة ٤٦ وما بعدها.

وقد قدمت الملكة نفسها للملك، فتردد أمام حالة قنمها، ولكنه لم يلبث إلا فترة قصيرة تمكن خلالها من شفاء الملكة، وزفها إلى نفسه.

ومساء كانت هذه الملكة تحكم الحبشة على ما تقول الأساطير الحبشية أو تحكم اليمن على ما تقول المصادر العربية فهي تدل على وجود علاقة ممعنة في القدم بين الحبشة واليمن^(١).

(د) وقد اهتم النبي بالأحياء اهتماماً خاصاً، ويظهر هذا الاهتمام في الأحاديث التي رويت وتؤكد هذه الصلة على نحو ما ذكر صاحب مخطوط رفع شأن الحبشان.

١- هناك حديث مرفوع إلى ابن عباس عن النبي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة، لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن. قال الطبراني، يعني بالسودان، الحبشيين.

٢- وعن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سادة السودان أربعة لقمان الحبشي، والنجاشي، وبلال، ومهجع.

٣- وروى عن النبي: الجنة لمن أطاعني ولو كان عبداً حبشياً، والنار لمن عصاني ولو كان شريفاً قرشياً.

٤- وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الملك في قریش والقضاء في الأنصار، والأذان في الحبشة.

٥- وروى من أدخل بيته حبشياً أو حبشية أدخل الله بيته للبركة.

٦- وهناك حديث مرفوع عن ابن عباس، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا خير في الحبش إن شبعوا زنوا، وإن فيهم لخصلتين حمتين: إطعام الطعام، وبأساً عند لباس.

(١) للمصدر السابق نفسه ٥٣، وما يلاحظ أن بعض الكتاب اليهود يغنون الأسطورة التي تقول إن بلقيس كانت حبشية لتجبت من سليمان، ولأنها ذهبت إلى مدينة سوبا بالسودان خوفاً على الطفل، بل إن الرحالة اليهودي ديفيد روبيني David Reubeni يربط ربطاً محكماً بين سوبا، وسبأ.

٧- وعن أنس بن مالك: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السباق أربعة، أنسا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبش.

ثم إن الرواة يذكرون أنه صلى الله عليه وسلم قد نطق ببعض الألفاظ الحبشية في بعض المناسبات، كقوله عليه السلام وهو يصف أشراف الساعة: إن بين يديها فتنة وهرجاً، وحين لم يعرف للصحبة معنى الهرج سأله فقال: هو للقتل بلسان الحبش.

وكقول النبي لأُم خالد: "سناه سناه" حين قدمت من الحبشة فكساها خميصاً "كساء له أعلام" وجعل يمسح الأعلام بيده، وسناه يعنى الحسن بالحبشية، وقيل كان خاتم النبي من ورق وكان فصه حبشياً^(١).

أما أصحابه ومواليه من الأحباش، فقد ورد ذكرهم كالاتي^(٢):

- ١- بلال بن رباح مولى أبى بكر^(٣).
- ٢- مهجع مولى عمر بن الخطاب أول من قتل بيدر.
- ٣- شقران مولى رسول الله، واسمه صالح بن عدى.
- ٤- أبو بكره نقيع بن مسروح مولى النبي قتل بخيبر.
- ٥- ذو مخبر (أو ذو مخمر) ابن أخى للنجاشي، ومن رواة الحديث.
- ٦- ذو مهدم.
- ٧- ذو روجن.
- ٨- ذو مناحب.
- ٩- عاصم مولى زرة الثقفى.

(١) مخطوط رفع شأن الحبشان ورقة ٢٦، ٤٣ ومخطوط أزهار العروش في أخبار الحبش ورقة ٥، ٦، ٧، ١٤، ١٥ وبين العرب والحبشة ٨٧، ٨٩، ١١٥.

(٢) أزهار العروش ورقة ١٩-٢١، الجواهر الحسان ١٤٥.

(٣) استحب عند الشافعية أن يكون المؤمن حبشياً.

١٠- نليل والد أيمن.

١١- أبو لقيط مولى النبي.

١٢- يسار مولى للمغيرة (كان يرش المسجد ويكنمه).

١٣- وحشى بن حرب قاتل حمزة، وقاتل مسيلمة.

١٤- لم أيمن (حاضنة للنبي ومرضعته ومولاته) واسمها بركة.

١٥- بركة جارية أم حبيبة قدمت معها من الحبشة.

١٦- بريرة مولاة عائشة.

١٧- سعيذة مولاة لبنى أمد.

١٨- نبعة جارية أم هانئ.

وعن عبدالله بن مالك قال: رأيت رسول الله يخطب على ناقه خرماء بمسك بخطامها عبد حبشى.

وأخرج ابن المنى وأبو نعيم كلاهما فى الطب النبوى، قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، وغليم حبشى يغمز ظهره، فقلت يا رسول الله: أتشكى شيئاً؟ قال: إن الناقة اقتحمت بى للبارحة.

وقيل: مات مولى للنبي من الحبشة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: انظروا من كان بمكة من معلمة الحبشة، فادفعوا ميراثه إليه.

وحكى أن موليين كانا للنبي أحدهما حبشى، والآخر قبطى وقد تشابها يوماً بكلمتى: يا حبشى، ويا قبطى، فلما بلغ ذلك للنبي قال: لا تقولاً ذلك، إنما أنتما رجلاً من آل محمد.

والأحاديث الواردة فى شأن النجاشى وأصحابه كثيرة.

(و) ونحن نرى أن الأحباش قبل النبي كانوا طبقة كاذبة مقهورة، ولكن الإسلام حين جاء يحمل المساواة بين جميع اللناس رطب نفوسهم، وجعلهم فى أول الأمر لا يصدقون، ومن هذا ما يروى أن حبشياً سأل النبي هل يدخل الجنة مع

سائر المسلمين، فلما طمأنه النبي ظل يبكي حتى فاضت روجه، قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله يديه في حفرتيه (يعني يديه الشريفة).

ومما يدل على هذا أن جعلاً الحبشي قال للنبي : يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت بين يديك حتى أقتل، أيدخلني ربي الجنة، لا يحتقرني، فقال صلى الله عليه وسلم: نعم، فقال ولنا من الريح أسود اللون يا رسول الله، قال: نعم، ويروى أن حبشياً جاء للنسبي فقال يا رسول الله فضلتكم علينا بالألوان والنبوة، أخبروني إن أمنت بمنك ما أمنت به، وعملت بمنك ما عملت به، إني لكأني معك في الجنة، فقال له النبي: نعم.

ونحن نراهم يبرزون أكثر ما يبرزون في ميداني الحرب والغناء، فقد كان منهم فرسان وشهداء^(١)، وقد كان العرب يشهدون لهم بهذه المزية، وقد استعاروا منهم ألفاظاً تدل على القتال^(٢)، ويبدو أنه حتى عام ٢٥٢هـ كانوا يحتفظون بمراكز للقوى على نحو ما نعرف من أمر شريح الحبشي^(٣).

أما فيما يتصل بالغناء والرقص فلهم في هذا باع طويل، عن أنس قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة لعبت الحبشة لقدمه بحرابهم فرحاً بذلك.

وأخرج أحمد عن أنس قال: كانت الحبشة يزفنون بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون - بلغتهم - : محمد عبد صالح، فقال النبي ما يقولون، قالوا: محمد عبد صالح^(٤)، ولقد كان أنجشة حبشياً حسن الصوت^(٥).

(١) مخطوط الطراز المتعوش في محاسن الجبوش ورقة ٢٤، ومخطوط أزهار العروش في أخبار الحبوش ورقة ١٩.

(٢) ومن ذلك المعابل (وهي آلات مدنية تشبه السهام والنبال) فهي في الحبشة معبلت جمعها معبل، والدروع، والوضف بالوضاف (في الحبشية وضف وضافي أي رمى بالقلاع). بين العرب والحبشة ١١٢.

(٣) تاريخ الطبري ٣٥٤/١٩.

(٤) مخطوط أزهار العروش ورقة ٩.

(٥) قال فيه الرسول في فترة حراء "رفقا أنجشة بالقولير" فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١٠/

٤٥٠، ٤٥١.

وروى أنه عندما قام وفد الحبشة على النبي قاموا يلعبون في المسجد وتكمل السيدة عائشة فتقول "قرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسترنى بردائه، وأنا أنظر إليهم حتى أكون أنا التي أسام."

وفي حديث سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن عروة رآهم يلعبون فزجرهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دعهم فإنهم بنو أرفدة (أرفدة جنس من الحبشة يرقصون، وقال ابن الأثير هو لقب لهم، وقيل جد الحبشة^(١)).

وقد أخذ المسلمون عنهم نوعاً من الرقص الذي يعرف "بالحجل" وهو هذا النوع الذي فعله جعفر حين قدم من الحبشة، فقد صار يحجل حوالى النبي، وفي رواية يرقص، ولم يذكر هذا عليه النبي، وبهذا استدل الصوفية على جواز الرقص في مجالس الذكر والسماع^(٢).

وقد استعار العرب منهم بعض أسماء الآلات^(٣).

وقيل أشياء ألفت قريشاً والعرب من أرض الحبشة :

١- الخالية.

٢- حمل النساء في اللعوش إذا متن.

٣- المصحف الذي له دفتان.

٤- الحجل بين أيدي الملوك.

٥- صدق أربعمائة دينار.. ذلك حين بعث النبي إلى النجاشي خاطباً ابن حبيبة، فزوجها إياه، وأصدقها النجاشي من عنده أربعمائة دينار^(٤).

(١) مخطوط رفع شأن الأبحاش ورقة ٤٥، سير أعلام النبلاء الذهبي ١٠٩/٢.

(٢) الجواهر الحصان ٩٢ وقد جاء في لسان العرب وفي القاموس كلمة "الدركة" أو "الدركلة" وهي تدل على ضرب من رقص الأبحاش.

(٣) من أسماء العود "المرطقة" في القاموس المرطقة العود أو الطبل أو طبل الحبشة، وفي اللغة اللتين من أسماء طنبور الحبشة كما نجد في كلمة "تين" وهي آلة حبشية، وفي الأثر : إن الله حرم الخمر والكوبة (الطبل) وللتنين.

(٤) مخطوط رفع شأن الحبشان ورقة ٢١-٢٤، سير أعلام النبلاء ٩٤/٢، ١٠٩-١٥٠، ٢٠٥.

(ز) ومما يلاحظ هنا أنه بعد هذه الدفعة القوية التي دفعها النبي عليه السلام للأحباش، وبعد عطر المساواة الذي راح يستنشق هؤلاء الأحباش في أول أمرهم غير مصنفين.. بعد هذا نراهم بعد وفاة النبي، ينسحبون من حركة الحياة من حولهم، ويرغبون. العزلة وعدم الاقتراب من الناس، فبال مثلًا قد سافر إلى دمشق، وأثر حياة العزلة هناك حتى توفي عام ٢٠ أو ٢١هـ، وقيل إن أبا بكره مولى الحارث، بن كلدة التقى نزل البصرة ولم يسمع عنه شيء حتى مات، وذهب وحشي بن حرب إلى حمص في آخر حياته وظل بها حتى مات. وإلى جانب ذلك رأينا بعضاً كعثمان بن مظعون يعكف على العبادة وعلى الصوم للادغم، ولا يقرب للنساء، وقد استأذن من قبل النبي في الاختصاص فنهاء عن ذلك^(١).

(ح) وقد اهتم كثير من المفكرين العرب بدراسة الأحباش على نحو ما مر بنا، وعلى نحو ما يذكره ابن الجوزي من أنه يذكر للحبشة الكرم الوافر، وحسن الخلق، وقلة الأذى، وكثرة ضحك اللسان، وطيب الأقواء، وسهولة العبارة وعذوبة الكلام^(٢).

أما الجاحظ فيرى رأياً آخر، فقد ذكر أن الأمم التي فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم أربع وهي: العرب والهند، وفارس، والروم وحين قال : حكيم بن عياش للكلبي^(٣):

ألم يك ملك أرض الله طرا لأربعمة له متميزينا
لحمير ولنجاشي وابن كمرى وقيصنر غير قول الممترينا

.. علق الجاحظ بقوله فما أدرى بأي سبب وضع الحبشة بهذا المكان^(٤) أما الجغرافيون المسلمون فصوروا الحبشة عندهم خافتة حتى منتصف للقرن الثالث عشر، ولعل ما يعترضهم في هذا أن تاريخ الحبشة نفسه ابتداء من نهاية القرن

(١) الجواهر الحسان ٣٥٨-٣٥٩، بين العرب والحبشة ١١٢.

(٢) مخطوط رفع شأن الحبشان ورقة ١٣٩.

(٣) هو المعروف بالأعور الكلبي، وكان منقطعاً لبني أمية، ومتعصباً لليمن على مصر.

(٤) البيان والبيان ٣٨٤.

السابع حتى منتصف القرن الثالث عشر يعتبر غامضاً، فحين لم نسمع عن رحلة مسلمين جاسوا خلال هذه المنطقة، فابن خرداذبة واليعقوبي وابن رسته والمقدسي وغيرهم لم يذكروا من هذه البلاد إلا جرمي، وقد زعموا أنها العاصمة، وقد فرق الخوارزمي بين مدينتين بهذا الاسم، والمسعودي ذكر أن بلاد الحبشة كثيرة ولكنه لم يذكر منها إلا مدينة كبير، ويزعم كذلك أنها العاصمة (العلها انكوبر أو أكسوم أو قسغور) ويشير ياقوت والمسعودي إلى جزيرة الباضع (العلها تحريف للناصع وهو الاسم القديم لمدينة مصوع) وقد أشارا كذلك إلى دهلك وهي مجموعة من الجزر قبالة مصوع في البحر الأحمر. وكلما تقدم للزمن وجدنا أخبار المسلمين المؤرخين عن هذه البلاد تزداد وضوحاً وتفصيلاً^(١).

أما شخصية الحبشي في الشعر العربي فقد رسمت بمهارة، وهي شكل عام ليست شخصية عنوة أو بغیضة، وإنما هي شخصية مرحة وكادحة على نحو ما نرى عند أعشى بكر ويشار، ونحن نقرأ لأعشى بكر قوله :

وترى للزُّق لدينا مَترَعاً حبشياً كَبَّ عِداً فالبطح^(٢).

ويقول مهيار الديلمي في ملاحم حبشي :

فقلتُ ودونهُ متلاطِما تُ	زواخرهُنَّ كالأسد الغضاب
صَواعِدُ كالجبال إذا أَحْصَتْ	نَسِماً، أُنوازلُ كالجوابي
وأخضرُ لا يروق للعین يُطوى	على بيضاء سوداء الإهاب
بروع حذاء أحبشها النواتي	إذا شاققتك حاديّة العرب ^(٣)

وقال للشهاب البزاعي :

وخذ ما خلا من بنات الحبوش	من جلب زيلع لو من إزاره
من السلاء اكسبة السوداء	جمالا وصار عليهن داره

(١) بين العرب والحبشة ١٤٣، ١٤٤.

(٢) عنوان المرقصات والمطربات لثور الدين علي بن الوزير ١٧.

(٣) ديوان مهيار الديلمي دار الكتب ٢٨/١، مخطوط رفع شأن الحبشان، ورقة ٣٢، ٣٣، بين العرب والحبشة ٢٥٦.

ولما خشيَ عيون الأنام تشنّ عليهن بالذهب غاره
تخذن تمايمهن اللعوط فرحن بها دائماً في خفاره
ومن شعره أيضاً :

يا سائلئى عن زيلع وعن طريق الحبشه
صحبته وصيفة بحسبها مشـرئته^(١)
تذكر أن أصلاًها من فتيات الأنجشه
وعنها الخال فيها طوبى لمن قد خمشه
وخذها لومر فيه لوهم يوماً خدشه

ويقول الشيخ عبد البر بن الشحنة في لمة أمرية :

حبشية سألته عن جنسها فتبسمت عن در ثغر جوهرى
فطفت أسأل عن نومة ما خفى قالت: فما تبغيه: جنسى أمحرى^(٢)

ويقول عبدالعزيز بن خيرة من شعراء الأندلس في الخال :

في خدّ أحمدة خال يصيبو إليه الخلى
كانه روض ورد جنانه حبشـى

وهذا لم يمنع يزيد بن مفرغ من شعراء القرن الأول للهجرة أن يهجو الأمير
عبد بن زياد أمير سجستان فيقول فيه :

لهفى على الأمير الذى كانت عواقبه ندامه
.. ونسبت عبد بنى علا ج وتلك أشرط القيامة
جاءت به حبشية مكاء تصببها ندامه
.. لالهول يركبه الفتى حذر المغازى والمسامه

(١) مشريشة أى واضعة على رأسها غطاء يشبه الشربوش.

(٢) مخطوط رفع شأن الحبشان ورقة ٢٧، ٢٢، بين العرب والحبشة ٢٥٦.

والعبدُ يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامه

ومثل هذا نجده عند أبي سعد المخزومي^(١) ومن قبل عند ذي الرمة وأخيراً فنحن لا ننسى أن للعرب نقول للحبشي: أبو البيضاء^(٢).

(ط) من كل هذا نرى أن الأحباش كانوا يمثلون كتلة مستضعفة ولكن الإسلام رفع معنوياتهم، وأدمجهم في حركة المجتمع الإسلامي الجديد، ولكن بمرور السنوات أخذوا ينسحبون من حركة المجتمع الجادة على نحو ما مر بنا من قبل.

وبمرور السنوات كذلك سأل المال في أيدي المسلمين بسبب الانتصارات التي تحققت لهم، وقد دعاهم هذا إلى جانب ترفعهم عن الأعمال إلى اقتناء الرقيق المستجلب.. ولم يكن أحب إليهم من رقيق الحبشة، فقد اشتهر الرجال منهم بأمانتهم وتحملهم للعمل وجبهم له: كما اشتهرت النساء بجمالهن الذي كان مضرب المثل بين جميع أنواع الرقيق^(٣).

ثم إن الإسلام قد أخذ ينتشر على الساحل الشرقي للحبشة لا بين الذين هاجروا من اليمن من قبل ولكن بين الأحباش أنفسهم.

ومع أن الاضطرابات قد وقعت بين المسلمين بنسب متفاوتة في عهد الخلفاء الراشدين، والأمويين، والعباسيين، إلا أن هذه البقعة التي كانت تنحصر في البحر الأحمر الجنوبي وما على ساحليه الشرقي والغربي، كانت تتمتع بهدوء نسبي، وكانت تمثل الخط التجاري المفضل لما تمثله مدينة البندقية التي كانت تنقل التجارة من موانئ الشرق والسواحل الجنوبية لأوروبا، أما هؤلاء الخليط من اليمنيين والأحباش فكانوا يحملون التجارة من موانئ البحر الأحمر والمحيط الهندي من جهة، وموانئ مصر الشرقية من جهة أخرى. وحين قامت الدولة الفاطمية، ثم المملوكية في أواخر القرن الثالث عشر نرى أن الحبشة كانت شبه منعزلة، وكانت نافذتها على مصر هي اليمن.

(١) لؤلؤ د. طه حسين ٦٩، طبقات الشعراء ٢٩٥.

(٢) للمعارف لابن تقيّة ٥٩٦.

(٣) سيرة الحبشة ٦٦.

ثم نرى بعد ذلك تحديداً لشخصية الولايات الإسلامية في شرق الحبشة، ونرى أن "حق الدين" حين يثور على الأمبراطور "توايكرستوس ١٣٤٢-١٣٧٢" يجد للتأييد من اليمن، وتظل الحبشة بعد ذلك هدفاً لكثير من السلاطين المسلمين، ومن الأمراء المسيحيين كذلك، بالإضافة إلى إقبال العالم على شراء الوفيق الحبشى، وكل هذا قد أزل بها الهزائم والضعف.

ثم يظهر بعد ذلك المد التركي فيطل على البحر الأحمر ويستولى على اليمن، ويمد عينيه إلى الحبشة رغبة منه في وضع يديه على طريق للتجارة الهندى القديم، وإضعاف المنافسة البرتغالية التى ظهرت فى هذه المنطقة، بالإضافة إلى ظهور زعيم قوى فى المنطقة هو الإمام 'أحمد بن إبراهيم جرائى' أحد ملوك الطراز الإسلامى^(١).

وهذا الإمام عند الدكتور مراد كامل لا يخرج عن كونه أداة لتحقيق أطماع الأتراك الاقتصادية والسياسية فى المنطقة، فقد اتصلوا به وساعدوه بالمال والأسلحة والرجال ليشن الحرب ضد مولاة الإمبراطور ونجح فعلاً فى ثورته مدة أربعة عشر عاماً^(٢)، فحين أن نستطيع إلا أن ننظر إلى الإمام أحمد كرجل حبشى ظهر على مسرح الحوادث نتيجة لتطور العلاقات القديمة بين اليمن والحبشة، فإذا كانت هذه العلاقات قد سارت دائماً وجهة اقتصادية لا هم لها إلا منفعة السكان الذين يقطنون هذا الجزء من العالم، فما الذى يمنع أن تميز هذه العلاقات فى هذه الفترة المبكرة إلى وجهة غير الوجهة الأولى، ولتصد وجهة سياسية، الغرض منها تمكين الأتراك من هذا الجزء وإنهاء الحبشة المسيحية والقضاء على هذه الإمبراطورية الصغيرة، ولكن هذا الاتجاه الجديد لم يكن مقصوداً لذاته إنما كان وسيلة لغاية ما زالت هى الغاية الاقتصادية الأولى^(٣).

ومن الملاحظ أنه كان هناك فى الغالب احتكاك دينى بين الحكام فى مصر والحكام فى الحبشة، فمثلاً نرى السلطان الملك المؤيد شيخ المجرى قد أوقف البطريرك على قدميه، ويوحى وقرع، وأفكر عليه السلطان ما بالمسلمين من النذل فى

(١) لنجوم الزاهرة ج ٤ تحقيق د. محرز، فهيرم ثلثت من ٨١، ٢٦٠، ٢٢٤، ٢٤٩، ٣٥٠.

(٢) سيرة الحبشة ٦٦ وما بعدها، بين العرب والحبشة ١٦٤.

بلاد الحبشة، ومثل هذا نراه في عهد السلطان الملك الأشرف برسباي، ومعنى هذا أنه كان هناك احتكاك ديني في هذه الفترة، وأنه كان لا يخفى وإنما يظهر بين الحين والحين^(١).

ثم يظهر ذلك المد للتركى فيطل على البحر الأحمر، ويستولى على اليمن، ويمد عينيه إلى الحبشة رغبة منه في وضع يديه على طريق التجارة الهندى القديم، وإضعاف المنافسة للبرتغالية التى ظهرت بوضوح فى المنطقة، وقد ساعده على هذا ظهور زعيم قوى فى المنطقة هو الإمام أحمد بن إبراهيم جرانى.

وفى نظرنا أن حرب الإمام أحمد الجرانى كانت فى صميمها حرباً تحريرية، لأن إمارته كما كان الحال فى كل إمارات الطراز الإسلامى^(٢) كانت تدفع الجزية للحبشة، وقد كان يفرض على بعضهم عدم لبس عدة الحرب، وعدم الإمساك بالسيف، أو ركوب الخيل المرسجة، كما كانوا يقدمون له فيما يقدمون بنتاً ينصرها "الحطى" بعد أن يقوموا بغسلها وتكفيئها والصلاة عليها كأنها ميتة، وبالإضافة إلى هذا نرى أن هذه للحروب التى قادها الإمام أحمد كانت رد فعل طبيعياً لاستعادة "الحروب الصليبية" من خلال الحبشة بعد أن هدأت حركتها فى أوربا، فمع أن هذه الأفكار كانت قد استقرت هناك فى نهاية القرن الثانى عشر، إلا أنه لم يأت للنصف الثانى من القرن الثالث عشر، إلا وقد صارت الحبشة تظهر أمام نفسها ولأمم للعالم المسيحى "بأنها مركز الإمبراطورية المسيحية التى سيلتف حولها المسيحيون وسيحقق على يدي حاكمها القسيس يوحنا آمالهم وأحلامهم، ووجدنا الحبشة تتشعب بفكرة للصليبيين، وتحين الفرص للاشتراك الفعلى فى محاربة للمسلمين^(٣).

ثم كانت ثمرة هذا كله اللقاء الأحمش بالبرتغاليين، وقتل الإمام أحمد الجرانى على يد جندى برتغالى عام ١٥٤٣م. ومن هنا نرى أن حروب الإمام أحمد الجرانى كانت محاولة لتخليص إمارات الطراز من الاضطهاد الدائم ودفع الجزية، ورد فعل للصليبية السوداء - لأن صبح هذا التعبير - فى المنطقة، وأنه هو

(١) النجوم الزاهرة جـ ١٤ تحقيق د. جمال محرز، فهم شلتوت ص ٨١، ٢٦٠، ٣٢٤، ٣٤٩، ٣٥٠.

(٢) سى الطراز لمحاذقه لسلط البحر وهو يتكون من سبع إمارات لكل منها ملك مسلم.

(٣) بين العرب والحبشة ١٥٧، ١٦٩، وما بعدها، الحبشة بولس سعد ٨٦.

الذى عمل على الانتفاع بالأثر في نهاية المرحلة، من أجل الحرية، ومن أجل دفع شر قائم لا محالة لاغتتيال هذه الإمارات الواحدة بعد الأخرى وفي الوقت نفسه من أجل حماية المسلمين لدخل الحيشة نفسها.

ثم ظهر بعد ذلك النفوذ المصرى فى المنطقة، وكذلك كان لظهور المهديّة فى السودان دوراً هناك، ولكن الذى لا شك فيه أن الكفة قد أخذت ترجح فى صالح الأحياء، وأنهم تمكنوا من تصفية الإمارات الإسلامية، ومن الوقوف بعنف ضد أن يكون للإسلام دور حاسم هناك.

٦- حمرة الصفات فى الحشيتات :

اجتمع رأى الحكماء وأهل التجارب على أن الحشيتات يجئن فى المقدمة، لأنهن فى مرتبة الاعتدال فى الأمزجة من الحرارة واليبوسة، فالسوداء حارة يابسة فهى حطاب جهنم، والبيضاء، مرطبة باردة فهى ثلج الشتاء، والحشيتة خضراء كانت أو صفراء، أو ماء كانت أو سمراء، متوسطة بين المرتبتين، معتدلة فى الحاليتين، بغية فى الوقتين، فى الحر جنة، وفى البرد جنة، وعلى هذا إجماع أهل العقل والنقل والحكمة.. ويخفى أثر مما يستدل به على فضلهم، وصحة ما قيل فى حقهم ما قاله الحكماء فى كتب الطب فى باب اللحوم فى أن لحم الأسود من كل حيوان أجود، لأنه يكون أنضج لأجل حرارة الأسود، وقد ثبت بالتواتر والتجارب أن وصالهن يشفى العليل، ويطفى الغليل ويزيل الأمراض الحادثة من البرودة والرطوبة، وينفع من أوجاع الظهر والمفاصل وسلس البول والمثانة ويستحب اتخاذ السرارى لأنه سنة الأنبياء والمرسلين، وصلاً بقول الرسول عليكم بالسراى فإنهن مباركات الأرحام، وانكحوا الأولاد فإنى أباهى بكم يوم القيامة، عليكم بالسراى فإن السرور فى السراى، عليكم بالسراى فإن أرحامهن مباركات وأولادهن لنجب^(١).

وأفضل السراى هاجر القطبية ومارية للقطبية وما أكثر القصائد التى جاءت فى مدح الحبوش^(٢)، وما قيل فى أسمائهم من الألفاظ والمعجمات^(٣).

(١) الطراز المنقوش فى محاسن الحبوش للبخارى. تحقيق د. عبدالله الغزالى ١٠٢-٩٧.

(٢) نفسه ١١٧-١٢٥.

(٣) نفسه ١٢٦-١٣٣.

ثالثاً: الصلة بالسود عامة :

(أ) الاسترقاق :

١- من المعروف أن الرقيق^(١) عرف في مصر القديمة، وفي بابل وآشور وفي فارس الهند والصين.. فالحضارات القديمة قد مارست هذا النوع من التعذيب للإنسان، ففي تلك الأيام عرف الإنسان للعديد من ألوان الرق، رق الأسر في الحروب، ورق البيع والشراء، ورق الاستدانة أو الوفاء بالديون فإذا وقفنا عند اليهودية نجد أنها لجأته، ولتأكل الإصحاح للعشرين من كتاب التثنية، حيث جاءت هذه الوصية للمقتل.. حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك، وإن لم تسلمك، بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إليك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، ولما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة وكل غنيمتها فتغنيها لنفسك، وتأكل غنمة أعدائك التي أعطاك الرب إليك.

وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إليك نصيباً فلا تستبقى منها نسمة ما بل تحرقها تحريقاً.

.. والمسيحية قد رأت هذه الإبادة السابقة وأقرتها، إلى حد أن بولس الرسول لم يعيد بطاعة سلاطنتهم كما يطاع السيد المسيح سواء بسواء، فقد جاء في رسالته إلى أهل أفسس.. أيها العبيد أطيعوا سلاطنتكم حسب الجسد يخوف ورعده في بساطة قلوبكم كما للمسيح ولا بخدمة العين كمن يرضى للناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب، خاضعين بنية صالحة كما للرب ليس للناس، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً أم حراً^(٢).

(١) يطلق عليهم العبيد، وبخاصة إذا كانوا سوداً، وفيما عدا ذلك يطلق عليهم اسم "المماليك" جمع مملوك.. ومعناها ملك اليمين.

(٢) عن حقائق الإسلام ولبابيل خصومه. عباس محمود العقاد ٢١٦.

وقد سار العرب في هذا الطريق خطوات كبيرة، ولم يكونوا شذوذاً في القاعدة التي سار عليها القدماء فالرقيق في اليونان القديمة كان يقدّر بأكثر من ٦٠% من سكان المدن الإغريقية، والرومان كانوا يجعلون من الرق قانوناً حاداً وحاسماً، ومع أن للرقيق في بلاد العرب لم يكن يشكل نسبة كبيرة إلا أنه كان يمثل طبقة كلاحية تقوم بالأعمال التي يترفع عنها السادة، كما كانوا يسهمون في الحروب التي تقوم بين الحين والآخر.

وقد كانت الأمة يستمتع بها، وقد تؤجر للبقاء^(١)، وإلى جانب هذه الصورة القائمة كانت توجد صورة أخرى تعتبر ثمرة من ثمار الحياة في هذا المجتمع، فقد كان بعض العرب يفاخر بإعتاق العبيد، وكان بعضهم يطلق الحق على مكرمه من المكارم، كقول حاتم الطائي لعبيده - ويسميه غلاماً -

أوقدْ فإِن الليل ليلُ قُرْ

والريخُ يا غلامُ ريحُ صرْ

إِن جليبتَ ضيقاً فأنت حرٌّ!

إلا أن هذه للمسألة الإنسانية لا تنفي أن العبد كان مهاناً، ومحاصراً في وظائف بعينها كخدمة المنزل، وكالرعى وتوصيل رسالة إلى قوم، وكالتجارة بالحداثة والنجارة والحلاقة والحجامة، وفي الوقت نفسه كان معرضاً للبيع في أي وقت يشاء السيد وبخاصة في المواسم، ويمكن أن نتعرف على معاملة العبد من قول مالك بن حريم الهمداني^(٢).

ونخلع نعل العبد من سوء قوّده لكيما يكون العبدُ للسهل أضرباً
وقد وعدوه عقبةً قمشى لها فما نالها حتى رأى الصبّح أنزاعاً
ولوسعن عقبيه دماء فأصبحت لصايحُ رجاليه رواعف دمعاً

فهم ينزعون نعله ليملك بالخيول أو الإبل السهل، وما يزال كذلك حتى يتفجر عقبه بالدم.

(١) نزلت في هذا الآية الكريمة .. ولا تكرهوا فتيانكم على البناء إن أردن تحصناً، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا.

(٢) الأصمعيّات تحقيق أحمد شاکر وعبد السلام هارون ٦٥، نهاية الأرب ١٥٤/٢.

من هذا نرى أن الرقيق كان منفياً في نوع كربه من أنواع الحياة، وكانت كل تطلعاته محصورة، ولعل هذا وراء أننا لم نسمع عن أعمال رائعة لعدد منهم يتفق مع العدد للكمي لحياتهم هناك فقد كان كل جهده أن يكسح ثم يمزق في مكان مهين أيضاً بعد للكسح يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام.

فلماذا كان يحكم وجودهم أنه ليس لولحد منهم الحق في أي شيء ما لم يقضه إليهم السيد، وهكذا كان عليهم أن يقسموا حياتهم نصفين قسم للسادة، وقسم يمكنهم من الحياة خدمة هؤلاء للمادة^(١).

وحتى الأبناء من السود كانوا من المهانة بحيث لا يلحقون بأبائهم إلا لسبب نادر على نحو ما سنرى من إلحاق الشاعر عنترة بأبيه.. وكان أسوأ أبناء الإماء حظاً في الحياة أبناء الإماء السود الذين سرى إليهم للسود من أمهاتهم، وأطلق عليهم اسم الأعرية^(٢).

ولعل مما كان يزيد في عزلتهم، وربما في شعورهم بالاغتراب أنهم لم يكرسوا على اتصال بلوطانهم الأولى، وهكذا كان عليهم أن يعيشوا وأن يموتوا في هذا العالم الذي يضعهم في قاعه الاجتماعي، والذي لا يسمح لقدراتهم بالظهور إلا في دوائر بعينها يحرسها في الوقت نفسه السادة.

٢- ثم جاء الإسلام فإذا به يجتث المرتكز الذي تقوم عليه عملية الاسترقاق^(٣)، وذلك حين نادى بالحرية للتامة بين الأجناس أو الأقولم، فالأمؤمنون إخوة، والتمايز بالقوى، والناس جميعاً كامنات المشط.

ذلك لأنه اعتبر الأصل في كل إنسان أن يكون حراً، فإذا ما تعرضت هذه الحرية لنوع من المصادرة، فإن للباب يجب أن يظل مفتوحاً لاسترداد هذه الحرية، فلماذا يصدر هو الحرية في الإنسان لا الإنسانية فيه، وهو بهذه الإنسانية له الحق

(١) حقوق الإنسان في الإسلام د. علي عبدالوحد وفي ١٢٦ وما بعدها.
(٢) مكة والمدينة ٣٨، الاقتصاد الإفريقي د. محمد رياض د. كوش عبدالرسول ٨٤، تاريخ التمدن الإسلامي. جرجي زيدان ٢٠/٤.
(٣) لم تأت في القرآن كلمات : رقيق، استرقاق، ولم تذكر في أحاديث الرسول (لارق في القرآن. إبراهيم هاشم الفلالي ١٣٦).

فى الحرية، فإذا طرأ طارئ لظرف من الظروف فإن هذا الطارئ لابد أن يتغير إما بواسطة الإنسان الذى صودرت حريته، وإما بواسطة الراغبين فى الخير، وإما بواسطة الدولة نفسها.

ونحن إذ تعرضنا للقرآن نجد أنه تعرض لظاهرة غياب الحرية فى اثنين وعشرين موضعاً^(١). ولقد كان أنجشة غلاماً حبشياً حلو للصوت قال فيه الرسول رفقاً أنجشة بالقوارير^(٢).

أما الأحاديث النبوية فهي تجرى على هذا المنوال الذى يؤكد أن الإسلام شرع العتق ولم يشرع الرق، فإذا أردنا تلخيصاً لما صنعه الإسلام فى هذا الأمر قبل أربعة عشر قرناً وجدنا أنه حرم كل أنواع الرق، ولم يبيع إلا ما هو مباح الآن بالفعل وفحوى ذلك أنه قد صنع خير ما يطلب منه أن يصنع، وأن الإنسانية لم تأت بجديد فى هذه المسألة بعد الذى تقدم به الإسلام قبل ألف ونيّف وثلاثمائة عام، فالذى أباحه الإسلام من الرق مباح اليوم فى أمم الحضارة التى تعاهدت على منع السرقى منذ القرن الثامن عشر إلى الآن، لأن هذه الأمم التى اتفقت على معاهدات السرق تبيح الأسر واستبقاء الأسرى إلى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأسرى، أو التعويض عنهم بالقداء والغرامة.. هذا هو كل ما أباحه الإسلام من الرق أو من الأسر على التعبير الصحيح.

وغاية ما هناك من الفرق بين الماضى قبل أربعة عشر قرناً وبين الحاضر فى القرن العشرين أن الدول فى عصرنا هذا تتولى الاتفاق على تبادل الأسرى أو على اقتداء بعضهم بالغرامة أو التعويض، أما فى عصر الدعوة الإسلامية فلم تكن

(١) بيان هذه الآيات موضحاً بالسور والآيات كالتالى :

- ١- سورة البقرة آية ١٧٧ ٢- النساء فى الآيات : ٣، ٢٣، ٢٥، ٣٦، ٩٢.
 - ٣- المائدة : آية ٨٩ ٤- التوبة آية : ٦٠ ٥- النحل آية : ٧١.
 - ٦- المؤمنون آيات : ١٠، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧.
 - ٧- النور آيات : ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٥٨.
 - ٩- الأحزاب ٤، ٥، ٦، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٥.
 - ١١- الممّاج آيات : ٢٩، ٣٠، ٣١.
 - ١٢- الفيل : ١١، ١٢، ١٣.
 - ٨- الروم آية : ٢٨.
 - ١٠- المجادلة آية : ٢.
- (٢) فتح البارى لابن حجر المصطفى ٤٥٠/١٠.

دولة من الدول تشغل نفسها بهذا الواجب نحو رعاياها المأسورين فمن وقع منهم في الأسر بقي فيه حتى يفدى نفسه بعمله أو بماله إذا سمح له الأسرون بالفداء^(١).

ونحن لا ينبغي أن نسمى أن أسترقاق من يسمى الأسير لم يكن قاعدة لا ينبغي أن نكسرها، ذلك لأن المسلمين حين كانوا يأمنون على أنفسهم كانوا لا يقفون عند ظاهرة غياب الحرية بالنسبة للإنسان الأسير، فقد أطلق النبي الأسرى في بدر من غير فداء، كما أخذ من نصارى نجران الجزية، ورد عليهم الأسرى، ومن الطبيعي أنه إذا تقابلت فتان من المسلمين فإنه لن يكون هناك أسر، وعلّة ذلك أن الجميع يدينون مبدأ الحرية للجميع، وأن الاعتداء على هذه الحرية مخالف لعقيدة الإسلام، فإذا اعتنق الناس مبدأ الحرية للجميع وطبقوه في واقعهم فتلك هي الغاية التي يريدها الإسلام لأهل الأرض جميعاً^(٢) فالرق لا يكون إلا عن حرب دينية بيننا وبين الذين يحولون بيننا وبين إقامة شعائرتنا وبث دعوتنا^(٣).

وعلى كل فالقرآن لم يرد فيه نص يدل على الأمر بالاسترقاق، أو يدل على اتخاذ الأسماء سرارى، ومما يلاحظ أن ملك اليمين لم يأت في القرآن إلا بصيغة الفعل الماضى، وهذا يرجع ما نذهب إليه من أن المقصود بملك اليمين هو ما رسب من زمن الجاهلية، ومن أسرى الحروب الإسلامية، ولم نجد آية واحدة جاءت بصيغة فعل المضارع^(٤).

وعلى كل فالذى يستخلص من الأحاديث والآيات هو ما يأتى :-

١- الحق للمسترق في طلب الحرية بالمكاتبة، وإلزام القضاء بإجبار سيده على ذلك، كما فرض على المجتمع معلونته بالمال، حتى تتحقق له الحرية التي هي حق من حقوقه.

٢- من قال لعبد : أنت حر بعد وفاتى فليس له أن يبيعه، وليس له أن يرجع فيما قال، وذلك هو "المدير" ومن اعتق عبده بأى لفظ ينفذ حتى ولو كان للمعتق يمزح أو فى حالة سكر.

(١) حقائق الإسلام وأبوابه خصومه ٢١٩، ما يقال عن الإسلام ١٤٤ وما بعدها.

(٢) مجلة العربي العدد ١٣ مقال أمين الخولى.

(٣) القرآن ومشكلاتنا المعاصرة د. محمد أحمد خلف الله ٩٢.

(٤) لارق فى القرآن . إبراهيم هاشم القفلى ١٢٠ وما بعدها.

٣- فرض على الدولة تحرير الرقاب من الزكاة.

٤- جعل كفارات المأثم عتق الرقاب.

٥- إذا لطم السيد عبده أو جلده فكفارته عتقه.

٦- يقتل السيد بعبده ويقطع ويجدع بجذعه.

٧- للترغيب في تزويج الأرقاق والمسترققات من الحرائر والأحرار.

٨- الأمر بأن يطعم السادة مواليتهم مما يأكلون، ويكسبونهم مما يكتسبون .

كما نهى عن كل ما يجرح شعورهم، ويمس إنسانيتهم بالفعل أو بالقول سواء أكان ما يقال جذاً أو مزاحاً.

٩- من بجى من المسترقين إلى جماعة المسلمين يحرر، وليس لأحد أن يعيده للرق.

١٠- حث القرآن على الإعتاق، وجعله من أعظم القرب إلى الله.

١١- كل مستركة تتال حريتها بمجرد إنجابها.

١٢- حرم لهاجة المستركة لكل من أرادها.

١٣- من ارتكبت الفاحشة من المسترققات توقع عليها نصف العقوبة التي توقع على الحرة.

١٤- إذا أكرس السيد عتق عبده يحلف المسترق، ويقضى له بذلك، وفي ذلك مخالفة للقاعدة التي تقول: للبينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

١٥- ولاء المكاتب لمن دفع المال وهياً له فرصة للتحرر وحرمان مالكة من الولاء لئلا يتقاعد الناس عن تسهيل أمر الحرية لمن يطلبها^(١).

"وقد يقال هذا صحيح بالنسبة لمستقبل حرية الإنسان، ولكن لماذا لم يضرب الإسلام ضربه السريعة والحاسمة بتحرير الرقيق الموجود بالفعل، وإعطائه.. صكاً "سريعاً" بذلك، ولعل مما يذكى ذلك أن الخطوة التي اتخذت لتصفية هذه الآثار لم تنفذ كما ينبغي في المجتمع الإسلامي، بل لقد وصلت إلى حد ينكره الإسلام!

(١) لارق في القرآن ١٣٠، ١٣١.

وللإجابة على هذا يجب أن ندرك أن الإسلام جاء والرق نظام معمول به فى كل العالم وأنه قد أثر التدرج فى هذه الحالة، بعد أن جفف كل ينبوع التى ترفده، وإذا نظرنا إلى ما حدث حول هذا الموضوع نجد الرق قد ظل نظاماً مقراً حتى ألغى من حيث للمبدأ إبان الثورة الفرنسية وقد ظل فى أمريكا حتى ألغاه أبراهام لنكولن من حيث المبدأ كذلك عام ١٨٦٣، وكان موجوداً فى الحبشة حتى الغزو الإيطالى الأخير، بل لازلنا نسمع عن حالات منه حتى الآن، فإذا أضفنا إلى ذلك أن العبيد الذين حررهم لنكولن لم يطق للكثير منهم الحرية، وأثر العودة إلى أسيادهم، ذلك لأن العملية لا تحتاج إلى تشريع من الخارج، قدر ما تحتاج إلى تحرير الإنسان من الداخل، وقد فعل الإسلام هذا بالمعاملة الحسنة، وبالسلوك الذى جعل المواخاة تتم بين بلال بن رباح وخالد بن ربيعة للخنعمى، وبين حمزة ومولى النبى زيد، بل إن زيدا هذا تزوج ابنة عمه للنبي عليه السلام، وكان على رأس جيش فيه الجباه العالية من المهاجرين والأنصار.

وهكذا نرى الإسلام بعد أن ينضجهم من الداخل، وبعد أن يخلصهم من آثار العبودية السابقة، يشجعهم على طلب الحرية، ويعطيهم الوسائل لذلك وفى اللحظة التى يطلبونها بأنفسهم، وقد كان من فضائل الإسلام الكبرى فى مسألة الرقيق، أنه قد حرص على التحرير الحقيقى له من الداخل والخارج، فلم يكتف بانياة الطيبة كما فعل لنكولن بإصدار تشريع لا رصيد له فى داخل النفوس، مما يثبت عمق إدراك الإسلام للطبيعة البشرية، وفطنته إلى خير الوسائل لمعالجتها، وهذا إلى جانب تطوعه بإعطاء الحقوق لأصحابها مع تربيته على التمسك بها واحتمال تبعاتها على أساس الحب والمودة بين جميع طوائف المجتمع، قبل أن يتصارعوا من أجل هذه الحقوق كما حدث فى أوربا^(١) وهكذا وضعت للخطأ التى تتلخص فى تضيق الروافد التى تغذى الرق، وفى توسيع المنافذ، التى تؤدى إلى العنق والتحرير^(٢).

فالإسلام كان ولا يزال مع الحرية، والإسلام كان ولا يزال ضد العوارض التى تقف فى سبيل حرية الإنسان، ذلك لأن الحرية حق أصيل، وصفة جوهرية،

(١) شبهات حول الإسلام: محمد قطب ٢٧ وما بعدها.

(٢) حقوق الإنسان فى الإسلام. د. على عبدالواحد والى ١٢٦.

ثم لأنها إلى جانب كونها قيمة إنسانية أساس المسؤولية^(١)، وهكذا وجد السود أمامهم. مجتمعاً مفتوحاً، فخلوه فهم لم يترددوا في الدخول إلا كتردد أى إنسان يفتح أمامه باب فجأة، وتشرق عليه الشمس بنور بها فجأة ونحن لا نعرف أنه كان لهم تجمع خاص تدارسوا فيه هذه الدعوة الجديدة ثم انتهوا فيها إلى قرار، أو أنهم عزموا على أن يكونوا نواة صلبة، بحيث يمكنهم التأثير في المجتمع الجديد، أو ليكونوا "مراكز قوى" لضرب المحاولات التي ربما تحطم مكاسبهم الجديدة في يوم من الأيام، ذلك لأنهم لم يروا من الإسلام "مناورات" لضمهم، فهو لم يتقرب إلى بعض دون بعض، وهو لم يركز على أفراد منهم ويترك الآخرين في القاع، وهو لم يحكم عليهم بالبقاء غضباً كما يحدث الآن في شارع بعينه، أو حي بعينه، أو على أطراف القبيلة أو المدينة، فهو لم يعزل، ولم ينبذ ولم يدمغ، ولم يصم للنوع، ولم يتعصب، وإنما أعطى أملاً جميلاً للإنسانية وعمل في الوقت نفسه على تصفية التناقض الموجود أصلاً بدون صراع.

ونحن هنا لا ينبغي أن ننسى أن نذكر أن عدد الأرقاء الذي كان موجوداً فعلاً في الجزيرة العربية لم يكن يكون مشكلة تتطلب الحل الحاسم والسريع، فقد كان عدد الأرقاء هناك لا يقاس بما عند الفرس أو الرومان مثلاً، ثم إن عددهم بين المسلمين الأوائل لم يكن يزيد "على عدد الأصابع في اليدين" فإبقاء الأمور على ما هي عليه مؤقتاً مع عمليات "التضييق" و"التوسيع" التي تحدثنا عنها لم يكن مستغرباً، ولكنه لم يتركها ولم يغلها ولم يؤجلها بين الإغضاء والاستحسان لهراتها وقلة جدواها، بل جرى فيها على دلبه في علاج المساوي الاجتماعية والأخلاقية، يصلح منها ما هو قابل للإصلاح في حينه، ويمهد للتقدم إلى المزيد من الإصلاح مع الزمن كلما تهيأت دواعيه^(٢).

ولكن المشكلة تراكت بعد ذلك، وأخذت طريقاً مخالفاً لما منه الإسلام، بحيث انقلبت الصورة إلى "توسيع للروافد" وبالتالي إلى "تضييق المنافذ" ومن هنا رأينا البيت العربي على حد تعبير أحمد أمين قد تحول إلى "عصبة أمم"^(٣)، ورأينا

(١) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة ٩٤.

(٢) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ٢١٨.

(٣) ضحى الإسلام ٩/١.

صمت كثير من العلماء عن القول بحرمة هذا النوع من الاسترقاق المعروف في هذا العصر أو في العصور السابقة سواء ما يتصل منه بالسود أو بالبيض كبنت الشراكسة اللاتي كن يبعن في الأستانة قبل الدستور، ومع هذا كنت ترى العلماء ساكتين عن بيعهن والاستمتاع بهن بغير عقد نكاح، وذلك من أعظم المنكرات، ولو سألت الفقيه عن حكم الممثلة بعد شرحها له لأفتاك بأن هذا الاسترقاق محرم إجماعاً، وربما قال لك إن مستحل ذلك يكفر لأنه يعتذر بالجهل، وعلى كل فذلك بما يعللون به مثله، وهو أنه مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة، وماذا يمكن أن نعمل وراء بيان حرمة العمل، وبراءة الإسلام^(١).

إن القول بأن الأرقاء في الشرق كانوا يعتبرون جزءاً من الأسرة، وكانوا يستطيعون الزواج من بنات هذه الأسر، وكانوا يستطيعون أن يصلوا إلى نزوة الهرم الاجتماعي لأن الطريق أمامهم كان مفتوحاً ومن الأمور المشهورة أن الأرقاء عند العرب يكونون من الأبناء المملكين^(٢) للقول بهذا، بل إن التعاطف مع العبيد أساساً لن يؤثر في أنه ارتكب خطأ في حق الإنسان الأسود، ثم إنه لا ينبغي أن ننسى أن نذكر أن العبيد بصفة عامة - وبخاصة السود - منهم - كانوا يسيرون في طريق مسدود، وكانت تضيق أمامهم للفرص كلما اقتربوا من الوظائف الكبيرة في المجتمع، فحين نعلم أن شرط "الحرية" كان يجب أن يتوافر في أشياء كثيرة، وعلى سبيل المثال نذكر أن الصفات الواجبة والتي لا يمكن إهمالها للكاتب كانت عشر صفات، الثالثة منها الحرية، فقد شرطوا في كاتب القاضي أن يكون حراً، لما في العبد من النقص، فلا يعتمد في كل القضايا، ولا يوثق به في كل الأحوال، فكاتب السلطان كذلك بل أولى^(٣).

صحيح أن كثيراً من الكتاب قد نفذوا إلى الإسلام من خلال هذه التطبيقات الموجودة في الرقعة التي يقوم عليها الإسلام، وصحيح أن هذه التطبيقات لها الأهمية العلمية، ولكن جانب الحقيقة الآخر الذي يجب أن يدرك هو ما نعرفه من ثراثنا من أن الرجال يعرفون بالحق ولا يعرف الحق بالرجال.

(١) القرآن ومشكلاتنا المعاصرة ٩٣، تفسير المنار ١٠٢٩/٥.

(٢) حضارة العرب ٣٧٨.

(٣) صبح الأعشى : للقلقشندي ٦٥/١.

ب- الإمام :

١- لقد عرفت البشرية النساء المملوكات^(١) قبل للرجال المملوكين، ذلك لأن الزواج في القبائل البدائية أوشك أن يكون كله سبباً واعتصاماً من نساء القبائل الأخرى، أما الحاجة إلى استرقاق الرجال فلم تظهر ضرورتها إلا بعد وجود أعمال بعينها يمكن أن توكل للأسرى لحقارتها، أما قبل ذلك فلقد كانت عملية الاسترقاق بالنسبة للرجال تشكل عبئاً إلى حد أنه كان يتخلص منه في بعض الأوقات بالقتل، فالمرأة لها مشكلات خاصة تسبق بها مشكلات الرق، ولها مشكلات كذلك تختلف عن مشكلات الرجل حين يتحرر كل منهما، وبخاصة إذا لم يكن لها عائل أو زوج^(٢).

ومع أن المرأة في الجاهلية العربية كانت عضواً عاماً في الحياة هناك، إلا أن الرجل العربي كان "يُذ" طفولتها في بعض الأحيان، كما كان يمثل بالمرارة حين يبشر بها^(٣)، ومن هنا نتبين واقع نظرته بالنسبة للإماء.

فالأمة كانت تدور في دائرة الكدح والتسرى، وكان للسيد حق التصرف فيها بدون عقد أو مهر كما أن له حق أو بيعها، وبكلمة شاملة كانت "متاعاً" له حق التصرف فيه كما يشاء.

ويمكن أن نطل على مكانتها من خلال وصية أكرم بن ضيفى لابنيه^(٤) فهو يقول .. "ولا تفشوا سراً إلى أمة"، ومن أقواله "لا يغلبكم جمال النساء على صراحة النسب".

(١) إذا كانت كتب اللغة لا تفرق بين العبي والامة، فإن الروح العام للشعر الجاهلي ولحياة أبناء السبيل وإبناء الإمام توحي بأن بينهما فرقاً في المكنة الاجتماعية، فالسبيلاء عربيات يؤخذن اغتصاباً في حرب أو غارة وشمنهن الدم، أما الإماء فغير عربيات ويشترين بالمال للخدمة والتسرى ولذلك باهى الشعراء بالسبيل وبالإستيلاء على السبيلاء ولم يباهوا بالإستيلاء على الإماء، كما تهاجوا بالأمهات الإمام ولم يتهاجوا بالأمهات السبيلاء، ويرى من أن تكون أمهاتهم إماء، ولم يبرعوا من أن يكن سبيلاء (المرأة في الشعر الجاهلي. د. أحمد الحوفي ٤٩٢، ٤٩٣.

(٢) المرأة في القرآن الكريم - عيسى محمود العقاد ١٩٥.

(٣) القرآن يقول "وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ليمسكه على هون لم يمسه في الذرف ألا ساء ما يحكمون" سورة النحل أية ٥٨.

ومن الشعر يمكن أن نتعرف على دورهن في المجتمع، فهن طاهيات في قول طرفه:

تسببت إساء الحى تُطهى قدورنا ويأوى إلينا الأشعث المتحرف^(٢)

وهن راعيات عند ذى الأصبع الحدوانى^(٣)

وهن حوامل عند قيس بن الحطيم^(٤)

وهن بغايا عند الأعشى^(٥)

وقد يسمين "المظلمات" لأنهن يطرقن وقت الظلمة، على نحو ما قالت العوراء بنت سبيع في رثاء أخيها :

صيان طاولى الكشح لا يُرخى لمظلمة إزاره^(٦)

وقد اشتهرت طائفة كبيرة منهن بالغناء، وهن ما يطلق عليهن للقيان، ومن أشهرهن قينتان كانتا تغنيان لأمية بن أبى الصلت^(٧) وبنت عفر، وزينب، وحمامة وأرنب وخليدة وهريرة، وهريرة هذه كانت سوداء وهى التى خلدها الأعشى فى شعره^(٨)، وكتب الأدب تعرف الكثير من القيان^(٩) على نحو ما نرى من قول عبد يغوث:

والحصر للشرب الكرام مطيتى وأصدع بين القينتين ردايا^(١٠)

(١) الممعرون والوصايا. تحقيق عبدالمنعم عامر ١٥.

(٢) ديوان طرفة ٤٤ والمتحرف هو من كذبت لسنون ما له.

(٣) المفضليات ١/١٥٨.

(٤) معجم البلدان ١/١٤٨.

(٥) ديوان الأعشى ١٠.

(٦) موالى شواعر العرب ١٤٧.

(٧) المحبر لابن حبيب ١٣٨.

(٨) الأغاني ٩/١١٣.

(٩) القينة "الأمة للمغنية من القين وهو التزين، وقيل إنها الأمة مغنية أو غير مغنية، وقيل الجارية تخدم، وقيل الأمة غنت أو لم تغن، ويطلق هذا على المغنية إذا احترفت الغناء، وهذا من عمل الإمامة نون الحارثي "لسان العرب ١٧/٢٣١.

(١٠) الأغاني ١٦/٣٢٥.

ويمكن أن نتعرف على القيمة الحقيقية للقيمة، من قول عمرو ذى الكلب^(١):

فلسْتُ لحاصن إن لم ترونى ببطن صريحة ذات النجَال
وأمرى قينة إن لم ترونى بعروش تحت عزعرها الطوال

فهو يتحدى أعداءه إن لم يهاجمهم من أماكن بعينها، ويرى أن أمه قيمة وليست حرة إن لم يحقق ما يريد.

وقد كان هناك من يجبرهن على البغاء من أجل المال، أو من أجل أن يلدن أولاداً ليتصرف فيهم بالبيع، وقد كان من عادات اللبغايا منهن أن ينصبن على بيوتهن المنعزلة ربات خاصة ليتمكن الاستدلال عليهن، فإذا ما كبرن عملن في الغالب قوادات، ولقد كانت هذه الطائفة محترمة كأشد ما يكون الاحتقار لأنهن يجمعن بين كونهن إماء ولبغايا^(٢).

أما نظرة العبد إلى الأمة فيمكن أن نتعرف عليها من قول السليك:

أشباب للرأس أتى كل يوم أرى لى خالصة وسط الرجال^(٣)

٢- ثم جاء الإسلام فرفع من قدره الأمة حين عمل على نقل ملكيتها من دائرة العبودية إلى دائرة الزوجية، فقد أمر المسلمين بالزواج منهن^(٤) وفضل الزواج بالملوكة على ذات الحسب المشتركة^(٥)، وفرض لهن حقوقهن^(٦)، وجعل أصحاب المال ومن يملكونهم سواء فيما عندهم من رزق الله^(٧).

وحرص الإسلام على البر بهن في عولطفهن وإحسانهن، كما حرص على البر بهن في أرزاقهن ومعيشتهن، فكان عليه السلام ينهى المسلم أن يقول "عبدى

(١) ديوان الهذليين ١١٩ (ط . دار الكتب).

(٢) للمرأة في الشعر الجاهلي ٥٠٠ وما بعدها.

(٣) الكامل للمبرد ٣١١/١.

(٤) "واكحوا الأيمنى منكم والمصححين من عبادكم وإماءكم إن يكونوا فقراء ينتهيم الله من فضله ٢٤ للنور ٣١".

(٥) "وأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أصبجتكم" البقرة ٢٢١.

(٦) «الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ» ١٢٣ الأحزاب : أية ٥٠.

(٧) «لَمَّا الْكَلْبَيْنِ فَضِّلَا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ» النحل : ٧١.

وأمتى" وإنما يقول "فتاى وفتاى" كما يتحدث عن أبنائه، وكانت وصيته بالصلاة والرفيق من آخر وصاياه صلوات الله عليه قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى، ولم يحصل أولئك المستضعفون من النساء والرجال على تلك المعاملة طوعاً لأوامر دين من الأديان قبل الإسلام، ولا تلبية لسعيهم أو خوفاً من تمردهم وعصيانهم، ولم يكن أحد من لقوامهم ينصرهم أو يتقبل منهم شكائهم، بل لم يكن فى الأرقاء أنفسهم من يعتقد أن له حقاً فى شكواه^(١).

ثم نرى الإسلام يحرم عملية البغاء التى كانت تحترف من هذه الطائفة للتعبئة، كما حرم المخالفة بمعنى أن تقتصر المرأة على رجل واحد مسافح، وقد جعل الإسلام عليهن نصف عقوبة الزنا^(٢)، بسبب الظروف القاسية التى عشن تحت وطأتها.

والذى لا شك فيه أن النظرة إلى الأمة قد أخذت تتغير عما كانت من قبل، ومما يدل على ذلك أن عاصية بنت ثابت زوجة عمر لما أسلمت ذكرت له أنها كرهت اسمها وطلبت منه أن يسميها فقال: أنت جميلة. فنضبت وقالت: وما وجدت اسماً تسمينى به إلا اسم الأمة، ثم ذهبت إلى النبى فسامها كذلك: وذكرت ما كان بينها وبين عمر، فقال النبى: أما علمت أن الله عند لسان عمر وقلبه^(٣).

وإنه يندر أن نجد فى شعر المسلمين فى صدر الإسلام، من هجى برق الأم كما كان يحدث فى العصر الجاهلى^(٤)، ولكن هذه الذبرة الكريهة سرعان ما أخذت فى الظهور على حياء، فقد مر بصرى بين للقتلى يوم للجمل فسمع عمير الضبى يقول:

لقد أوردتنا حومة الموت أمنا فلم نصرف إلا ونحن رواء
أطعنا بنى تميم لشقوة أمنا وما تيم إلا أعبد وإماء^(٥)

(١) المرأة فى القرآن الكريم ١٧٢ وما بعدها.

(٢) «فَإِنْ كُنَّ بِفَاحِشَةٍ فَلْيَنْصِفْ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ» ٤ للنساء الآية : ٢٥.
(٣) الإصطية ٤٠/٨.

(٤) المرأة فى الشعر الجاهلى ٤، ٥.

(٥) مروج الذهب ٢/ ٢٤٩.

ثم جاء عصر الفتح، وكان تتفق الأعداد الغفيرة من الإماء، ذلك لأنه إذا تم الدخول عنوة دون الاستجابة للشروط المتعارفة، كان يعتبر كل من فى هذا البلد الذى فتح عنوة ملكاً للفاتحين، فكل من يقع فى أيديهم من بنات المحاربين ومن نسائهم يصبحن إماء، وينقلن مع الأسلاب^(١) للبيع أو الاستخدام، ومع أن هذا الجانب الذى لصطلح على تسميته (أسرى الحرب) قد كان مشروعاً إلا أنه ظهرت بعد ذلك رحلات النخاسين ومغامراتهم، ومسيرتهم وراء الجنود المحاربين "لاقى هؤلاء النخاسون فى العربى فاتحاً سخياً، ولا سيما فى الفتح الأولى ومواقع الهند والروم، ولكن هذا العربى أن كان مصدرأ من مصادر الرقيق أخذ يعتمد على النخاسين الجوايين فى أطراف المعمورة لشراء الجوارى، وينوع خاص على يهود الأندلس الذين كانوا يتوغلون فى أوروبا وينتقلون إلى روسية فيحطمون من هناك جماعات من الجوارى السلافيات، والجرمانيات اللاتي عرفن فى بلاد العرب باسم الصقلييات"^(٢).

وإلى جانب هذين المصدرين القائمين على الأسر والشراء، وجد مصدر يسمى "الرقيق المسلم" وهو الجموع التى كانت تستولى عليها جماعة القرامطة، ثم تبيعها بين الأرقاء، ولقد كان فيما استولوا عليه عام ٣١٢هـ - ٩٢٤م خمسمائة امرأة.. كما يوجد مثل هذا فى ثورة الزنج، وبالإضافة إلى هذه المصادر كان يوجد "المولدات" الشهيرات، واللتي كن ثمرة الجوارى الجلييات (فيذا وقعت إحداهن فى يد نخاس تفلن فى تزيينها وتعطيرها والدعوة لها)^(٣).

من هذا كله أصبح داخلين فى نسج المجتمع، فهن فى المنازل يقمن بدور الزوجة أو الخادم أو الماشطة أو المروض أو المربية، وهن فى القصور يقمن بالترفه على السادة بالرقص والغناء والمداعبة وقول الشعر فى بعض الأحيان، وقد عرف منهن نوع يسمى للغلاميات (لخدم البنات)^(٤) وهن فى بيوت النخاسين

(١) كما هناك استثناء كما حدث لبنات يزدجر بن شهر يار ب كسرى، حين قال على: إن بنات الملوك لا يبعن قموهن.

(٢) الجوارى . د. جبر عبد النور ٢٤ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق نفسه ٢٧، ٢٨.

(٤) تاريخ العرب ٤٢٨/٢.

على موعد دائماً مع قائم، كما أنهم كن مرح الخمارات وشغلها الشاغل، وأصحاب حظوة عند الطارقين وبخاصة للشعراء والمغنين، وقد تخرج عدد كبير منهم في الأدب والغناء وبخاصة بين ما يطلق عليهن (الجوارى السميرات) اللاتي كان بعض شيطاني النكاء يتوسل بهن في بيته الذي يزار دائماً على قضاء الحاجة، وعقد للصفقة. وتلقى الهدية، وللجاحظ كلام هام في هذا المجال^(١).

وإلى جانب النخاسين الذين كانوا قولم هذه التجارة، كان يوجد المغنون أيضاً، فهؤلاء كانوا يطلبون الجوارى ثم يوقعونهن، ثم يعرضوهن من جديد للبيع فيزداد ثمنهن، وقد كان من المغنين الذين اشتهروا هذه المهنة إبراهيم الموصلي، وإبنة اسحق، ويزيد حوراء، وحمان، وإبراهيم بن المهدي^(٢).

وقد وقفن كذلك وراء الشعراء، فلو أخذنا العصر العباسي مثلاً لوجدنا بشاراً يعشق (عبد) وأبا العتاهية يحب (عتبة) وأبا نواس يتوله في (جنان) والعباس بن الأحنف يتودد إلى (فوز)، كما أن ابن أبي عيينة كان لا يرغب في شيء رغبته في (دنيا) ومثله حماد ومطيع بن إياس بالنسبة (لجوهر) ويمكن أن ينسحب هذا على مسلم بن الوليد، ودعبل، وأبي الشيص، والحسين بن الضحاك.

وفي الوقت نفسه كان لهم تأثير لا ينكر على الخلفاء والأمراء والوزراء والكتاب ووجه الأمة.

ولو أخذنا منهم واحدة سوداء هي (خليدة المكية) لوجدنا أنه كان لها أثر لا ينكر على عصرها^(٣)، فقد تلقت الغناء على أيدي أساطينه الأول جميلة، وابن مسريخ ومالك ومعبد، وجودت فيه، ولقد كان ممن فتن بها كاتب الأمير رباح الذي قيل فيه:

فتنت كاتب الأمير رباح بالقومي خليدة المكيه

وكان ممن تله فيها محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان إلى حد أنه بعث إليها خطاباً^(٤)، فما كان منها إلا أن قالت لرسوله، قل لصاحبك إن أردت

(١) الحيوان ٢٨٩/٥.

(٢) الأغاني ٢٥١/٣.

(٣) الأغاني ٧٣/٣، ١٤٣، للجوارى المغنيات ٤٤.

(٤) الجوارى المغنيات ٧٤٣، ٧٤٤.

نكاحاً مباحاً، أو زناً صراحاً فهم إلينا فنحن له.. فإما نكاح السر فلا والله لا فعلته ولا كنت علراً على اللقيان، وأخيراً انتهى الأمر بمحمد بن عبدالله إلى أن قال لرسوله أرجع إليها وقل لها: تختلف إلى أردد بصرى فيها لعلى أسلو، وإذا كان تعليم الغناء في أول أمره كان مقصوراً على الجارية للصغراء والسوداء، فإن إبراهيم بن هاني يقول (ومن تمام آلة الزمر أن تكون للزامة سوداء)^(١).

... وهذا يموثقنا إلى أن الأمة للسوداء كان مرغوباً فيها عند بعض، فما هو للفرزدق يتزوج من زنجية تسمى لم مكية ويقول فيها :

يأرب خود من بنات الزنج
تمشى بتلور شديد الوهج
أختم مثل القدح الخائج^(٢)

وبشار يقول في جاريته السوداء :

وغداة سوداء برقة كالماء في طيب وفي لبن
كانها صيغت لما نالها من عنبر بالمسك معجون^(٣)

والشاعر بن أبي الشبل يقول حين عوقب في سوداء يحبها :

عدت بطول الملل عاذلة تلومني في المنواد والدعج
ويحك كيف السار عن غر مفترقات الأرجاء كالشبيج
يخجلن بين الأفخاذ أسنمة تحرق أوبارها من الوهج
لا عذب الله مسلماً بهم غيري، ولا حان منهم فرجى
فإنني بالسوداء مبيتج وكنت بالببيض غير مبيتج^(٤)

وأبو الليث يقول في جارية سوداء اسمها ثبر :

(١) الأغاني ١٧٠/٥ ، البيان والتبيين ٩٣.

(٢) رسائل الجاحظ ٢١٤ ، ديوان الفرزدق ١٤٣/١.

(٣) الأغاني ١٩٣/٣.

(٤) الأغاني ٢٠٢/١٤ ، السيج: خرز أسود، وفي لاحقان منهم استعمل ضمير جماعة للذكور موضع ضمير جماعة الإناث.

لم تُتَصَفَى بِاسْمِيَةِ الذَّهَبِ تَتَلَفُ نَفْسِي وَأَنْتِ فِي لَعِبِ
يَابِئَةِ عَمِّ الْمَسْكِ الذَّكِيِّ وَمَنْ لَوْلَاكَ لَمْ يُتَخَذْ وَلَمْ يَطْبِ
نَاسِيكَ الْمَسْكُ فِي السَّوَادِ وَفِي لَمْ رِيحُ فَأَكْرَمَ بِذَلِكَ مَنْ نَسَبِ (١)

ونسمع هذه النغمة المحبة من الشاعر بن أبي الزوائد الذي كان يعشق جارية سوداء (٢)، ونسمعها من شعراء يقولون :

لَشَبَّهَكَ الْمَسْكُ وَأَشَبَّهُتَهُ قَائِمَةً فِي لَوْنِهِ قَاعَهُ
لَا شَكَّ إِذْ لَوْنُكُمَا وَاحِدٌ أَنْكُمَا مِنْ طَيِّبَةٍ وَاحِدَةٍ (٣)
(و) وَمَنْ يَكُ مُعْجِبًا بِبَنَاتِ كَمَرِي فَلَيْتِي مُعْجِبٌ بِبَنَاتِ حَامِ (٤)
(و) أَحَبُّ لِحَبِّهَا السُّودَانُ حَتَّى أَحَبُّ لِحَبِّهَا سُودُ الْكِلَابِ (٥)

وقد قيل إن سبب التفاضل بين ابن زيدون وولادة كان بسبب ميله لجارية سوداء.

وهناك فصل في الجزء الثاني من نهاية الأرب في فنون الأدب ص ٣٨ وما بعدها تحت عنوان : ومما قيل في السواد (وهو يختص بالموثق) وكله نغمات حب وتوله بالإنسانة السوداء وقد تنبه لهذا البلاغيون وعدوه تحت باب تحسين المشبه حينما تختلف فيه الأهواء كسواد للنساء وطولهن (٦).

ويقال : إن ديوان ابن مكره الهاشمي يُرَبَّى على خمسين ألف بيت، منها في قَبْضَةِ سَوَادٍ يُقَالُ لَهَا "خَمْرَةٌ" أَكْثَرُ مِنْ عَشْرَةِ آلَافِ بَيْتٍ (٧)، ومن قصائده القصيدة التي أولها :

(١) الأغاني ٤٩/١٦.

(٢) الأغاني ١٢١/١٤.

(٣) نهاية الأرب ٣٨/٢.

(٤) عيون الأخبار ٤٠/٤.

(٥) عيون الأخبار ٤٣/٤.

(٦) فن التثنية. على الجندی ٢٢٤/١.

(٧) يتيمة الدهر للتملبي . تحقيق د. مفيد محمد قمبرة ٣/٣.

وسوداء بورك في بضعاها ولائال بؤساً فما أضيقاً^(١)

ونرى هذا في ديوان ابن عني^(٢) حين كتب إلى الملك عبدالعزيز سيف الإسلام صاحب اليمن يطلب رواة :

يا سيد عرضه عار من العار	وجوده في البرايا سائر ساري
قد كان لي من بنات الزنج جارية	صبورة عند إصاري وإيساري
لها من الروم أولاد كثاهم	قداح نبع لجبت بين إيسار ^(٣)
تضمهم في حشاها ليلتها	وأكثر الناس إشفاقاً من الباري
وكننت لجررتهم عنها فما امتنعوا	عن حجم أخلاقها يوماً بأجرار ^(٤)
وقد شقيت فخلصني بقرتها	البيضاء، أو أختها السوداء من قار

وله في غلام أسود :

وماذا عليم لو كلفت بأسود	مطته في العين والقلب منضم
وقد عابني قوم بتقبيل خده	وما زال من عيب..أسود الركن يلثم
لئن ضم جناح الليل لثاء برده	لقد شق عن مثل الصباح للتبسم
وما شق له لون للسواد لأنه	يغر للثنايا والخلائق معلم

ونرى ابن المعتز يقول في زلمة بيضاء في فمها ناي أسود:

كأنما تلثم طفلاتها	زنت به من ولد الزنج
والصباي قال في قدح بلور:	
كانها فيه، وقد حازها	رومية حُبلى بزنجية ^(٥)

(١) نفسه ١٤/٣.

(٢) تحقيق خليل لمردم ١٠٠.

(٣) للمجتمعون على الميمر.

(٤) لجر الفصل شق ليمانه لئلا يرضع.

(٥) قرأضة الذهب في نقد اشعار العرب لابن رشيق. تحقيق لثانلي بو يحيى ص ٩١.

والمعزل مكحول بن عبيد الله:

أو ما احتاج أحمر مُتطير حسبت الليل زنجياً جريحا
وما لجمل قول مسلمة :

وهم بالخال أقولم وما علموا أنى أهيّمُ بشخص كلّه خال^(١)

وقول الشريف للرضى فى تفضيل السود :

أحبك يا لون للأسود فإننى رأيتك فى العينين والقلب نواً
وما كان سهم العين لولا سوادها ليبلغ حبات القلوب إذارى
إذا كنت تهوى للظبي ألى فلا تلم جُنونى على الظبي الذى كله لما^(٢)

وقد توله أبو الشيعة بجارية سوداء له تسمى "كبر" فقال :

لم تنصفى يا سمية الذهب تتلف نفسى، وأنت فى كعب
يا ابنة عم المسك للذكى ومن لو ردك لم يستخذ ولم يطب
ناسك المسك فى المواد وفى ... ريح، فأكرم بذاك من نَسب^(٣)

.. ومما يلاحظ أن العرب وقفوا بعطف بعد الإسلام خاصة عند أولادهم من السود، على نحو ما نعرف من عمرو بن شأس وولده عرار، وعلى نحو موقف الشاعر الحكم بن عديل من ولده الذى كان يقال عنه (أنه من أحبث الناس) ومع هذا اكتفى الشاعر بأن يعرض بأخواله فقط فقال:

يا رب خال لك مسود الفقا لا يشتكى من رجله من الحفا
كسان عيونيه إذا تشوقا عيا غراب فوق نيق أشرفا^(٤)

(١) ديوان الصباية ٩٧.

(٢) نفسه .

(٣) ديوان ابن عنين ١١٢.

(٤) الأغالى ٤٢٣/٢ والنيق بالكسر: أرفع موضع بالجيل.

ومن كل هذا نرى أن الأمة السوداء كانت مشتهرة، وكان لرواج سوقهم وإقبال الرجال عليهم، ولغرام الشعراء بهم أن أخذن بالتألق، وعمدن إلى التصنيع أسوة بشقيقتيهن البيض والسمر، فقلدن في كل شيء حتى في الاكتحال، برغم أن الكحل لا يبدو عليهن مवाद بشرتهن، مما دفع أعشى سليم إلى أن يقول في زوجته دنائير بنت كعبية:

كانها والكحل في مروءها تكحل عينها ببعض جلدها^(١)

ويسود أن للزنجى والزنجية كانا يرتبطان بالجنس المبذول على نحو ما هو معروف من قصة الخصماء التي حدثت لأبى زيد الدلال، وكيف كان يزين للفتاة زنجياً، وللفتى زنجية، وعلى نحو ما رآه عروة بن الورد في إحدى غزواته وما رآه كذلك ثوبة بن الحمير^(٢)، ولم ينب هذا عن الجاحظ في كتاب الحيوان^(٣).

كما أن غناء السوداء وتوقيعها كان يستجاد، فما هو سيف الدين المشد يقول:

سوداء كالغدير معجولة بالممنك والمأورد والعود
كانما نعمة مزمراها لمابدا مزمار داود^(٤)

ويقول أبو إسحق إبراهيم بن خلفجة :

سوداء مطربة الغناء كأنها في الحاليتين حمامة ورقاء^(٥)

وقد نقف على جد يختلط بالهزل فيما يتصل بهم، فقد قيل إن رجلاً دخل على الحطينة وهو مضطجع على فراشه وإلى جانبه سوداء قد أخرجت رجلها من تحت الكساء، فقال له : ويحك، ألقى رجلك خف؟

قال : لا والله ولكنها رجل سوداء، فكبرى من هي ؟

قال : لا .

(١) الجورى ١٣، رسائل الجاحظ ٢١٤.

(٢) الأغاني ٢٧١/٤، ٢٧٢، ٢٧٣/٨٤: ٢٣٧/١١.

(٣) ٣١٦/٥.

(٤) نزهة السمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر.

قال : هي والله التي أقول فيها :

وَأَثَرْتُ بِدِلَاجِي عَلَى لَيْلِ حُرَّةٍ هَضِيمِ الْحَشَا خُصْلَةً لِلتَّجَرُّدِ
تُفَرِّقُ بِالْمِزْنِ لَيْثًا نَبَاتَهُ عَلَى وَاضِحِ الذُّفْرِ أَسِيلَ الْمُقَدِّدِ

ثم قال: والله لو رأيته يا ابن أخي لما شربت الماء من يدها، أما السوداء فجعلت تسبه أقبح سب وهو يضحك^(١)، وقيل إن بعض العميان تزوج بسوداء فقالت له: لو نظرت إلى حسني وجمالي وبياضني لازددت صبا، فقال لها: لو كنت كما تقولين ما تركك لي للبصراء^(٢).

وهناك من توله بهن إلى حد الضنى والموت على نحو ما أورد ابن الجوزي من أن (أبو عبدالله الحبشاني) كان يعشق سوداء إلى حد أنه أشرف بسبب هذا العشق على الموت، ولقد قالوا لمولاه: لو وجهت (صفراء للعاقمية) إليه فلعلمه يعقل إذا رآها، ولما أذن دخلت عليه فقالت: كيف أصبحت يا أبا عبدالله؟

قال : بخير ما لم تبرحني.

قالت: ما تشتهي؟

قال : قربك.

قالت: فما تشكني؟

قال : حبك.

قالت: فتوصني بشيء!

قال : نعم أوصي بك إن قبلوا مني.

قالت: إني أريد الإنصراف.

قال : فتعجلي ثواب للصلاة على.

(١) الأغاني ٢/٢٠٠، ٢٠١، الحصاة: الشديدة الحزن، والأكث: لكثيف الشعر. الذفري: الحظرم
لشخصي خلف الأذن. الأسيل: الطويل، المقدد: المنق.

(٢) نهاية الأرب ٤/٢٢٧.

فقامت ، فالتصرفت، فلما رآها مواليه تنفس للصعداء، ومات من ساعته^(١).
 .. وكثيراً ما تجد السوداوات في كتب الأدب قوادات، أو رسل غرام بين
 المحبين، وقد تردت واحدة منهن بين جميل وبثينة.
 على أن من أعجب ما قيل أن ديوان (ابن سكرة) يضم أكثر من عشرة آلاف
 بيت في سوداء تسمى (خمرة) كان يصفها بالبحر، ويجعلها مادة لملحه.
 ومن أقواله فيها :

هل لك يا "خمرة" في بخرة مُرْبِحة .. ما مثلها بخرة
 سيرى إلى البصرة ولستزقي بربك بالنكهة في البصرة
 فلو عرضت الرقيق في سوقها لا بستت الثقلة بالهدرة
 تزكو بها النخل، وتحمر في غير أوان الخمرة البئسره!

وقد قيل إنه حلف بالطلاق ألا يمر يوم عليه دون هجائها، وحين عرفت
 امرأته بالقصة كانت تحبته بالدواء والقرطاس، عقب الانتهاء من صلاة الصبح، ولا
 تفارقه حتى يكتب شيئاً فيها^(٢).

وعلى كل فقد رسمت لهن صور رقيقة في المؤلفات العربية، ونحن بهما
 جانب الصورة الخاص بالسوداء. أو ما يقرب، نفقد قيل إن البربريات أنشط للخدمة
 وأصلح للتوليد لأنهن أحسب الإناث على أبنائهن، كما أنهن مطبوعات على
 الطاعة، وقد قيل إن البربرية إذا جلبت بنت تسعة أعوام، ثم عاشت في المدينة
 ثلاثة أعوام، وبمكة ثلاثة آخر، ثم نزحت إلى العراق في الخامسة عشرة للتأليب..
 إذا اجتمع لها ذلك تكون قد جمعت إلى جودة الجنس، شكل المدينيات، وخذت
 المكيات، وآداب العراقيات.. واستحقت أن تخبأ في الجفون، وتوضع في العيون.

وقيل إن مساوي الزنجيات كثيرة، وكلما زاد سوداها قبحت صورها
 وتحدثت أسنانها، وقل نفعها، وخفيت المضرة منهن، ويغلب عليهن سوء الخلق،

(١) ذم الهري لابن الجوزي تحقيق د. مصطفى عبدالواحد ٥٢٠.

(٢) الأغاني ١/٢٠٤، ٢٢١، ١١٠/٨، ٣٥٤/١٧، يتيمة الدهر للشمالي ٣/٣.

وكثرة الهرب ولكن الغم ليس في خلقهن، ولما الرقص والإيقاع فيجريا مجرى
القطرة منهن.

والحششيات تغلب عليهن نعومة الجسد ولينه وضعفه، ولا يصلحن للغناء
والرقص، كما أنهن عرفن بالترهل والاستعداد لمرض الصدر.

أما البجاويات فمذهبات اللون، حسنات الوجه، ناعمات البشرة، ملس الجسم،
فهن جوارى متعة^(١).

وقد كتب بعض العلماء رسائل في حيلهم وخداعهم، وفي فن تغليب الجوارى
لمعرفة الطبيعي من المصطنع، بعد أن غالوا في تمويه ما يريدون ستره عن عين
المشتري، فكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبه، وكم من مرة جعلوا العين
الزرقاء كحلاء، وحمرروا الخنود المصفرة، وسمنوا الوجوه المقعقة، وأعدموا
الوجوه شعر الحصى، وأكسبوا الشعور الشقر حالك السوداء وجمدوا الشعور
البسيطة، ورطلوا الشعور الممرطة، وأهبوا آثار الوشم والجدرى والنمش والحكة.
يقول بعض النخاسين: "ربع درهم حناء يزيد ثمن الجارية مائة درهم فضة"^(٢).

وقد كان ممن اهتم بهن في مؤلفاته الجاحظ على نحو ما هو معروف في
مؤلفه رسالة القيان وعلى نحو ما في كتابه المحاسن والأضداد، وكذلك الحافظ
جلال الدين أبي الفضل عبدالرحمن السيوطي في مؤلفه نزهة في التفضيل بين
البيض والسمود والسممر.

كما اهتم البلاغيون في باب الطباق^(٣) بالجمع بين الأسود والأبيض في
المرأة، وهكذا يعكس تصور للناس للسمود واللبياض.

ويمكن أن نرى هذا عند عدد كبير من الشعراء قد تلاعبوا باللونين الأبيض
والأسود، على نحو ما نرى من قول الحسين بن مطير في المهدي :

(١) للجوارى ٣٢، ٣٣، ضحى الإسلام ٨٧.

(٢) الجوارى ٣٠، ٣١.

(٣) الطباق أو المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو
الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة مثل لجمع بين اللبياض والسمود (الصور البديعية بين
النظرية والتطبيق... د. حنفي شرف ٧٦/٢).

لو أن من نوره مثقال خردلة في المود طرا إذن لا بيضت السود^(١)

وهناك من شبه نفسه بهن في حالة ضعف، كقول طاهر بن الحسين إلى ذي الرياستين: أنسا أعزك الله كالأمة للسوداء إن حُمِلَ عليها دمدمت، وإن رُفِهَ عنها اشترت^(٢).

وأخيراً فقد قال عنهن الجبرتي. وأما الجوارى السود فإِنَّهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى، ذهبن إليهم أفواجا فرادى وأزواجا، فنططن الحيطان، وتسلقن إليهم من الطيقان، ودلوهم على مختبآت أسيادهن، وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك^(٣).

وقد استدل الدكتور لويس عوض من هذا على سبق الجوارى السود في المطالبة بالحرية، وعلى أن الحملة للفرنسية حين قدمت إلى مصر كانت تحمل معها أفكار الثورة للفرنسية عن تحرير المرأة، وأنها روجت بين المصريين لهذه المبادئ، ما استطاعت لذلك سبيلا^(٤)، فإن صح هذا وهو غير صحيح كما يظهر من السياق كانت المرأة السوداء هي رائدة الحرية في العصر الحديث.

(جـ) استيلاءهن :

١- لقد كان العرب في الجاهلية يتمسكون بطبيب العنصر، فكانوا يتزوجون من الحرائر، أما إذا كسر واحد منهم هذه القاعدة، فإنهم سرعان ما يعتبرون هذا الكسر خروجاً على القانون السائد بينهم، لأنهم بالإضافة إلى المحافظة على النقاء العنصرى كانوا يرون أن الإمام أوعية للشهوة سواء أعتقن أو لم يعتقن، كما كانوا يرونهم طبقة دنيا في الحياة الاجتماعية، لهذا فقد أثر عنهم قولهم: إننا قوم نبيغض أن تلد فينا الإمام.

(١) الأغاني ٢٢/١٦.

(٢) البصائر والنفائس ٤٣٢/١.

(٣) عجائب الآثار ١٦٦/٣، ١٦٦.

(٤) الأهرام في ١٩٦٧/١١/١٧.

ولهذا نراهم يتربصون بأولاد الإمام فيطلقون عليهم اسم الهجناء، في مقابلة الصرحاء الذين يكونون من الحرائر أو من النجيبات أو المهيترات، كما كانوا يسمهونهن.

أما أولاد السوداوات فكثروا في منزلة دون الهجناء، وكانوا يطلقون عليهم اسم الأعرية^(١).

فالأمة في الجاهلية لم تكن تعنى شيئاً هاماً عند الرجل، على نحو ما نرى من تلك القصة التي تقول بأن "القتال للكلابي" قتل جارية لعمه كانت قد أغضبته، فإذا بعمه يدعى أنها كانت حاملاً ثم يقول:

أدوا إلى بنى لا أبـالكم فإن أم بنى لا أباليها^(٢)

وقد ظل التعبير "بالأم الأمة" نغمة سائدة في الشعر العربي القديم، على نحو ما نرى عند أوس بن حجر. وعميرة بن جعل، وحسان بن ثابت، والأسود ابن يعفر^(٣). ونحن لا ننسى أن البلاغيين حين يتكلمون عن التعريض وهو تضمين الكلام دلالة ليس لها ذكر يضربون له مثلاً بقول محمد ابن عبدالله بن الحسن: لم يعرق في أمهات الأولاد، يعرض بالمنصور بأنه ابن أمة^(٤).

ويجب أن نعرف ما هنا أن الأولاد الإمام الذين تحدثنا عنهم، يختلفون عن أولاد السبائيا لأن السبائيا عربيات بعكس الإمام، ولأنهم كانوا يعتقدون أن السبائيا يلدن الأولاد النجباء، ولقد كان من أولاد السبائيا للمبرزين دريد بن الصمة سيد بنى جشم، والأشهب بن ثور بن حارثة ولخوته الذين كانوا من أمم العرب لحوزتهم^(٥).

٢- ثم جاء الإسلام فصفى كل يذابيع الرق وحرّمها ما عدا رق الوراثة وهو الذي يفرض على من تلده الأمة، ورق الحرب وهو الذي يفرض على الأسرى، وفي الوقت نفسه عمل على تخفيف هذين الرافدين بأسباب كثيرة منها أن أولاد

(١) الأغاني ١٦٥/٢٠، شعراء الصماليك د. يوسف خليفة ١٠٨.

(٢) المحبر ٢٢٦، ٢٢٧.

(٣) لسان العرب ٢/ ٣٠٠، المضاميات ٦٠/٢، ديوان أوس بن حجر.

(٤) نهاية الأرب ٦٠/٧.

(٥) المرأة في الشعر الجاهلي ٤٨٤ وما بعدها.

الإماء من أسيداهن يعتبرون أحراراً متى اعترف الأسيد بهذا، وإذا لاحظنا أن الغالب في أولاد الجوارى أن يكونوا من موالينهم أنفسهم، لأن الأغنياء ما كانوا يقتنون الجوارى إلا لمتعتهم الخاصة.. تبين لنا أن هذا القيد الذى قيد به الإسلام رق الورثة كقيد بالعمل على جفاف هذا الرافد نفسه، ونضوب معينه بعد أمد طويل^(١).

فالحرية تكون للمولود عقب الاعتراف، وقد جرت العادة بتحرير عَدُّ بهذا يقول "أقر فلان بأنه كان قبل تاريخه وطئ مملوكته التى بيده وملكه المقرة له بالرق والعبودية، المدعوة فلانة، للفلاتية للجنس، الوطء الصحيح الشرعى ولستولدها ولداً يسمى فلاناً، للطفل يومئذ، وهو الآن فى قيد الحياة، وأنه من صلبه ونسله، ونسبه لاحق بنسبه"، أما الأمة فتصبح أم ولد، وحينئذ تمتنع على البيع والهبة، وتكون حرة عقب موت السيد، بحيث لا تؤخذ فى ميراث أو استدانة، وكثيراً ما كان السيد يحرر أمته أم الولد، ويتزوجها زوجاً شرعياً، رفعاً من شأنها وشأن أولاده منها، فتتمتع بجميع الحقوق الخاصة بالزوجات الحررات، وإذا ما حررت التجارية تمهيداً لعقد النكاح الشرعى فبوسعها أن ترفض الاقتران بمولاها السابق، وعندئذ تخرج من عصمته، ولا يحق له أن يعيدها إلى ملكه، بل تطلق حرة من القيود التى فرضها الشرع فى معاشره الجوارى ما فرض على للزوج من تحريم الاقتراب من أختين^(٢).

ومن أجل المزيد من حرية الإنسان روى عن النبى عليه السلام قوله: (عليكم بالمسرارى فإِنَّهن مَبَارَكَاتُ الْأَرْحَامِ) ويروى عنه كذلك (أطلقوا الولد فى سبيل الأعاجم فإن فى أرحامهن بركة)^(٣).

كما روى عن بن الخطاب قوله ليس قوم أكيس من أولاد المِسرارى لأنهن يجمعن عز العرب ودهاء العجم^(٤) وهو فى هذا يجرى مع نظريته التى أجمعها فى

(١) حقوق الإنسان فى الإسلام ١٢٦.

(٢) نهاية الأرب ١٣٥/٩، الجوارى ١١٦ وما بعدها، الرق فى نظر الإسلام ٨٦.

(٣) مخطوط رسالة للدرارى فى أبناء المِسرارى ورقة ١٤٦.

(٤) نفسه ورقة ١٤٧.

قوله (اغتربوا) حين رأى بعضاً من قریش ضعفاء اللبنيان، ومؤكداً لما روى في الخبر (اغتربوا لا تضووا) وقد ترتب على هذا تشكيل جديد للبنية العربية.

أما الأمويون، جرياً وراء نظرتهم العربية النقية، فقد نظروا في أول الأمر إلى هذا الأمر بضيق، فقد رأى بعضهم وبخاصة معاوية أن يقتصر أمر السراري على الخور، وأن يبعدن عن مناطق النفوذ بقدر المستطاع، وذلك رسالة منه إلى الحسين بن علي يظهر فيها أنه يأخذ عليه زواجه من جارتها، بينما يظهر من رد الحسين أنه لا يرى في هذا بأساً^(١) ولقد سمعت في هذه الفترة أصوات تحط من قدرتهن، وتتحدى بقاء العرق العربي، وفي الوقت نفسه تنظر إلى (الهجاء) نظرة مشوية بالضيق والاستخفاف.

ثم تغيرت الأمور بعد ذلك شيئاً فشيئاً، فقد قيل إن أهل المدينة كانوا يكرهون التسري حتى نشأ من أولادهم للقاسم بن محمد بن بكر وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، وعلي بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهؤلاء أمهاتهم كن بنات يزجرجد بن شهریار بن كسرى، وهن الثلاثي قال فهن علي بن أبي طالب لعمر، يا أمير المؤمنين إن الرسول قال: لكرموا عزيز قوم ذل، وغنى قوم الفقير، إن بنات الملوك لا يبعن، ولكن قوموهن، وقد قومن بالفضل وقسم بين عبدالله بن عمر ومحمد بن أبي بكر، والحسين بن علي.^(٢)

وقد روى عن رجل من قریش قال: كنت أجلس مع عبد الله بن المسيب فقال لي يوماً من أحوالك، فقلت: ابن فتاة، فكأنني نقصت في عينيه، فأمسكت حتى دخل عليه سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، فلما خرج من عنده قلت: يا عم من هذا. فقال: يا سبحان الله أجهل مثل هذا من قومك. هذا سالم بن عبدالله بن عمر، قلت: فمن أمه، قال: فتاة.

قال: ثم أتاه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق فجلس عنده ثم نهض، فقلت: يا عم من هذا. فقال: أجهل من أهلك مثله. ما أعجب هذا. هذا القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، قلت: فمن أمه. قال: فتاة.

(١) الصراع الأدبي بين العرب والعجم. د. محمد تقي جلاب. ٣.

(٢) الجورى: ٢، ٢٥، ٧٩.

فأملت شيئاً حتى جاءه على بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فسلم عليه، ثم نهض، فقلت: عم من هذا. قال: هذا الذي لا يسع مسلماً أن يجله: هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، قلت فمن أمه. قال: فتاة.

قال: قلت يا عم رأيتني نقصاً في عينك لما علمت أنني لأم ولد، فمالي في هؤلاء أسوة. قال: فجئت في عينيه جداً^(١)، وهناك روايات كثيرة في هذا المجال، وعلى كل فقد ازدانت للرغبة في الأجنيب لتتشتت النسل، ولأن العرب في فتوحاتهم لم يصبحوا معهم نساءهم، ولأنهم يتعففون عن الزنا، أما في القصور فقد حاول العباسيون في أول الأمر للتشدد على من يدخل منهن القصور، ولقد كان الخليفة المنصور أكثر المتشددين في هذا الأمر، ولكن للجواري كن بلجان إلى الحيلة وبخاصة إذا كان لهن أسر وأهل، فقد كن يدخلن إلى القصور حتى إذا لدن أسفن عن حقيقتن، على حد ما فعلت "الخيزران" حين عرضت على المنصور.^(٢)

والمنصور هذا مع تحرزه كانت في بيته أروى بنت منصور الحميرية وامرأة أموية، وكذلك كردية، وأمة رومية.

وقد وصل الحال بعد ذلك إلى حد القول بأنه كان للرشد ما يقرب من ألفي جاربية، وللمستوكل أربعة آلاف سرية، بل لقد وصل الأمر إلى حد الترخيب في الهجاء، فإذا كان عربي من أبناء المهاجرين قد قال (أبناء هذه الأعاجم كأنهم نقبوا الجنة وخرجوا منها، وأولادنا كأنهم مساجر للتناير)^(٣)، فإنهم بعد ذلك قالوا "بنات العرب والغرايب أنجب، وما ضرب رعوس الأقران كابن الأعجمية".

وقد غالى هارون الرشيد في حبه لهن إلى حد أن معظم أبنائه كانوا أبناء إماء، وهكذا رأينا تهاوناً في المحافظة على النقاء العربي، بل رأينا هناك من يعمل على الابتعاد عنه، إلى حد أنه نذر من الخلفاء من كانت أمه حرة ووصل إلى الخلافة بالفعل لإراهم بن المهدي وهو شديد السواد وأمّه لم ولد سوداء، وكان من ينظر إلى للخليفة الطالع لا يصدق أن فيه نماء عربية، فقد كان شبيهاً بسكان

(١) لتكامل في اللغة والألب للمبرد ٣١١/١، ٣١٣.

(٢) لمحاسن والأضداد ١٨٠، ١٨١.

(٣) عيون الأخبار ٣٩/٤.

المناطق الشمالية الباردة، وللخليفة المقتفى كانت أمه حبشية^(١)، وقد تزوج الخليفة (المسكنفى) حبشية تدعى "سكرى الوردية".

وكما كانت الجوارى متعددت الألوان، فقد كن كذلك متعددت الأديان فقد كانت هناك المحبوسية التى تسرع إلى الإسلام وكانت هناك اليهودية والمسيحية، وكثيرات منهن كن يخترن الدخول فى الإسلام طمعاً فى التزوج ثم فى الميراث، فيها هو خالد بن عبدالله القسرى عامل العراق للأمويين يبنى لأمه كنيسة مشهورة، والمأمون يدخل عليه فى عيد الشعانين فترى من حوله الجوارى مزنرات، وفى أعناقهن صليان الذهب^(٢).

يمكن أن نتعرف على مسار هذا الظاهرة من عبدالملك بن مروان الذى يقول: من أراد الباءة فعليه بالبربريات، ومن أراد الخدمة فعليه بالروميات، ومن أرد النجابة فعليه بالفارميات.

ويقول : من أراد أن يتخذ جارية للتكذب فليتخذها بربرية، ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية^(٣).

والجاحظ يقول : إن أهل البصرة أشهر النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات والأعوار، واليمن أشهر النساء عندهم: الحبشيات وبنات الحبشيات؛ وأهل الشام أشهر النساء عندهم الروميات وبنات الروميات؛ وكل قوم فإنما يشتهون جلبهم ومبيهم إلا الشاذ^(٤).

كما يمكن التعرف على هذه الظاهرة من الرواية التى تقول : إن بعضهم سئل على ولد للرومية فقال: صلف، معجب، بخيل^(٥).

وسئل عن ولد الصقلية فقال: طلف زليم.

وسئل عن ولد السنوداء فقال: شجاع سخى.

(١) الدرارى فى أبناء السراى ورقة ١٤٩، والجوارى ٨٤ وما بعدها، ضحى الأسلام ١١، ١٢.

(٢) ابن زيدون : على عبدالعظيم ١٠٧.

(٣) الأغاني ١٩ / ٥٩، ١٣٨.

(٤) مخطوط الدرارى فى أبناء السراى ورقة ١٤٧.

(٥) رسائل الجاحظ ٧٥.

وسئل عن ولد للصفراء فقال: هم لتجب أولادا ، ولين أجساداً ، وأطيب أفواها .

وحين سئل عن ولد العربية قال: ألف حصود^(١).

والجاحظ يرى أن الخلاص من الحيش والبيضاء يكون عادة أعظم من أبوية ، وأقوى من أصلية ومثريه ، كما يرى أن هذا الذي يجئ من البيض والهنود لا يكون على مقدار ضخامة الأبوين ، وقوتهما ، ولكنه يجئ أحسن وأملح^(٢).

وهذه النظرة تؤكدان نظرة العلم الحديثة حيث تحدثت عن اختلاط الأجناس^(٣).

وقد ترتب على هذا أن هذا الجيل المختلط قد لحس بالزهو على العرب أنفسهم ، وبالتفاخر عليهم ، فها هو بلال بن جرير يقول :

بَارِبْ خَالٍ لِي أَغْرُ لِبَلَجَا
مَنْ أَلْ كَسْرَى يَفْتَدِي مَتَوَجَا
لَيْسَ كَخَالٍ لَكَ يُدْعَى عَشَنَجَا^(٤)

وروى عن رجاء من بنى سعد قوله :

أَنَا بَيْنُ مُعْدَى وَتَوَسَّطْتُ الْعَجَمَ
فَلَمَّا فِيمَا شِئْتُ مِنْ خَالٍ وَعَم

وقد قيل إن أبا الفضل الهاشمي كانت عنده سوداء يحبها حباً شديداً ، وكان أن طلب من ابن الرومي أن يذكرها في شعره ، وأن يستغرق أوصافها الباطنة والظاهرة ، فقال هذه القصيدة ، وقد أشار عليه ابن الرومي أن (يولدها) فإنها جديرة بأنه تأتيه بولد ذكر فامتثل ، وأولدها فلنجبته ، ومن هذه القصيدة قوله :

(١) محاضرات الألباء ٢٠٧/١ .

(٢) الحيوان ١٥٧/١ .

(٣) ما هو الجنس ؟ ٦٦ .

(٤) العشج : المتقبض الوجه ، السيئ المنظر .

سوداء لم تنتسب إلى برص الشَّقِّ
ليست من العيس الأكتف ولا الفل
بل من بنات الملوك ناعمة
إن جفون السيوف أجودها
وبعض ما فضل المولود به
أن لا يعاب المولود حلكته
— رلاً كُلفة، ولا بهق
ح الشَّفاء الخبائث العرق
تنشر بالذل ميت الشُّبِق
أسود... والحق غير مُخْلَق
والحق ذو سلم وذو نفق
وقد يعاب البياض بالبهق^(١)

وعلى كل فقد رأينا ظاهرة استيلاء الإمام تدداح، وتغطي مساحة اجتماعية كبيرة من مساحات المجتمع، وقد استمر الجدل حولين بحيث شغلن الحياة، ولم يكن بهذا غريباً لأنهن كن بنية حقيقة في المجتمع، وخليّة تتكاثر يوماً بعد يوم.

وقد اتصل الجدل من حولين حتى مس فكرة (الخلافة) فقد قيل إن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (زعيم الزيدية) حاجة هشام لأنه كان يخشى جانبه على حكمه، وكان أن قال له مرة: لقد بلغني يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها، ولست هناك، ولنت ابن أمة.

فقال زيد: يا أمير المؤمنين، لقد كان إسحق ابن حرة، وإسماعيل ابن أمة، فاخصص الله ولد إسماعيل فجعل منهم العرب، فما زال ذلك ينمو حتى يكون منهم رسول الله.

وقريب من هذا ما كتبه المنصور رداً على حجج محمد بن عبدالله^(٢)، والصورة العامة لهذه الحالة يرسمها أحمد أمين فيقول: فكثير من رجال البلاد المفتوحة ونسائهم وزعوا كلهم غنائم على الجيش العربي، فكان لكل جندي تقريباً عبيد وإماء يستخدمهم في حوائجه، ويستولد الإمام إن شاء، ففتح من هذا أن البيت العربي دخلت فيه عناصر أخرى فارسية أو رومانية أو سورية أو مصرية أو بربرية، فلم يعد البيت العربي عربياً بل بيتاً مختلطاً، ورب البيت هو العربي، أضف إلى هذا أن هؤلاء الإمام كن يلدن أولاداً يحملون للدمين معاً: الدم العربي

(١) نزهة للمر ٣١.

(٢) ضحى الإسلام ٢٧١، ٢٨٨.

من جهة الأب، والدم الأجنبي من جهة الأم، وكان عدد هذا النوع كثيراً لكثرة الفتوح التي فتحها المسلمون في عهد عمرو من بعد.. هؤلاء الأرقاء والموالي انتجوا في الجيل الثاني لعهد الفتح عدداً عديداً منهم من يعد من سادات التابعين وخير المسلمين، ومن حملة لواء العلم في الإسلام^(١).

وقد كان هناك من تنبه إلى انتشار هذه الظاهرة في وقت مبكر، فقد قيل إن الأئمة بن قيس قال لعلي بن أبي طالب، يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على قريك، وحين كتب محمد بن عبدالله بن حسن بن حسن ابن علي بن أبي طالب إلى أمير المؤمنين المنصور.. وأعلم أنني لست من أولاد الطلقاء ولا أولاد اللعناء، ولا أعرقت في الإمام، ولا حضنتي أمهات الأولاد.

حين كتب هذا رد عليه المنصور قائلاً: وأما ما ذكرت أنه لم تعرق فيك الإمام، فقد فخرت على بني هاشم طراً وأولهم إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم علي بن الحسين الذي لم يولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم - مولود مثله، ومما يروى في هذا المجال قول المختار لإبراهيم بن الأئمة يوم خازر وهو اليوم الذي قتل فيه عبيد الله بن زياد إن عامة جندك هؤلاء الحمراء، وإن الحرب إن ضرمتهم هربوا، فأحمل العرب على متون الخيل، وأرجل الحمراء أمامهم^(٢).

وقد ذكر الجاحظ أنه قيل لعبيد الكلابي: ليسرك أن تكون هجيناً ويكون لك ألف جريب؟

فكان رده: لا أحب اللؤم بشيء.

وحين قيل له: إن أمير المؤمنين ابن أمة.

قال أخزى الله من أطاعه.

بل إن بعضهم وصل به الحال إلى إنكار أن يرث (الهجين) مثل أخوين له^(٣)، وهناك من أكد أن البدع والضلالات في الأديان لا تظهر إلا منهم^(٤).

(١) فجر الإسلام ٩١.

(٢) للكمال للمبرد ٣١٢/١ - ٣١٤، ٢٧٤.

(٣) عيون الأخبار ٦١/٢.

(٤) الفرق بين الفرق ١٠١.

وقد أسهم بعض الشعراء في إدانة هذه الظاهرة، فقد عرض الكميت بأخذ
الفرس والحبشة وغيرهما من نساء اليمن^(١)، وقد رأينا الرياشي يقول:

إن أولاد المسـراري كثرُوا يـاربَ فيـنا
رب أنـخلـني بـلاداً لا أرى فيـها هـجـرباً^(٢)

وقال بن هرمة :

ما غيرت وجهه أم مهجنة إذا القتامُ تفتشَى أوجه الهجن^(٣)

وقال آخر :

إن المنزع لا تغنى خذولته كاليفل يعجزُ عن شوط المحاضير^(٤)

وقال عبدالله بن عباس في كلام يجيب به بن الزبير (والله إنه لمصلوب
قريش، ومتى كان عولم بن عوام يطعم في صفيحة بنت عبدالمطلب من أبوك يا
بطل، فقال: خالي الفرس^(٥)).

ولكن هذه الأصوات المحذرة والخائفة كانت واهنة، لأن هذه الظاهرة كانت
تنتشر من غير أن تؤثر فيها هذه الأصوات الواهنة، وذلك لأن حركة المجتمع
الجديد، وظروفه كانت أقوى من كل هذه الأصوات.

ولقد كانت خيراً وبركة في إحداث عملية (توليد) جديدة لا بين الأجسام فقط،
ولكن بين العقول كذلك (فمعقول الناس من الأمم المختلفة كان يتناولها اللقاح،

(١) خزعة الأدب ١٧٩/١.

(٢) للكامل ٣١٤/١، والهجين عند العرب الذي أبوه شريف وأمه وضيمة، والأصل في ذلك أن
تكون أمة، وإنما قيل هجين من أجل البياض، وكأنهم تصدوا للروم، والصقالية، ومن أشبههم.

(٣) مجالس تطلب ٣٨.

(٤) للكامل ٣١٥/١، والمنزع من كانت أمه كريمة وأبوه خسيما، قال الفرزدق:

إذا بأهـلى تحـته حنـظـلية له ولد منها فذاك المنزع

وسمى منزعاً إيماء إلى الرقعتين في زراع البطل لأن هذه الورقة من الحمار على نحو قول هذبه
ورثت رقاش اللؤم عن أبياتها كتولوث الخفـرات ركبـ الأـنـزع

(٥) للكامل ٣١٥/١.

فالفارسي يحمل عقلاً فارسياً ثم يعتنق الإسلام، ويتعلم اللغة العربية، فينشأ مزيج من العقليتين تتولد منه أفكار جديدة، ومعلن جديدة، واليوناني النصراني أو الرومي النصراني، أو العراقي اليهودي يخالط العربي المسلم، ويتبادلان الرأي والقصص والفكرة فينشأ من ذلك فكر جديد^(١).

ومثل هذا يمكن أن ينسحب على عملية الاستيلاء، التي كانت نشطة على كل المنطقة الإسلامية.

هذا فيما يتصل باقتحام عالم الإمام، أما زواج العربية بغير العربي فقد ظل دائماً أمراً غير مرغوب فيه، ومع أنه كان يتم أحياناً إلا أن المجتمع كان غير راض عنه، على نحو ما نرى من قول الشاعر (أبي بجير) في آل عبد القيس حين تسامحوا في تزويج بناتهم، نظراً لظروف اقتصادية كانت تجتازها القبيلة .. فقد قال:

أمن قلّة صرتم إلى أن قبلتم	دعارة زرع وأخر تاجر
وأصهب رومي، وأسود فاحم	وأبيض جغد من مرأة الأحامر
فهلا أنيتم غفة وتكرما	وهلا وجلتم من مقالة شاعر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم	وأولى بقربانا ملوك الأكاسر ^(٢)

(١) ضحى الإسلام ١٤/١.

(٢) لصراع الألبى بين العرب والمعجم ٢٩.

رابعاً : الدولة النجاشية :

وأخيراً يجيء دور للدولة النجاشية، نمية إلى نجاح من بلاد الحبشة، فقد كان من عبيد الحسن بن سلامة، وقد وصل الأمر إليه حين تولى كفالة طفل من آل زياد، ولذلك تُعرف هذه الدولة بالحبشية، وبالعبيد تارة أخرى. المهم أن نجاحاً استولى على زبيد وأعمال تهامة سنة اثني عشرة وأربعمائة، وضرب السكة باسمه، وكتب أهل العراق، وأطلق عليه اسم "المؤيد نصير الدين"، وفوض إليه أمر الجزيرة اليمنية، وظل ملكاً لتهامة من "حلى" شمالاً إلى "عدن" جنوباً وقد انتقته ملوك الجبال، وخطب بالملك.

حتى قتلته الملك "علي بن محمد الصليحي"، فقد تقدم إلى "زبيد" عام ٤٥٥ وتغلب على هذه الدولة، وكان أن هرب بنو نجاح إلى جزيرة "ذهلك" فاجتمع اليمني في هذا العصر تألف من العنصرين للعربي والحبشي، وكان الأحباش في تهامة وخاصة في زبيد ونواحيها كالنجاشيين، أما العرب فكانوا في "الصليحية" وحين حدثت الفتنة بين الفريقين، رأينا السلطان الخطاب يهجو الدولة النجاشية فيقول:

يا صفوة العرب الذين نمت بهم	في المجد خير معارف وأروم
ما العذر ما إن لا تزال عبيدكم	أمراكم هذا من التسخيم
هل بعد أن أضحت مقاليد بقرب	تبعاً لعبد تافه مخروم

ويقول :

هل فلتكم فعل العبيد وما	جاءوا وإليه من الفعال ^(١) الذكير
-------------------------	---

(١) السلطان الخطاب حياته وشعره: إسماعيل قربات حسين ١٤ وما بعده.

خامساً : كثرة السود بعد مجيء الإسلام :

كان عدد الأرقاء حين ظهر الإسلام في الجزيرة العربية لا يكون مشكلة، وكان عددهم بين المسلمين الأوائل لا يزيد على عدد الأصابع في اليدين^(١)، فلم يكن الحال في الجزيرة العربية كالحال في أم الحضارة الأخرى، حين كان الرقيق الأسود هو الذي يكون للكثير من الملامح هناك.

أما بعد ظهور الإسلام، وكثرة الفتوحات، ومخالفة التعاليم الصريحة للإسلام فيما يتصل بتصفية الرقيق، فإن انتشار الرقيق كان موجه لم يستطيع أحد الوقوف أمامها.

ولقد كان مكونات هذا الرقيق، هذا العدد الوافر الذي كان يجلب من شرق وأوسط أفريقية، كما أن للحكام والقواد كانوا يرسلون الأعداد الغزيرة إلى الجزيرة العربية، ولكن الملاحظ أن التركيز لم يكن تماماً على الرقيق الأسود، ذلك لأن حركة الفتوح لم يكن لها دور بنكر في الشرق الأفريقي، كما أن موجات الفتوح اكتسحت الشمال الأفريقي، ولم تكتسح في الوقت نفسه جنوب الصحراء، فكمبر الإسلام للحاجز الصحراوي وقيام عشر دول باسمه كان بوسائل أخرى غير السيف^(٢).

وقد كان المنحدرون في قلب إفريقية في الغالب مسلمين غير عرب، ويمكن القول بأن ظاهرة اندماج العرب بالسود في السودان قامت على غير العنف، وعلى استبقاء الناس في أراضيهم من غير إرسالهم كهدايا أو كقوى عاملة أو مرفهة إلى العواصم الكبيرة.. ويمكن أن نستدل على هذا من عامل لمروان أهدى إليه غلاماً أسود، فإذا بمروان يقول لكتابه عبد الحميد: لكتب إليه فلانم فعله، فإذا بعبد الحميد يكتب للعامل: لو وجدت لوناً شراً من السود، وعدداً أقل من الواحد لأهديته^(٣).

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ٢١٨.

(٢) راجع في هذا مع حركة الإسلام في إفريقية. د. عبده بدوي.

(٣) الوزراء ولكتاب للجهازى ٨١.

وعلى كل فنحن نرى السود بصفة عامة يتكلمون فى الأعمال المجاهدة والحقيرة كالخدمة، والحجامة، وإجراء الخيل^(١).

ونحن لا ننسى أنه فى عام ١٤٠ هـ نجح الخوارج فى تأسيس دولة مستقلة فى الجهات الجنوبية الغربية من دولة المغرب، وهى دولة بنى مدرار التى كانت عاصمتها سلجماسة، ولقد كان مؤسس هذه الدولة زنجى اسمه (عيسى بن يزيد الأسود) وهذا الأمر يدل دلالة صريحة على أن الخوارج كانوا مخلصين كل الإخلاص بالانتماء فكرهم السياسى والديمقراطى نظرياً وعملياً^(٢) وقد كان أصحابه يتزوجون من السوداوات وقد (ضوى إليهم قوم من أباق العبيد)^(٣) وقد كان منهم الشاعر الأسود (أبو العطاء السندى).

ونحن نعرف قبل ذلك أن السود كانوا يشكلون جزءاً مهماً من جيش أبى مسلم الخرساني^(٤)، كما قيل إن القائد محمد بن صول قتل منهم أربعة آلاف بـسيوف الخرسانية.. كما قيل أيضاً إن جزءاً كبيراً منهم كان فى جيش (طارق بن زياد).

.. ومما قيل كذلك إنه عام ١٤٥ هـ وثب (السودان) بالمدينة على (ابن السريبع) فقتلهم بجنده فهزموه، وقد كان جنده يعيشون فى الأرض فساداً، ولكن السودان قتلوا نفرأ من الجند، فهابهم الجند، وكلوا يقولون: ما هؤلاء السودان إلا سحرة أو شياطين^(٥).

هذا بالإضافة إلى رافد متجدد كان يدفع السود إلى قلب البلاد، كالزط الذين كانوا يقدمون بعد الإسلام من السند.

وليس معنى ما نريد أن نؤكد عليه فيما نؤكد أن عدد السوداوات كان قليلاً فى الجزيرة العربية، ولكن ما نريد أن نؤكد هو أنهم كن أقل من البيضاوات القدامات بوسيلة أو بأخرى من أماكن كثيرة فى العالم.

(١) الحيوان ٣٢٢/٣، ٤٣٥.

(٢) الحركات السرية فى الإسلام ص ٣٦.

(٣) البخلاء ٣٢٢.

(٤) ابن الأثير ٣٠٥/٤.

(٥) الأغاني ١٠٤، ١٥٤، ١٥٥.

ولمّا لم يكن هناك إحصاء للنسب بين البيض والسود، فإنه غاية ما نهتدى إليه هو هذه الأرقام التي تنتثر هنا وهناك، والتي يبدو على بعضها المبالغة على نحو ما قيل مثلاً إن الرقيق الذي أحصى في حوزة عثمان كان يزيد على الألف، وإن الزبير بن العوام كان مما يملك ١٠٠٠ عبد وأمه، وكان عمر بن أبي ربيعة يملك أكثر من سبعين عبداً، وكان أي أمير قوى يملك من العبيد والجواري ما يقرب من ألف، بل لقد كان الجندي العادي في الجيش الشامي عند معركة صفين يملك من عبد إلى عشرة عبيد يقومون على خدمته، وما يقال عن العالم الذي عاش فيه "هارون الرشيد" يفوق الخيال، وقد روى أن قصر المقتدر (٩٠٨-٩٣٢) كان يضم ١١,٠٠٠ يوناني وسوداني، وهناك من يذهب إلى أن الجواري كن أكثر من الحرائر في المنازل العربية^(١).

ومن الملاحظ أنه في أخريات الدولة الفاطمية ظهرت طبقة جديدة هم جماعة السود، ذلك لأن الخلفاء الفاطميين قد استعانوا في أخريات حياتهم بقوات من السودانيين والأحباش، كما قيل إنه كان منهم في أيام صلاح الدين الأيوبي ١٠٠,٠٠٠ مقاتل.

وفي الحديث عن التشيع بعد الفاطميين قال للقاضي الفاضل في إحدى رسائله مصوراً تظاهر المصريين بالتشيع ".. قد وصلنا البلاد وبها أجناد السودان يزيد على مائة ألف كلهم أغنام أعجام.. وخدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل"^(٢) وقد جمع كنز الدولة أمير أسوان عدداً من السودانيين، وحاول أن يعيد بهم الأمر للفاطميين، ولكن الملك العادل شقيق صلاح الدين هزمه، واضطره إلى الهرب برجاله إلى بلاد النوبة^(٣).

وقد عرفت مصر في القرن الثامن عشر طائفة كبيرة تسمى (القلار) كان منهم مصطفى قلزار وأحمد بك قلزار وقد كانوا من الخصيان السود الذين يختصون في الأساس برعاية الجواري في قصور السلاطين.

(١) لفقري ٣٥٢، المسعودي ٢٧٦/٧، تاريخ العرب ٢٩٣/٧، الجواري ٣٦، ٣٧.

(٢) راجع الروضتين: أبو شامة ١٤١/١، ابن الكثير: د. على صفح ١٩.

(٣) الخطط للمقريزي ٣٢٠/١.

..ومن قبل ذلك في عهد الملك الأشرف (برسباي) قيل أنه كان في القرافة الكبرى، والقرافة الصغرى من السودان نحو ثلاثة آلاف إنسان ما بين رجل وامرأة وصغير وكبير ففناوا بالطاعون حتى لم يبق منهم (إلا القليل^(١)) ولقد كانت أم الخليفة المستنصر بالله للفاطمي سودانية^(٢).

.. ونحن لا ننس الدولة (النجاحية) التي قامت في اليمن على يد حبشي يسمى (نجاح) وكانت معاصرة للفترة الأخيرة من الدولة الفاطمية (فالمجتمع اليمني في هذا العصر يتألف من العنصرين العربي والحبشي، وكان الأحباش في نهامة وخاصة في زبيد ونولحيها، وتمثل للدولة النجاحية بزبيد هذا العنصر الحبشي^(٣)) وهي تلك الدولة التي هاجها السلطان الخطاب بقوله :

هل أتاكم فعل العبيد وما جاءوا إليه من الفعال النكير^(٤).

ونحن إذا أردنا التعرف عليهم بعد ذلك في حركة التاريخ، نجد أن كثيراً منهم اندمجوا في المجتمع العربي، ذلك لأن هذا المجتمع كما أكننا مجتمع مفتوح، لا يحاصر السود ولا يعزلهم في أماكن بعينها.

أما عمليات التزاك فيمكن أن توجد في البلاد التي لا زال للقبيلة أثر حاسم فيها، فالمسيح مثلاً والمكتشفون قد لفت نظرهم وجود (بقع سوداء) بعينها في أكثر من مكان في اليمن، مع أن سكان الجبال الذين قل اختلاطهم بالسود ظلوا على حالهم من بياض اللون.

وقد رأى (والين) قبائل من السود في منطقة الجوف، كما أن السود الخلص كانوا في نجد، وفي بقية الجزيرة العربية، ومما قاله (بلغريف) أنه رأى في الرياض أناساً من الخلاصيين يحملون سيوفاً ذات مقابض فضية، في الوقت الذي يخدمهم فيه عرب خلص من أبناء إسماعيل وقحطان.

(١) للنجوم لزاخرة ٣٤٢/١٤.

(٢) مع التعليم البنّي السودان. محمد المبارك عبداش ص ١٦.

(٣) السلطان خطاب : إسماعيل قربان حسين ٢١.

(٤) نفسه ٥٦.

وعجبت (ليدي بلنت) فى رحلتها إلى بلاد نجد عام ١٨٧٨ من أن الناس هناك لا يلتفتون لأمر اللون، وقد ذكرت أن حاكم مدينة (سكاكة) الزنجية زنجى أسود (كرية الملامح كزنوج إفريقية)، ثم قالت: (إن مما لا يصدق للعقل أن يحيط بهذا الحاكم الزنجى الذى لا يزال عبداً، رهط من الندماء البيض الخالصى العروبة، يمتلكون أوامره، ويبتسمون استحياساً لأفأكيهه للتفهة).^(١)

ولا شك أن البيض تلتفت أنظارهم هذه الظاهرة الآن فى البلاد العربية ذلك لأنهم لم يتعودوا على هذا النوع من التسامح فى الأكلون فى البلاد الغربية.

.. المهم أن المسود ظلوا يلعبون دوراً فى الممالك التى كانت تعتمد على العبيد بصفة خاصة، سواء كان هذا الدور دور وتيد أو دور لشقاق، كما كان الحال مع السليمانيين، وبنى زريع، وبنى حاتم الهمدانين، والصليحيين^(٢).

(١) حضارة العرب. ترجمة عادل زعتر ٦٨.

(٢) السلطان الخطاب . إسماعيل قريلان ص٤٢.

سائساً : مكانة السود بين العرب في الجاهلية والإسلام وهل دامت

المساواة التي دعا إليها الإسلام ؟

(أ) نحن نعرف أن العرب في الجاهلية كانوا يعطون اللون اهتماماً خاصاً وأول ما يقابلنا في هذا المجال أن سيف بن ذي يزن حين استنصر كسرى على الأحباش في بلاده ذكر له القرابة، وحين سأل كسرى عن هذه القرابة في اندهاش قال له (أيها الملك الحلبة، وهي الجادة البيضاء)^(١).

كذلك يروى أنه قال له (أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة فجئتك لتتصرنى عليهم، وتخترجهم عنى، ويكون ملك بلادى لك، فأنت أحب إلينا منهم)^(٢) ونحن لا ننسى تلك القصة المثيرة التي تروى تحت باب من ضرب به المثل من الرجال على أفضل التفضيل، فهم يقولون أنوم من عبود، وعبود هذا كان عبداً أسوداً^(٣) وعلى كل فالوجدان العربى القديم قد اعتقد في تلك الأسطورة التي تقول إن نبي الله نوح كان ينام في أحد الأيام، وعند قدميه قد جلس ابناء سام وحام، وحين هبت ريح وكشفت عنه ثوبه حجب سام عينيه حتى لا يرى عورة أبيه، أما حام فقد نظر وضحك، ثم حين استيقظ نوح غضب من حام ودعا عليه قائلاً: سود الله وجهك وجعل لبناك وذريتك عبيداً لأبناء أخيك سام، ومن الغريب أن هذا الأمر انعكس على الميرة الشعبية لسيف بن ذي يزن، فالأسطورة تجعله ينقذ ما قاله نوح في وليده، بمعنى أن سيفاً تسلط على السود في بلاده^(٤)، ونحن سنرى مكانة السود في كثير من الشعر الذي سيجئ بعد ذلك:

(ب) ثم جاء الإسلام بالمساواة بين الناس واعتبر اختلاف الألسنة والألوان من آياته^(٥)، وقد قيل إن سبب نزول قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ

(١) تاريخ مروج الذهب ٢٨٢/١.

(٢) الطبرى ١١٦/٢.

(٣) نهاية الأرب ١١٩/٢.

(٤) فن كتابة الميرة للشعبية ٢٦٤.

(٥) سورة الروم : ٢٢.

عَلِيمٌ خَيْرٌ^(١)، أن جماعة سمعوا بلالا للحبشي يؤذن فقال عتاب بن أسيد: الحمد لله الذي قبض ألبى حتى لم ير هذا لليوم، وقال: "الحارث بن هشام": أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً، وقال سهيل بن عمرو إن يرد شيئاً غيره، وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء، وقد سبق أن هجاه سعد بن طريف فقال:

وذاك أسودٌ نوبى له ذفر كأنه جعل يمشى بقرواح

وقد كان فيما قاله بديل بن ورقاء للنبي عليه الصلاة والسلام جنتنا بعجرتك وسودناك^(٢)، وقد هجا حسان هذا^(٣).

وإذا كان الله يقول: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٤) فلين أمر هذه للخيرية لا يرجع إلى أسباب عصرية، أو لولية، وإنما مردها إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله.. وهذه الخصائص لا تستعصى على أحد، لأنها في إمكان للناس جميعاً.. دون تفريق:

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: "ليها للناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لأدم وأدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى" وما هو عمر بن الخطاب يقول عن بلال: إنه سيدنا، وفي هذا يقول ابن حزم في كتابه المحلى: وأهل الإسلام كلهم إخوة لا يحرم على ابن زنجية لغية^(٥) زكاح ابنة الخليفة الهامشي، ثم قال بعد أن أورد عدداً من آراء

(١) ٤٩ الحجرات آية ١٣.. أى من آدم وحواء فأنتم فى ذلك سواء فلا محل للتفاخر بالأصناف، وقد كابوا يتفاخرون بها ويزدرون بالضعفاء والفقراء (صفوة البيان لمعالي القرآن).

(٢) انظر داعي السماء ١٤٦، مجلة الرسالة العدد ١١٠٣، الحيوان ٤٢/٣، ٥٠٧.

(٣) غلبت على شبه اللغلام وقد بأن السواد لحالك بعد ولقد كان عتبة بن أبى سفيان شديد الأثرة، وكانت جماعة جنة لأبى سفيان من قبل لم السوداء رسالة دكتوراه للدكتور حسن حنفي ص ٢٧٥.

(٤) سورة آل عمران آية ١١٠.

(٥) لغية: مهملة.

للفقهاء: إن الحجة في ذلك هي قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وقد تعرض لشيء من هذا في افتتاحية كتاب جمهرة أنساب العرب^(١).

فيذا وقفنا عند ما يعرفه الفقهاء بالكفاءة، رأينا الإمام مالك يقول: للكفاءة في الدين لا غير، كما استند كثير من الفقهاء إلى ما رواه الترمذي من قول النبي عليه الصلاة والسلام: "إذا ألتكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تغلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، وقد روى عن الإمام الشافعي في هذا قوله، لم يثبت في اعتبار الكفاءة بالنسب حديث، ويمكن تأكيد هذا بما ذكره للشوكاني في الجزء السادس من نيل الأوطار.

ومن المفيد في هذا المجال الإشارة إلى القول بأن الحكم في مسألة واحدة قد يختلف باختلاف الزمان والمكان والعادة ومصالح الناس، كالذي روى عن أبي حنيفة من أن من غصب ثوباً صبيغة باللون الأسود فقد قتل قيمته، والذي روى عن أبي يوسف في هذه المسألة: أن الصبيغ بالسواد يزيد قيمته، فما وراء ذلك أن أبا حنيفة أفتى في زمان لم يتخذ فيه العباسيون للسواد شعاراً لهم، أما أبو يوسف فقد أفتى حين اتخذوا السواد شعاراً^(٢).

وما يهمنا أن نذكره هنا أن حقوق الإنسان إذا كانت ما زالت تتعثر إلى الآن، فلإنها أعلنت في الإسلام منذ أربعة عشر قرناً.

وإذا أردنا أن نتعرف على نظرة القرآن للسواد، وجدنا أن مادة (سود) قد ورد ثلاث منها بمعنى للسيادة^(٣).

(١) ص ١.

(٢) الهوامل والقنوليل لأبي حبان ومكسويه المقدمة (ك) والمسألة رقم ١٥٣.
(٣) ﴿فَأَذَلَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُنْشِئُكَ بَعْثِيَ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (سورة آل عمران الآية ٣٩) والآية الثانية ﴿وَأَسْتَفِيقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة يوسف الآية : ٢٥) والآية الثالثة : ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ سَادَتًا وَكِبْرَاءَنَا فَأَقْلَلْنَا السَّبِيلَا﴾ (سورة الأحزاب الآية ٦٧).

وقد ورد خمس في وصف اللون باعتباره حالة طارئة على الوجه لا صفة لازمة^(١)، كما جاء مرتين وصف للجبال، وللخيط^(٢).

وهكذا نرى أن هذه المادة لا تعطى للون الأسود ميزة أو نقيصة فهو لون كباقي الألوان.

وقد مر بنا حديث الحبشى الذى قال للرسول عليه الصلاة والسلام، أرأيت إن قتلته بين يديك حتى أقتل، أيدخلنى ربي الجنة، لا يحتقرنى، فلما قال له النبى: نعم عاد يقول : ولنا مننن الريح أسود اللون.

وفى ظلال هذه التعاليم الجديدة، ومن خلال هذه النظرة رأينا نماذج شامخة، وقادرة على للعطاء، والإسهام فى حركة المجتمع (فقد ظهر نموذج العبد الذى علمه الدين التوقيم أن العبودية ليست قضاء مبرما على من ابتلى بها، وأن الفارق بين العبد والسيد ليس بالفارق الخالد الذى لا يغير ولا يستترك، وأن المروءة تسوى بين السيد القرشى والعبد الحبشى، فمن تطلع من العبيد إلى منزلة السادة فليقدم إليها فهي فى متناول يديه.. وقد سرت هذه النخوة إلى ضمامن الكثيرين من العبيد بعد ظهور الإسلام^(٣).

ولقد عد من كبارهم سعيد بن جبير، وقد قيل عنه أنه أروع الخلق وأنقاهم، وكان أعظم أصحاب ابن عباس، وأصحاب الحديث يطعمون فى الذى يحيى من قبل أصحاب ابن عباس حتى يحيى من سعيد بن جبير، وقد قتله للحجاج والناس يقولون:

(١) الأولى والثانية في قوله تعالى : (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَانظُرُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) (سورة آل عمران الآية : ١٠٦). والآية الثانية: (يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) (سورة الزمر الآية: ٦٠) والآية الرابعة: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) (سورة النحل الآية : ٥٨). والآية الخامسة: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) (سورة الزخرف الآية ١٧).

(٢) الآية الأولى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلَفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلَفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ) (سورة فاطر الآية ٢٧). والآية الثانية: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْغَيْظُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْغَيْظِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) (البقرة الآية : ١٨٧).

(٣) بين الكتب والناس . جلس محمود العقاد ١١٥.

كلنا محتاج إليه، وكان منهم حبيش بن دلف للذي كان ينازع ضرار بن عمرو
الرئاسة^(١).

ومنهم مكحول الفقيه، بفرح الحجام للذي كان من أهل العدالة والمقدمين في
الشهادة.

ومن شجعانهم مهجع، ووحشى، والغداف، وكعبويه، وأفلح، وكان من
علمائهم في مكة عطاء بن رباح، ومن علمائهم في مصر يزيد ابن حبيب مفتي
مصر، والذي أخذ عنه الليث بن سعد^(٢) ومنهم مترجمون كزيد بن ثابت الأنصاري
والذي كان يترجم للنبي بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية^(٣)، وقيل إن منهم
(جلبيب) زوجه الرسول من أنصارية^(٤)، والتي حين أبنت أمها أن تزوجها منه نزل
قول الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ
الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^(٥).

ثم بعد هذا رأيناهم إلى حد ما بعيداً عن المناصب للرئاسة، وبعيداً عن مهنة
كان لهم دور من قبل فيها وهي مهنة القتال، فقد عادوا إلى المهن التي أصبح
العرب يترفعون عنها، ووقفوا وقفة خاصة عند الغناء الذي أصبح ملحقاً حضارياً
من ملاحح الحضارة في هذه الفترة المتقدمة، وكان أن نبغ منهم عدد كبير في
مقدمتهم ابن مسجح، وزرياب.

ذلك أن الأمويين اعتمدوا على العنصر العربي ولحقوا بالحضارة الرومانية
في الشام، أما العباسيون فقد ركزوا على الفرس، ثم إن العرب لم يشاءوا رفع
السيف على الحيشة تقديراً لصنيعها السابق مع المسلمين، وحذراً من إثارة ما بينها
وبين جنوب الجزيرة من ثارات، وتقدياً لما يكون من إشرافها على اليمن كما
يشرف السيف المملط، ثم إن السودان إذا استثنينا المناوشات مع النوبة وإقرار

(١) جمهرة لغات العرب ب ط ٣ ص ٢٠٥.

(٢) رسائل الجاحظ ١٧٩ وما بعدها، فجر الإسلام ١٥٣، ١٥٤.

(٣) للتبني والأشراف ٢٤٦.

(٤) رسائل الجاحظ ١٨٠.

(٥) الأحزاب ٣٦. نزلت في زينب بنت جحش الأسدية. صفوة البيان للمعاني القرآن.

المعاهدات، رثى أن يغزى من الدخول بالتجارة، والدعاة والهجرات.^(١) بالإضافة إلى أن طبيعة المناطق في الحبشة والسودان لم تكن في سهولة المناطق التي تم اجتياحها ببساطة.

ومن كل هذا نصل إلى أن المسلمين لم يحتكوا بإفريقية وحضارتها احتكاكاً هاماً، ولها ظلت إلى حد ما بعيدة عن الاهتمامات العربية الإسلامية وبخاصة في الفترات المبكرة.. ولهذا قل دور الرجل الأسود والاهتمام به في بعض الفترات، وإن كان إهماله قد أدى إلى بعض الانفجارات على نحو ما سيأتى من ثورة الزنج، صحيح أن بعضاً كبن سيرين كان يرى أنه كلمة يا أسود كالفية ولكن مثل هذا حادث فردي لا يعتد به^(٢).

(ج) إذا كانت الأمم في الشرق من قديم قد أمنت بالسود والبياض وربطت بينهما وبين ظواهر الطبيعة وطبيعة الحياة، فإن العرب قد سمت الشخص بالسود^(٣) وسمت جماعة للنخل والشجر السود أيضاً لخضرتها، وجريا على عاداتها في عدم التمييز التام بين الأسود والأخضر، كما أنه أى السود يطلق على كثرة من الناس لأن الإنسان حين يرى شخصاً أو مجموعة من الناس من بعيد.. فكأنه يرى طيفاً أسود^(٤).

وهم قد يشتقون من مادة هذا الفعل عدة أسماء لهم مثل: سودة اليربوعي، سويد بن مشنوء، والأسود بن يعفر بن عبد الأسود، سواد ابن قارب، سودة بن عمارة.

(١) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول - شكوى فيصل ١٢٩، ١٣٠.

(٢) حله الأرياء للحافظ الأصبهاني ٢/٢٦٨.

(٣) قال الأسود :

إن المنية والحقوب كلاهما يوفى المخارم يرقبان سوادى
.. وجمعه أسودة وأسود- .. سمط الأكي ١/٣٦٨ ، وقيل:
ينشون حتى ما تعر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
الأغاني ٢/١٩٦.

(٤) جاء في الحديث "إذا رأيت الاختلاف فعليكم بالسود الأعظم".

والأسود : نوع من الأفاعى شديد السواد، وقد استعاذ النبي عليه السلام منه، وقد أطلق اسم الأسودين على الأسود بن عبدالمطلب بن أسد، والأسود بن يغوث الزهري، وكلنا من أعز قريش في الجاهلية (وكلنا يطوفان بالبيت متقلدين بسيفين) وقال رجل من قريش يرثيها :

إذا ما كان أمر فيه لبسٌ جلا الطخياء عنا الأسودان^(١)

وقد يلقبون بالزنجى بن خالد وكان أبيض مشرباً حمرة وهذا كما يقال للأبيض أبو الجرن، ولحبشى أو البيضاء^(٢)، وكما يقال للزنجى أيضاً أبو البيضاء من باب التلمح^(٣).

ويلاحظ أن لهذا اللون عدة مستويات، فهم يقولون الأسمر، والأصحم، والآدم، والأسحم، والألثم، والأربد والجون قالوا: وكان ولد عبدالمطلب العشرة السادة ولما (الدم جمع ألثم هو الشديد للسواد)، ضخماً، نظر إليهم عامر بن الطفيل يطفون كأنهم جمال جن، فقال بهؤلاء، تمنع السدانة. وقيل كان عبدالله بن عباس: ألثم ضخماً، وجاء في نهاية الأرب: ومن ألوان الخيل الدهم وهي سة. ثم عددها^(٤).

وقد عقب الجاحظ^(٥) على القول بأن العرب تفخر بسواد اللون، بأنها حين تقول، فلان هجان، وأزهر، وأبيض، وأغر، فإنها لا تريد بهذا أبيضاض الجلد، وإنما تريد به كرم الجوهر ونقاوته، وقد فخرت (خضر محارب) بأنها سود^(٦).

وفي الحديث الذى روى عن النبي (أسودهم وأحمرهم سواء) إن الأسود هو العربى، والأحمر هو غيرهم، كما أن من أقوالهم ما يخفى ذلك على الأسود والأحمر، يريون العربى والعجمى^(٧).

(١) الحيوان ١٦٢/٤، ١٦٣، المحنبر ١٧٤.

(٢) المعارف لابن قتيبة ٥٩٦.

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية ج ١٧ ص ٦٤.

(٤) ٦/١٠.

(٥) جاء في معجم الأدباء ٨٤/١٦ أن جده الجاحظ كان أسود وقد كان الجاحظ يقول إذا طلب أحد رؤيته: وما تصنع بشق مائل، ولعاب سائل، ولون حائل.

(٦) رسائل الجاحظ ٢٠٧-٢٠٩ شعراء لنصرانية ١٦/١، الأغاني ١١/١٣٣.

(٧) التكمال للمبرد ٢٧٤/١.

.. وقد كان مفهوم اللون الأسود عندهم هو الأخذ بالثأر حين يحتمون به^(١) ثم أصبح في عهد العباسيين شعاراً للثأر، وقد جاء في فقه اللغة، وسر العربية للتحليبي^(٢) تحت (فصل في ترتيب السواد على الترتيب والقياس والتقريب) ما يأتي: أسود وأسحم، ثم جون وفاحم، ثم حلاك وحلاك ثم جلوك وسحكوك، ثم خدارى ودجوجى، ثم غريب وغانقى.

كما جاء تحت (فصل في ترتيب سواد الإنسان) ما يأتى :- إذا علاه أننى سواد فهو أسمر، فإن زاد سواده مع صفرة تعلوه فهو أصحم، فإن زاد سواده على السمرة فهو آدم، فإن زاد على ذلك فهو أسحم، فإن اشتد سواده فهو لنم.

وعلى كل فنحن نراهم قد وقفوا وقفة طويلة عنده، وابتعدوا بالنظرة الحديثة إلى هذا اللون والذي نقول إن اللون الأسود من الألوان التي لها "وزن" فالستائر ذات اللون الأسود أثقل في البصر من الستائر للزرقاء والبيضاء، كما أنه ليس من الألوان المريحة مثل اللون الأزرق، وعلى كل فقد قالوا، السواد أبداً أهول، وإن العرب لتصف الإبل فتقول للصهب سرع والحمر غزر، والسود بُهى.

وقالوا: ودسم للخيل أبهى ولقوى، واليقر السواد أحسن وأبهى، وجلودها أنمن وأنفع وأبقى، والحمر السواد أنمن وأحسن ولقوى وسود الشاه أنعم للبانأ وأكثر زيدا.

وقيل: كل شيء من الحيوان إذا أسود شعره أو جلده أو صوفه كان أقوى لبذنه، ولم تكن معرفته بالمحمودة.

وقيل: كل جبل لوكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة وأشد يبوسة، والأسد الأسود لا يقوم له شيء.

وقيل: ليس من الثمر شيء أحلى حلاوة من الأسود، ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر.. والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجزوع.

(١) الأغاني ١٠٤/٩.

(٢) ص ١٣٠ (وقد جاء في كتب اللغة عند ذكر كلمة "مخضرم" أنها تطلق على الأسود إذا كان أبوه أبيض)

وقالوا : وليس لون أرسخ في جوهره، وأثبت في حسنة من سواد^(١).

.. كما يقال للعنب الأسود إذا لآن وهم أن يطيب قد أوشم ولا يقال للعنب الأبيض "أوشم" لأن يحدث لوناً سوى لونه^(٢).

وقد جعلوا بعض الفصول في كتبهم تحت عنوان "الخصاب".

وقد أورد الجاحظ شعراً في مدح السواد، وشعراً فيه مدح بلون الغراب^(٣).

ونحن لا ننسى هنا تلك الوقفة التي وقفها الأمدى حين تعرض لببت البحترى.

واخضر موشى البرود وقد بدا منهن ديباج الخدود المذهب

فقد قال :.. ذكر الخضرة لأنه لم يجد لوناً غيرها، ذلك لأن البياض ليس مما توصف به ثياب النساء، والسواد ثياب الحزن والمصائب، وقد جعل حدودهن ديباجاً مذهباً، والذهب يشتمل على لون الحمرة والصفرة والتوريد هو من ألوان الخد، والكحلى لا يلفظ به، والعرب لا تذكره في الألوان، وكذلك الأزرق لاستعمله إلا في صفة الماء والصبح، ويقولون عو أزرق أى حديد النظر، وسنان أزرق أى حديده، ولم يبق من الألوان ما يخالف لون الخدود المذهبة كما قال إلا الخضرة^(٤).

وفي الوقت نفسه لا ننسى القول بأن تأثير الألوان ليس مجرد تأثير حسي بل هو تأثير عاطفي أيضاً.

وإذا كان قد ورد اسم (حبشت) في النقوش اليمينية القديمة، فإنهم قالوا أيضاً الحبش، والحبشان، والحبوش، والأباش كما كانوا يطلقون كلمة السود أو السودان على ما يشمل الأباش أيضاً^(٥).

(١) رسائل الجاحظ ٢٠٣-٢٠٦، الحيوان ٧٩/٢.

(٢) لسان العرب (وشم).

(٣) العقد الفريد ١٨٥/٣ ط مكتبة صابر، الحيوان ٤٢٦/٣/٤٢٩.

(٤) الموازنة ٩٦/٢، ٩٧.

(٥) بين العرب والحبة ١٢، زريقات ١٢.

وقد تطلق كلمة (الأسود) على أهل النوبة^(١)، فقد قالوا: ليس بيننا وبين الأسود عهد ولا ميثاق، إنما هدنة بيننا وبينهم، وكان هذا تعليقاً على المعاهدة مع النوبة بعد أن فتح المسلمون مصر.

ومن أقوالهم في هذا أنه لا يقال للزنج والحبشة والنوبة بيض ولا حمر وليس لهم اسم إلا السود^(٢).

وقد وردت كلمة (السودان) بمعنى اللون كما في حديث ابن خلدون في المقدمة عن (السودان والبيضان)، وكما في إحدى رسائل الجاحظ المسماة (تفصيل السودان على البيضان، وباسم السودان سميت قرية باصبيهان في إيران، كما أن مصر موضع يسمى (منية المودان)^(٣).

وقد جرى حوار من فترة بين للصحف السودانية وجريدة الجمهورية المصرية^(٤)، نعقب ما أثاره السيد خليفة المنتصر من أن لفظ السودان مشتق من السيادة لا من السود، مستشهداً على ما يقول بقول حارث بن خالد المخزومي.

فصنحتهم قريشاً بالفرار.. وأنتم فمذون سودان عظام المناكب

وقد انتهى الحوار إلى أن كلمة السودان لم تسمع في فصحح العربية بهذا الجمع إلا جمعاً لأسود من اللون، ويحضرنا هنا ما جاء في مقدمة ابن خلدون (الحبشة والزنج والسودان أسماء مترادفة على الأمم المتغيرة بالسود)^(٥)، وقال الألويسي عنهم في بلوغ الأرب: إنهم من أتم الناس عقولاً وأعلاماً والسنة والهامة^(٦)، كما أن ابن رشيقي كان يرى أنهم أفضل الأمم، كما يحضرنا أن الأخطل

(١) فتوح البلدان ٣٣٦.

(٢) رسائل الجاحظ ٢١٠.

(٣) الجغرافيون مثل البلازري في فتوح البلدان سموا جنوب مصر بلاد النوبة، وما بعده سمي بر السودان وبلاد السودان: والتقليد في صبح الأعشى ينكر أن المملكة العادسة من ممالك السودان مملكة الحبشة، وقد كان جرير ينكر أثر الحدادة في أبار الفريزق ويركز على ما تحدثه من مواد.

لما رأى صيدا للحديد يجلوه فقللون لورق والبنان قصار

(٤) عدد الإثنين ٢٠ مايو ١٩٦٨.

(٥) المقدمة بتحقيق د. علي عبدالوحد والي ٤٩٠/١.

(٦) ١٤٤/١.

يشبه الزقاق إذا امتلأت برجال من السودن لم يتسربلوا^(١)، وهناك من وصف عصا أرسلت إلى شجرة بقوله مجيزاً للشطر الأول.

كانها فوق العصا هامة زنجى عصي^(٢)

وقد وقف الشعراء وقفة طويلة عند الأنثى السوداء، فلنتأمل الدوافع وراء هذا فالفرزدق يقول^(٣).

يا رب خود من بنات الزنج تحملن نورا شديد الوهج
أقرب مثل القدح للخلنج يزداد طيباً عند طول الهرج
"....."

وأبو الفتح بن قلاص يقول :

رب سوداء وهى بيضاء معنى فهى مسك إن شئت أو كافور
مثل حب العيون تحسبه لنا من سوداء.. وإنما هو نورا

ويقول الحافظ أبو الحسن بن المفضل القمى :

وسوداء قد أحللتها من حشائتى محل سودى ناظرى وجنانى
إذا رمت عنها سلوة قلانى الهوى إليها .. ومالى بالسلويدان
وما هى إلا المسك لوناً وقيمة ونشرا وزادت عنه بالامعان
وأحببتها حب الشباب لأننى رأيتهما فى العين يشتهيان

ويقول أبو الحسن بن أبى الفتح البكرى :

يا من فزادى فيها مستيماً لا يزال
إن كان لليل بدر فأت للصباح خال

(١) الأغنى ٦٣/١١.

(٢) قال الممتد بن عبد الشطر الأول فى نزهة له: وكان للمجيز ابن جامع الصباغ.

(٣) الأغنى ٣٧٠/٢٣.

وقال بهاء الدين أبو الحسن على بن محمد بن رستم الساعاتي :

زعموا أننى بجهل تعشقت سوداء دون بيض الفسوانى
ليس معنى الجمال فيك بخافٍ إنما أنت خال خد الزمان

وقال إبراهيم بن سبابة وقد عشق سوداء، فلامه أهلها عليها:

يكون الخال في وجه قبيح فيكسوه الملاحاة والجمالا
فكيف يلام في عشق على من يراها كلها في العين خالا

وقال الشيخ برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعفي للمقرئ شارح الشاطبية:

لما أعان الله جلّ بلفظه لم تسبني بجمالها البيضاء
ووقعت في شرك الردى متحيلة وتحكمت في مهجتي السوداء

وقال العسكري :

صرفت ودى إلى السودان من حجرٍ ولا التفت إلى روم ولا خزر!
أصبحت أعشق من وجه ومن بدن ما يعشق الناس من عين ومن شعر
فإن حسبت سودا الخد منقصة فلانظر إلى سعة في وجة القمر

وقال يعقوب بن رافع (١) :

أحب للنساء السود من أجل نكتم ومن أجلها أحببت من كان أسودا
فجئني بمثل للممك أطيب نكهة وجئني بمثل الليل أطيب مرقدًا

وقال الشريف الرضي :

أحبك يا لون للشباب فإني رأيتكما في العين والقلب ثؤاما
سواد يود البدر لو كان رقعة بجبهته. أو شق في وجهه فَمَا
سكنت مواد القلب إذ كنت مثله فلم أدر من عز من القلب منكما

(١) قيل للعباس بن الأتخف.

وما كان سهم العين لولا سواده
إذا عشق الظبي اللمى فلا تلم
ولي أبيات أخرى مماثلة^(١).

وقال بشار :

يكون الخال في خد ملبح
ويونقه لأعين مبصريه
فيكسوه الملاحاة والجمالا
فكيف إذا رأيت اللون خالا

ومثل هذه النغمة نجدها عند عبدالمحسن الصوري^(٢).

.. وهناك شعر كثير جداً في كتاب (نزهة العمر) الذي مر بنا ذكره، وإن كان الملاحظ بصفة عامة على الشعر الذي من هذا النوع أنه يدور حول التسويغ لسلون الأسود، والاعتذار له أو عنه، كما أنه يعتمد على المقابلة بينه وبين الأبيض، وفي الوقت نفسه يعتمد على الصور الحسية المباشرة، وعلى الأبيات القليلة باستثناء قصيدة ابن الرومي التي مر ذكرها آنفاً.. فهم يلتمسون العذر له بالحجر الأسود، وبالخال، وبجبات للقلوب والعيون وهم يفتقون وقفة طويلة عند العيون الدعج (أي للواسعة الشديدة السواد القائمة للهدب، والصفافية الحدة والتي تبدو وكأن فيها أثر السعاس، وبقيّة من حلم.. ومهما يكن من شيء فكثيراً ما يكون هذا الالتماس متعسفاً، وبعيداً عن نضارة الشعر.

(د) وهناك إلى جانب عشق للسواد والإعجاب به يوجد جانب آخر ممثلاً في الحياة العصرية لم يتعاطف مع هذا اللون على نحو ما سئرى. فقد كانت مذاهب العرب مختلفة في "وَأد البنات" فمنهم من كان يند البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحقوق العار من وراثتهن، ومنهم من كان يند من البنات من كانت زرقاء أو شيماء (سوداء) أو برشاء (برصاء) أو كسحاء (عرجاء) تشاوماً منهن بهذه الصفات^(٣) بالإضافة إلى الضيق بالفقر الواقع أو الفقر المتوقع، ولنتأمل قول المغيرة بن زرار

(١) ديوان ٥٦٤/١.

(٢) خاص الخاص للتملبي ٢٠٤ ط بيروت.

(٣) انظر بلوغ الأرب في أحوال العرب للأكوسي، ماذا خسر العالم بتاحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي ٦٠.

وهو يحاج يزجرد^(١) "وإن كان أحنأ ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامنا" ومن المعروف أن للسود عند الصوفية له صلة بالنامة الروحية، وقد يشبهون أحياناً المرأة السوداء بالضحك^(٢).

وقد كانت كلمة الغراب وكلمة الأسود تتطلق كالشرر في حالات التوتر، على نحو ما مر بنا من أمر "بلال" وعلى نحو ما عرف من أن عمار بن ياسر حين حمل صحيفة منتمرة إلى عثمان، قال وزيره مروان بن الحكم: إن هذا العبد الأسود قد جراً عليك الناس، وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه، وهناك مغربة صاحبة عبدالرحمن بن ملجم من أبيات لكثير، فقد قالت له: إنها لا تليق إلا بزنجية، كما أن هناك مغربة للنوار من الفرزدق فقد قالت له: أنتزوج أعرابية نصرانية سوداء مهزولة خمشاء^(٣).

وقد قيل: إنه جاء أسود وسوداء إلى أبي مهدي فقالا له: قد أردنا التزوج فإخطب لنا، فقال: إن الله أجل من أن يذكر بينكما، فاذها فاصطكا لعنكما الله^(٤)، وقريب من هذا قول الشاعر محمد وهيب: جلست بالبصرة إلى عطار، فإذا أعرابية سوداء قد جاءت فاشترت من العطار خلوقاً، فقلت: نجدها اشتريته لابنتها، وما ابنتها إلا خنفساء، فالتفت إلى متضاحكة، ثم قالت:

ولا والله، ولكن مهاة جيداء، إذا قامت ففناة، وإذا قعدت فحصاة، وإذا مضت فقطاة، أسلفها كتيب، وأعلاها قضيب لا كفتياتكم

للواتي تسمنوهن بالفتوت

ثم انصرفت وهي تقول:

إن الفتوت للفتاة مضرطة يكربها في السبطان حتى تنطط^(٥)

(١) الطبري ٣/٥٠ ط دار المعارف.

(٢) لرسالة القشيرية ٧٢٨/٢.

(٣) المحاسن والأضداد للجاحظ ١٣٩ (الخانجي): عقيرة الإمام علي للعقاد ٧١، الأغاني ٣١٤/٢٣.

(٤) أخبار البحري للصولي. تحقيق صالح الإشرط ٢ ص ١٤٥.

(٥) الأغاني ٨٣/١٩: فت الشيء: نقة وكسره فهو مفتوت.

وهناك شعر كثير في إيمانهم للشراب قاله أسود بن أبى كريمة:

وقد قال أبو عبيدة : سألت بعض بنى كليب فقلت :

ما أئد ما هجيتم به؟

قال : قول البعيث

ألسنت كليبيا إذا سيم خطئة أقر كإقرار الحليلة للبعث
.. سواسية سود الوجوه كأنهم ظرابي غريان بمجرودة محل^(١)

وقد اهتم للكتاب بهذا النوع من الغضب الذى كان يحدث بسبب اللون: ومن هذا أن شدادا الحارثي - وكان خطيباً عالماً - قال لأمة سوداء بالبادية: لمن أنت يا سوداء.

قالت : لسيد الحضر يا أصلح.

قلت : أو لست سوداء؟

قالت : أو لست أصلح؟

قلت : ما أغضبك من الحق؟

قالت : الحق أغضبك، لا تشتم حتى ترهب، ولأن تتركه أمثل^(٢).

وقيل كانت دنانير بنت كعبوية للزنجى عند أعشى سليم، وكانت شديدة السواد، فرأها يوماً وقد خضبت يديها بالحناء، واكتحلت بالأئد، فقال:

تخضب كفا بُتكت من زندها فتخضب الحناء من مسودها
كأنها والكحل فى مرودها تكحل عينها ببعض جلدها

فلما سمعت ذلك قالت :

وأفبح من لوني سواد عجانة على بشر كالقلب أو هو أنصع^(١)

(١) البيان والتبيين ١/١٤٢، للشعر والشعراء ابن تقيية ٤٧٢.

(٢) رسائل الجاحظ ١٩٧.

قسموه أسود، وصاح به الصبيان فطلقها، وقيل إنه قال لها صبيحة عرسها:
إن الدنانير تكون سوداء، فما كان منها إلا أن قالت:

بياض للرأس أفتح من سوادى وشيب للحاجبين هو للفضوح

فامسك عنها حيناً، ثم عاودها، فلما فضحتَه طلقها^(١) وقد ستل ثوبان للراهب
عن لبس النصراني للسود، فقال: هو أشبه بلباس أهل المصائب فلما قيل له: كلكم
معشر الراهبان قد أصيب بمصيبة قال:

يرحمك الله، وأى مصيبة أعظم من مصائب الذنوب على أهلها^(٢) وقد قالت
امرأة لنيشار: أى رجل أنت لو كنت أسود للحية والرأس، فقال: أما علمت أن بيض
البزاة لثمن من سود الغربان فقالت: أما قولك فحسن فى السمع، ومن لك بأن
يحسن شيبك فى العين كما حسن قولك فى السمع^(٣).

أما مفهوم هذا اللون عند الشعوبيين فاعتقد أنه كان يقصد به للزراية، على
نحو ما نعرف من أن الإيرانيين المجوس كانوا يسمون الإسلام فى العصر العباسي
الدين الأسود، وإذا كان الدكتور عبدالعزيز للدوى يرى أن المر وراء هذا هو أن
شعار العباسيين كان السوداء^(٤) فكيف تفسر تلك الرسالة التى من أخى الأتشين إلى
أخى المازيار والنتى جاء فيها "إنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض (يقصد
المجوسية) غرى وغيرك وغير بابك (الخرمى)^(٥) ولقد دخل السود فى باب
المزایدات السياسية "حين أصبح شعار العباسيين على نحو ما عرف من تلك
الحواريات التى دارت بين الرشيد، وبين للقاضى أبى يوسف، والأوزاعى^(٦).

(١) البشر: جمع بشرة وهو ظاهر الجلد، وللقب: جمل النخلة.

(٢) رسائل الجاحظ، ٢١٤.

(٣) عيون الأخبار ٢٩٧/٢.

(٤) الأغاني ٢٠١/٣.

(٥) الجذور التاريخية للشعبية ٧٦.

(٦) الطبرى ٣٦٧/١٠.

(٧) نهاية الأرب ١١/٤.

وعلى كل فهم يقولون: هو أسود الكبد وهم سود الأكباد، يعنون الأعداء،
ويقال: سوداء قلبه وجهه قلبه، وسواه قلبه، وسواده قلبه وجلجلان قلبه، وأسود
قلبه، وسوداء قلبه بمعنى^(١).

ويقولون "سوداء العروس":

ويقصدون بها جارية سوداء تبرز أمام العروس الحسنة، وتوقف بإزائها
وتفتنى لثراها، لتكون أظهر لمحاسنها.

فأحسن مرأى للكواكب أن ترى طوالح في داج من الليل غيب
والشئ يظهر حسنه الضد.

ولتكون كالعودة لجمالها، وإياها عنى أبو إسحق الصابي بقوله في غلام
حسن الوجه بيده لبيذ أسود.

بنفسى مقبل يهدى فتونا إلى الشرب الكرام بحسن قده
وفى يده من التمرى كامن كسوداء العروس أمام خده^(٢)

ويقولون كذلك "عبد العين" ويقصدون الذى يخدمك ما دامت عينك تراه، قال
الشاعر:

ومولى كعبد العين، أما لقاءه فيرضى، أما غيبة فظنون
قال للجاحظ، ويقال للمرائى^(٣).

وهناك من الشعراء من سخر من اللون الأسود مثل كعب الأشقرى،
وكعبان بن ثابت حين هجا هنداً بقوله:

غلبت على شبه الغلام وقد بان المسود لحالك جعد

(١) جمهرة الأمثال للمسكوى ٢٠٩، مجلس ثعلب ١٣.

(٢) ثمار القلوب ٣١٩، ٣٢٠.

(٣) نفسه ٣٢٩.

وقد كان يعنى بهذا عتبة بن لبي سفيان فقد كان شديد الأئمة^(١)، وكانت حمامة جدة لأبي سفيان من قبل أمة سوداء، وقد اهتم جرير بذكر الآثار السوداء التى تحدثها للحدادة فى آباء الفرزدق^(٢)، كما نرى هذا فى مثل قول الشاعر المصرى ابن قلدوس :

أهون بلون السوداء لوننا ما فيه من حجة لئاسب
لست ترى حمرة لخذ فيه .. ولا خضرة لشارب^(٣)

وهناك من مدح السوداوات ثم عاد فهجاهن كلبى حيان^(٤) وهناك من كان حذراً فلم يفضل سوداً على بياض أو بياضاً على سواد.

فاليهاء زهير يقول :

اسمع مقالمة حقي وكن بحقك عوئى
إن المـليح مـليح يُحبُّ فى كل لون

ويقول الصاحب جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح:

وإذا أنصفت والأنصاف بالعقل أليق
فبديع الحسن يهوى كيفما كان.. ويُعشق

ويقول شرف الدين صالح بن جعفر بن معلوية :

أنا ذاك فاسأل إننى مذ لم أزل بالبييض والسممر الحصان معذباً
كلأفأ بهن مولعاً لا أبتغى عن مذهبك للنسك يوماً مذهباً^(٥)

(١) الأغاني ٣٨٩/١٤، رسالة دكتوراه مخطوطة للدكتور سيد حنفى حسين ٢٧٥.

(٢) اللقائض ٨٥٢.

(٣) فريدة القصر ٣٣/١.

(٤) فن التشبيه ٢٣٥/١ : ٢٣٦ : ديوان أبى حيان الأندلسى تحقيق د. أحمد مطلوب د. خديجة

الحديثى ٦٤ وما بعدها.

(٥) نزعة لعمري ص ٦١

والملاحظ هنا أن الشعراء اهتموا بالمرأة ، أكثر من اهتمامهم بالمشكلة ، وإن هذا الاهتمام كان لا يتعدى المفارقات اللفظية ، وكان يدور في الغالب حول الأثني "العشيقية" فإذا بدعوا عن المرأة كان كلامهم لا يخرج عن كونه نوعاً من النكت اللفظية ، كقول الإمام زين الدين عمر بن الوردى :

لو كان يرضى بحكمى فى الحصن مسودٌ وبيض
لقلتُ للمسود مسودوا وقلتُ للبيض بيضوا^(١)

من كل هذا نرى تعاطفا على اللون الأسود وما يمثله هذا اللون^(٢) وإن كان هذا لم يمنع من وجود نبرة ضد السواد ولكنها ليست زاعقة ، ومن هذا أن ابن المرزبان حين ألف كتاب "السودان وفضلهم على البيضان" كان هناك من سخر منه مثل جلال الدين أبى الفضل عبدالرحمن السيوطى ، فإنه فى كتابه زهرة العمر يقول : "ولا أستكثر هذا عليه ، فإنه ألف كتاب تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب ، فإذا فضل الكلاب على بنى آدم لم يكثر عليه أن يفضل السودان على البياض".

وقد جاء فى كتابه هذا^(٣) أن الحافظ المنذرى فى تاريخه قال : تتازع رجلان فى فضائل البيض والسود ، فألف أبو العباس الناشئ رسالة فى تفضيل السود على البيض ، ثم يرد عليه بقوله : "وهذا عندى أيضاً يشابه الذى عمل مفاخرة بين الذهب والزرجاج".

وهناك من نظر بموضوعية للمرأة السوداء ، وقد لخص هذا أبو حيان ، فبعد أن مدح للسوداوات وقال :

لنا غرام شديد فى هوى السود نختارهن على بيض الطلى العين نراه يقلب
لهن ظهر للمجن ويقول :

(١) المصدر السابق نفسه ص ٥١.

(٢) تبه لهذا البلاغيون ، ووضعوه تحت باب تحسين المشبه وهو تحسين شئء تختلف فيه أهواء النفوس كمسواة النساء وطولان. فن التشبيه ٢٢٤/١.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٢.

إذا مال الفتى للسود يوماً فلا رأى لديه ولا رشداً
أتهوى خفساء كان زفتاً كما جلدأ لها وهو السود
وما للسوداء إلا قدر قرن وكثثوا وفحسم أو مدداً
وجوه المؤمنين لها أبيضاض ووجه الكافرين به اسوداداً^(١)

.. وعلى الرغم من هذا فالملاحظ أن كان هناك تعاطف نحو السود بعد مجيء الإسلام.

وهذا كله كان يمكن أن يؤخذ على سبيل الفاكهة، أو تنشيط حركة التأليف، أو الأخذ بأساليب المفارقة، وهي عادة يغذيها دائماً الإنسان للعربي، ولكنها لم تستطع بحسم أن تكون كراهية وعداء للسود، وبخاصة بعد أن جاء الإسلام، فنحن لا نجد عندهم مثلاً ما يوجد عند قطاع كبير من الإنجليز، حيث ترتبط الأفكار الغامضة عن الوحشية عندهم باللون الأسود، وحيث وجد أن بعض المرضى بعقولهم كانوا يرون في أحلامهم أن إنساناً أسود دائماً يحرصهم على فعل ما لا يرغبون فيه، بحيث يعتقد الناس في شمال أوروبا أن الشيطان أسود، وأن روح الشر سوداء "وفي جميع استعاراتنا وتشبيهاتنا يعبر اللون الأبيض عن البراءة والنقاء بينما يرتبط اللون الأسود بالخوف والشيطان.. والجلد الأسود في نظر هؤلاء الذين تقع عليه أبصارهم لأول مرة يعتبر بمثابة قذارة وعملية تيرز"^(٢).

(هـ) وما دمننا تكلمنا على اللون الأسود فلأنه من انعطافه إلى اللون الأخضر، ذلك لأن العرب لم تفرق تماماً بين اللونين^(٣)، فالسود عند العرب ابتداء الخضمر كما قال الشماخ:

(١) فن للتشبيه ٢٣٥/١، ٢٣٦.

(٢) فكرة صليحة عن الأجاس والعنصرية ٦٧.

(٣) الأخضر من الألوان التي تسمى باردة بعكس الألوان الحامية كالاحمر مثلاً ويقال إنه لون الإنسان المتحفظ والمنزوي والذي يفكر أكثر مما يفعل.

ومن أقوال الجاحظ في هذا: وأصل الخضرة إما هو لون من الريحان والبقول، ثم جعلوا بعد الحديد لخضر وللساء خضراء، حتى سموا بذلك الكحل واللون، وقد قيل في قوله تعالى "بدهمتان" : خضروان من الرى سودوان، ويقال إن العراق إما سمى سواداً بلون السعف في النخل ومثله.

ورُخِّنَ رواحاً من زروذ فنازعت زبالاً جلبلاً من الليل أخضراً

وقال للراجز :

حتى انتضاني الصبح من ليل خضر مثل فتضاء البطل السيف الذكر

وهم يسمون الحديد أخضر لأنه صلب، لأن الأخضر أسود، قال الحارث بن حلزة:

فهزمتنا جمع ابن أم قطام ومله فارسية خضراء

وقال المحاربى مفترأ :

فى خضر قيس نمائى كل ذى فخر صعب المقادة أبى الضيم شعاع

وقال الفضل بن العباس اللهبى :

ولنا الأخضر من يعرفنى أخضر الجلد فى بيت العرب

وقال الغصائى :

إن الخضارمة الخضر للذين ودوا أهل البريص نمائى منهم الحكم

وقال حسان بن ثابت :

أو فى السرارة من تيم رضىت بهم أو من بنى خلف الخضر الجلاعيد^(١)

وإذا قالوا فلان أخضر القفا: فإنما يعنون به أنه قد ولدته سوداء^(٢).

وعلى كل فقد لعب هذان اللونان دوراً فى الحياة السياسية بعد ذلك، وقامت من تحتها سيوف ووجهات نظر فى الحياة، وبخاصة بعد أن تحدد اللون الأخضر فى ظل الحضارة المترفة الجديدة، وأصبح لا يخلط بينه وبين الأسود. والتاريخ يحدثنا^(٣). أن الفضل بن سهل وزير المأمون أخذ عليه عهداً أن يبيع بولاية العهد

(١) رسائل الجاحظ ٢٠٧-٢٠٩ ، الكامل للمبرد ١٤٦/١-١٤٨ ، ديوان حصاً ١٣٤ ط التجارية.

(٢) الحيوان ٢٤٨/٣.

(٣) الوزراء والكتّاب ٣٠٦ وما بعدها، الصراع الألبى بين العرب والمعجم ٦٨، ٦٩.

بعده "على الرضا" وأن يطرح السواد شعار بن العباس، مستبدلاً به الخضرة شعار العلويين، وكل هذا في مقابل الانتصار له على الأمين، ومن فطنوا لذلك نعيم بن حازم الذي قال: "لما تريد أن تزيل عن بني العباس إلى ولد على ثم تحتال عليه، ثم تصير للملك كسروياً"، ومع هذا قام المأمون بتنفيذ ما رآه الفضل بن سهل، ولكن حين وقف على أرض جديدة صلبة أسقط عليها رأس الوزير، ورفع عليها وعلى الدماء اللون الأسود.

من كل هذا نصل إلى أن العرب لم ينظروا نظرة عداوة مسافر إلى أصحاب اللون الأسود إلا في مراحل الاحتكاك بهم في الجنوب، وفي الشمال كذلك، ولكن بعد أن جاء الإسلام تغيرت هذه النظرة تماماً، وأصبحت كلمة العبد لا تخص الإنسان الأسود وإما تخص كل إنسان وقع في الأسر، أو حكم عليه بالبيع والشراء، أو كان مجهول النسب، والعقاد يعال لهذا فيقول: فقد غلبت على بعض العرب سمرة تضرب شديداً إلى للسود، ونحن لا ننسى قصة معاوية مع "دارمية الحجوية" وكانت سوداء فقد قال لها: ما حالك يا ابنة حاتم؟ فقالت: لست لحاتم إعتيتي أنا امرأة من بني كنانة^(١).

وقد كان من ساداتهم من وصف بخلقة اللون، وشابه الزنج بالآهاب الخشن واللبشرة القاحمة.. وعاشوا ثمة وهم يحسون مكان جيرانهم ويحس جيرانهم مكانهم، فوجدت بينهم أسباب للمفاخرة ولم توجد بينهم أسباب للعداء واللند^(٢).

ونحن وإن كنا نوافق على أنه كان يزدرى بالعبد الأسود لعله اجتماعية كان يكون مجهول النسب، إلا أننا نرى أنه كان يزدرى به لعله عنصرية قبل مجيء الإسلام، وبخاصة في تلك الفترات التي كان يهدد بها الأحباش الجزيرة العربية في الجنوب وفي الشمال، على نحو ما مر بنا من الاستشهادات، أما القول بأنهم عاشوا يحسون مكان جيرانهم، ويحس جيرانهم مكانهم، وأن ما بينهم وبين جيرانهم كان مفاخرة لا عداوة ولدأ، فحن نستثنى منه كذلك الأحباش، ولا نوافق على التعميم في هذا، فالمفاخرة كانت بينهم وبين أنفسهم، بل إنهم حين بعد بهم العهد بالإسلام

(١) للمقد لفرید ١١٢/٢ (لجنة التأليف والترجمة والنشر).

(٢) داعي لسماء ٦٥-٦٨.

وصلوا بالمفاخرة إلى حد العداء وللند، ونحن نعرف العديد من القصص التي تدل على هذا^(١).

كما نعرف القصائد المعروفة بالزاريات في مقابل القصائد المعروفة بالقحطانيات، ونعرف للقصائد المعروفة "بالدوامغ"^(٢).

وقريب من هذا تلك القضية التي شغلت الناس في مصر فترة كبيرة والتي تسمى قضية أهل الحرم، وقصتها أن جماعة من أهل هذه البلدة قد ذكروا أن لهم نسبا عربياً قديماً، ولهم يرغبون في إثبات ذلك، وقد اشترك فيها الشعراء بحيى الخولاني، وطاهر القيسي، والمعل^(٣).

فالدوامغ، والنفقات في الشعر العربي تعتبر امتداداً لبعض الوراثة في الجاهلية، كما تعتبر صراعاً بين عالم البدوة المنزل والحضارة التي تزحف على أكثر من اتجاه، ونحن نرى أنه في حالات الضعف، وفي حالات التصارع السياسي، كان يزدهر فن الدوامغ وفن النفقات^(٤)، كما كان يزدهر ما يسمى "بشجرة النسب" التي لا يمكن أن توصلنا إلى نمط عربي نقي "كنمير. الماء" ذلك لأنها لا تتعرض إلا لسلسلة الآباء، أما الأمهات فتسكت عنهن، كما ظهرت الدقة في المصطلحات، فمن أمثالهم أو شم البرق، ويقال للعنب الأسود إذا لان وهم أن يطيب قد أوشم، ولا يقال للعنب الأبيض أو شم، لأنه لا يحدث لوناً سوى لونه^(٥).

(١) قصة الألب في اليمن ١٢٤، ١٤٥، حلسة أبي تمام ٥١.

(٢) مخطوط لدوامغ بدار الكتب تحت رقم ٧٠٩ لب.

(٣) قصة الألب في اليمن ٩٧-١٠٠.

(٤) يلحق بهذا ما يعرف بالمفاخرة والمنافرة.

(٥) لسان العرب (وشم).

سابعاً : ما مدى اندماجهم في الحياة العربية ؟..

نعتقد أن الإنسان الأسود بعد عهد الخلفاء الراشدين قد قل الاهتمام به، وقد مر بنا أن عدداً منهم انسحب من حركة الحياة، إما بالهجرة عند الدوائر التي فيها الضوء، وإما بالإقبال للمفرط على العبادة.

فالفصلة بالإنسان الأسود بعد ذلك كانت قائمة على أساس أنه يقوم بنوع من الشرفية داخل الحياة الريانة الجديدة، وفي إطارات بعينها لا يستطيع كسرها لأن المجتمع من حوله يحاصره، ويضيق للفرص أمامه.

فالمجتمع في عهد الأمويين كان يعمل على تأكيد النقاء العربي.

وقد روى أن الزبير قتل رجلاً شديد الحمرة، وأن المختار الثقفي قتل رجلاً شديد السواد، وحين هدأت الحرب قال المختار الثقفي :

تعلم والله إنني لأظن قتيلىنا هذين عبيدين، ولو أن هذين قتلتنا لفجع بنا عشائرننا! ومن يرجونا، وما هذان وكلبان من الكلاب عندي إلا سواء، وما أخرج بعد يومى هذا إلا الرجل أعرفه! فقال له ابن الزبير وأنا والله لا أخرج إلا للرجل أعرفه^(١).

ثم إنه كان يمكن أن يكون لهم دور حاسم في إقامة الدولة العباسية وبخاصة حين نعرف كما مر بنا أن أبا مسلم الخراساني كون منهم فرقة كبيرة في جيشه، ولكن قوتهم الحقيقية ذهبت في المجزرة التي قامت بالموصل، فقد قُلت امرأة عربية لمحمد بن صول:

أما نأفف للعريبات المسلمات أن ينكهن الزنوج؟

فما كان منه في الغد إلا أن أحصاهم عدا فوجدهم أربعة آلاف، وكان أن أمر بقتلهم جميعاً بسيف الخراسانية^(٢).

(١) الطبري ٥/٥٧٧.

(٢) ابن الأثير ٤/٣٠٥ وما بعدها، أبو الفدا ٢/١٣٦.

ونعترف إلى جانب هذا أنهم اشتركوا في غزوات موسى بن نصير بصفة خاصة، فقد كان يقدمهم بين يديه "الفتح والغارة" ومن هنا نراهم يوجدون إلى جانب العرب والبربر في لشمال الأفريقي.. ثم في الأندلس^(١).

ومن المعروف أن أبا جعفر المنصور استخلف على أرمينية عام ١٣٧هـ رضية يحيى بن مسلم بن عروة "وكان أسود مولى لهم"^(٢).

وقد ثبت أنه في القرن الرابع الهجري قام خلاف شديد بين أهل السنة وللشيعية من الجنود في مصر، وكان يمثل أهل السنة السودان والترك، وقد طاف أحد السودان المتهيجين بالطرقات وهو يصيح "معاوية خال على" فتبعه العامة.. وأصبحت هذه القولة هي صيحة أهل السنة بمصر حين يريدون قتال الشيعة^(٣).

ومن المعروف أن الحاكم بأمر الله قرب "عينا" خادمه الأسود، ثم نقم عليه فقتل بطناءه، ثم عاد ولقبه "كائد للقواد وأسناد الأستانيين" ولكنه عاد ففتكر له، وقطع لسانه، ثم أخيراً أَرْضاه^(٤).

ودور كافور الأخشيدي جهير في مصر.

ومن المعروف أنه كان رئيس المتأمرين على مؤنس المظفر خادمه الأسود للمسمى "مفلح"^(٥).

ومن قبل خرج على العباسيين خروجاً مدوياً من كان يسمى "أسود الزيد"^(٦).

ومع أن حركة المجتمع في فترات كثيرة قد اتسعت جول السود، ودخل فيها الكثيرون ونعموا بهذا الدخول. إلا أن الإنسان الأسود إلى حد ما ظل معزولاً عن صميم الحياة، كما ظل متركماً في مناطق بأعيانها ومغروماً في وظائف من الحياة لا يمكنه أن يتخطاها إلا بشق الأنفس.

(١) فجر الأندلس د. حسين مؤنس ٣٩٥.

(٢) للطبرى ٤٨٠/٧.

(٣) الحضارة الإسلامية ترجمة أبو ريعة ١١٢/١.

(٤) المغرب لابن سعيد ١٢٤.

(٥) عريب ١١١: ١١٢.

(٦) الإمتاع والمؤنس ١٦٠/٣.

وإذا كانت "الليالي العربية" في هذه الفترة قد صورت لنا عالماً عربياً مكتظاً بمباهج الحياة، إلا أنها قد صورت كذلك الإنسان الأسود على أنه موضع حق وخوف جنسي^(١) ثم كان رد الفعل هو هذا التوتر الذي نراه في الغالب بين الدولة وبين المود، والذي ظلت ظلاله عالقة بالحياة بعد ذلك.

وحين إذا أردنا - بالإضافة إلى ما سبق - أن نأخذ دليلاً من السيرة الشعبية وجننا ما يؤيد ما نذهب إليه.

"موقف كاتب سيرة سيف بن ذي يزن، وكذلك مجتمع كاتب هذه السيرة له ما يسوغه، ذلك أننا نرجح أن سيرة سيف قد كتبت في عصر المعاليك الذي اشتدت فيه الحروب بين العرب وبين الحبش كانعكاس للحروب بين العرب والصلبيين، وكثرت الأخبار التي جاءت في كتب التاريخ عن اضطهاد الحبش للمسلمين... ولهذا فقد اعتبر العرب أنفسهم من جنس آخر مخالف للجنس الذي ينتمي إليه الأحباش، فاعتبروا أنفسهم أولاداً لسم بن نوح: بينما اعتبروا الأحباش أولاداً لحام بن نوح، ثم أعطوا لسم وأولاده الفضائل الخلقية كلها بينما ألصقوا بأولاد حام أقيح الرذائل وأسوأ الذنوب"^(٢).

وإذا كان قد مر بنا بعض المواقف التي كتبها كتاب وقف بعضهم مع السود، ووقف الآخرون ضدهم، فإنه يهنا هنا أن نسوق عدة مواقف توضح أن السود لم يكن لديهم تامة في الحياة العربية.

فهناك الذين لعزلوا بحيث أصبح لا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم، ومع هذه العزلة فلم يمنع هذا واحداً منهم أن يقول بإخلاص "لن الله بلاداً ليس فيها عرب"^(٣).

وهناك من وجد في نفسه للجرأة منهم ليقول لأمير المؤمنين المنتصر لم قتلت أنت أباك المتوكل؟ حين قال له المنتصر لم قتلت؟

(١) فكرة صائبة عن الأجل والمنتصرة ٦٧.

(٢) فن كتابية السيرة الشعبية ٧٦٤.

(٣) البيان والبيان ٥٥/٧ (السندوب).

ثم إن الإِبْشَهى أورد فصلاً في كتابه بعنوان "تم العبيد والخدم" وقد أورد فيه مسائير كثيرة للعبيد، ثم دال على شدة الانتقام عند العبد الأسود بقصة مثيرة من قصص الجنس، ثم علق على هذه القصة التي تعتبر نوعاً من الأدب الذي اصطلح على تسميته "الأدب المكشوف".

يقوله :

إن عمرا الأعجمي حاكم السند حي نسمع بهذه الحادثة قال: ما سمعت بمثل هذا قط، وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود^(١).

وقد فعل مثل هذا إبراهيم بن محمد البيهقي^(٢).

كما أورد ابن عبد ربه^(٣) في هذه المشكلة رأى مجموعة من المتقنين اجتمعوا "بالمريد" فقد طرح فيما بينهم سؤال يقول: أى الأمم أعقل؟ وكان أن قالوا عن أهل فارس إنهم ملوكوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيماً من الملك،، وغلبوا على كثير من الخلق: فما استنبطوا شيئاً لعقولهم، ولا ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم.

وقالوا عن الروم : أصحاب صنعة.

وعن الصين : أصحاب طرفة.

وعن الهند : أصحاب فلسفة.

وقالوا عن السودن : هم شر خلق الله.

ولنأمل قول ابن خلدون فى المقدمة^(٤): قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب، فنجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع.

... أما نظرة للجاحظ إليهم فتظهر من قوله :

(١) المستطرف فى كل فن مستطرف ٦٤/٢.

(٢) المحاسن والمساوئ تحقيق أبى الفضل إبراهيم ٣٩٧ وما بعدها.

(٣) المتذ الفريد ٥٠/٣.

(٤) ص ٨٦.

وإذا سمعتموني أنكر العلوم فإني لست أعنى الفلاحين.. ولست أعنى من الأمم مثل.. ومثل الزنج وأشباه الزنج، وإنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع: العرب، وفارس، والهند، والروم، والباقون همج، وأشباه همج.

ويقول حين تكلم عن الخطابة: حتى إن الزنج مع العثارة، ومع فرط الغبارة، ومع كلال الحد، وغلظ الحص، وفساد المزاج لتطيل الخطب، وتثوق في ذلك جميع العجم، وإن كانت معانيها أجفى، وأغلظ، وألفاظها خطأ وأجهل^(١).

كما يقول عنهم :

فإنهم شرار الناس، وأردأ للخلق تركييا ومزاجاً كمن بردت بلاده فلم تطبخه الأرحام، أو سخنت فأحرقته الأرحام، وإنما صارت عقول أهل بابل وإقليمها فوق العقول.. لعل الاعتدال^(٢).

وقد يتفكه بهم في كتابه للبخلاء ففيه على لسان أحدهم:

لم أنشف بأكلى التمر قط إلا مع الزنج وأهل أصبهان، فأما الزنجي فإنه لا يتخير، وأنا أتخير، وأما الأصبهاني، فإنه يقبض القبضة ولا يأكل من غيرها.

وهناك من أرخ لوجودهم في المجتمع العربي فقال:

والسودانيون كانوا يغمرون الأسوق، وقد عرفوا بقلة الثبات والإهمال كما عسفوا بالميل إلى الضرب على النصف والرقص، وهم أحسن خلق الله بياض أسنان لكثرة لعابهم، ويعابون عادة بنتن الإبط، وخشونة للملمس^(٣).

وهناك من قال:

إن الدنيا كلها أربعة وعشرون ألف فرسخ، فملك السودان اثنا عشر ألف فرسخ، وملك الروم ثمانية آلاف فرسخ، وملك فارس ثلاثة آلاف فرسخ، وأرض العرب ألف فرسخ.

(١) البيان والتبيين تحقيق عبدالسلام هارون ١٣٧/١، ١٠/٣.

(٢) الحيوان ٣١٤/٢.

(٣) راجع ضحى الإسلام ٨٧/١، ٨٨.

ومن قال : أربعة لا تعرف في أربعة، السخاء في الروم، والوفاء في الترك،
والشجاعة في القبط، واللغم في الزنج^(١).

ولقد كان يحلو لبعضهم بين الحين والحين أن يقوم بإثارة السود على نحو
ما كان يفعل الشاعر أبو يعلى بن الهبارية الذي كان يعير أبا محمد الأعرابي،
ويقول: ليت شعري من هذا الأسود الذي قد نصب نفسه للرد على العلماء وتصدى
للأخذ على الأئمة للتقدماء^(٢)؟

... ومن الغريب أننا نجد "أسامة بن منقذ"^(٣) في باب المخالفة ينقد نصيباً
فيصيب، ثم يعرض لسحيم فيقول: والمحب لا يدعو على حبيبه ولا سيما هذا العبد
الأسود.

ثم حين يعرض لهذا البيت :

تجعل السدُ واليلنجوح والممسك صلاء لها على الكافور

يعقب عليه بقوله:

ومعلوم أن الزنج على قبح رائحتهم، ونبتها لو تطيبو ببعض هذا الطيب
لطابت رائحتهم.

وقد تحول الأمر بعد ذلك إلى نوع من التطرف كقول الشاعر قمر الدولة من
شعراء القرن السادس في أفلح الكاتب وكان أسود.

هذا ابن أفلح كاتب مترك بصرفاته

أقلامه من غيره ودواته من ذاته

.. ومما يلاحظ على أدب للصوفية أنهم لم يلتفتوا إلى ظاهرة الطعن على
السود^(٤).

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة للمجلد ١ ص ٢١٥، نهاية الأرب ١/٢٩٤.

(٢) ياقوت ٧/٢٢٦.

(٣) للديلم في نقد الشعر ١٦٥ وما بعدها.

(٤) الرملة القشيرية ٢/٤٨١، ٥٠٦، ٦٧٥.

ومهما يكن من شيء فالملاحظ أنه بعد أن هذا الزهو العربى، وبعد أن أصبحت الأجناس الأخرى تلعب دوراً كبيراً وهاماً فى الحياة العربية الإسلامية إلى حد حصر الجنس العربى.. بعد هذا رأينا المجتمع العربى الإسلامى فى كثير من المناطق لا يعى فكرة الأجناس أية أهمية، إلى حد أن كافور الأشتيد قد وصل إلى حكم مصر، وكافور هذا عبد أسود خصى مقوب لاشفة السفلى بطين قبيح القدمين ثقيل البدن لا فرق بينه وبين الأمة، وقد سئل عنه بعض بنى هلال فقال : رأيت أمة سوداء تأمر وتتهى ولكن هذا الأسود لقوم من أهل مصر يعرفون ببني عياش يستخدمونه فى مصالح السوق، وكان ابن عياش يربط فى رأسه حبلًا إذا أراد النوم، فإذا أراد منه جذبه بالحبل لأنه لم يكن ينتبه بالصياح، وكان غلمان بن طنج يصفونه فى الأسواق كلما رأوه فيضحك، فقالوا: هذا الأسود خفيف الروح، وكلما صاحبه فى بيعه فوهيه لهم.. فنظر الناس إليه من صغر همهم، وخسة أنفسهم فسابقوا إلى التقرب إليه، وسعى بعضهم ببعض حتى صار الرجل لا يأمن أهل داره على أسراره، وصار كل عبد بمصر يرى أنه خير من سيده، وقيل إنه اشترى بما يعادل ثمانية جنيهات^(١) والملاحظ أن الذين كتبوا عن كافور كتبوا عنه بمرارة، ولم ينصفه إلا القليلون الذين ذكروا علمه، وسعة لفته، ونحن يهمنى موقف المتنبى منه وتعرضه للونه، كما فى قوله:

تفضح الشمس كلما ذرت الشمس	بشمس ملبسة سوداء
إن فى ثوبك الذى للمجد فيه	لضياء يُزرى بكل ضياء
إنما الجلد ملبس وابيضاض النفس	[م] خير من ابيضاض القلباء
كرم فى شجاعة، وذكاء	فى بهاء، وقدر فى وفاء
من لبيص للملوك أن تبدل اللون	سلون الأمستاد والسحناء ^(٢)
(و) فجاءت بنا إنسان عين زمانه	وخلت بياضاً خلفها ومأقبا ^(٣)

(١) أصبح المتنبى عن حيثة المتنبى للبدى. تحقيق مصطفى السقا وآخرون ١١٠: تاريخ العرب

(٢) السحناء : الهيئة.

(٣) المعنى أنه بمنزلة السود من العين وغيره بمنزلة البياض الذى لا ينتفع به فى النظر.

(و) أبا المسك ذا الوجه الذى كنت تلقا إليه وذا الوقت الذى كنت راجياً^(١)
أبا كل طيب لا أبا المسك وحده وكل صاحب لا أخص الغوالي
يدل بمعنى واحد كل فاجر وقد جمع الرحمن فيك المعاني
ومن قوم سام لو رآك لصله فدى ابن أخى نسلى ونفسى وماليا

بل ويهمننا منه تعرضه للونى المواد واليباض معاً كما فى قوله :

منى كن لى أن البياض خصاب فيخفى بتبييض القرون شباب^(٢)
ليالى عند البيض فوادى فتنة وفخر. وذلك الفخر عندى عاب^(٣)
فكيف أتم اليوم ما كنت أشتى وأدعو بما أشكوه حين أجاب
جلا اللون عن لون هدى كل مسك كما انجاب عن ضوء النهار ضباب^(٤)

ومع أنه يحلو لبعضهم كابن حنبل أنه يذكر أنه هزئ بكافور وسهل على الناس أمر لونه، ولقد قيل فى هذا: وكان المتنبي يعلم أن ذكر السواد على مسامح كافور أمر من الموت، فإذا ذكر لونه بعد ذلك فقد أساء إلى نفسه، وعرضها للمقتل والحرام، وكان من حسن الصنعة، وإجمال الطلب ألا يذكر لونه، وله عنه مندوحة.. ولقد ذكر سواد كافور فى عدة مواضع وكان اللائق ألا يذكره^(٥)، وما أكثر الأبيات التى ذكر عنها النقاد أنها تحمل المدح والذم فى آن واحد، ونحن نرى أن المتنبي أراد أن يوافق كافوراً فى أول الأمر، وأراد أن يبيهره بأنه يستطيع أن يقيم الدليل والحجة، على ما لا يحتمل دليلاً أو حجة، وقد أسرف فى هذا المجال

(١) أبو المسك كنية كافور لسواده.

(٢) المعنى أنه أرغبته فى شرف المشيب لأنه أوفر ولجل فى العين كان يتمنى فى شبابه أن يكون بياض الشيب خضاباً يستر به سواد الشعر كما يستر الشيوخ بياضه بالسواد.

(٣) القودان : جانب الرأس . كان يتمنى للمشيب فى الليالى التى كان رأسه فيها فتنة عد النساء لحسن شعره وسواد وكن يفتحون بوصله، إلا أن ذلك الفخر عيب عنده لأنه مبين للفة والكمال.

(٤) المعنى: كان بياض الشيب كان مستوراً تحت السواد فلما زال السواد عنه انكشف فاهتدى صاحبه فى كل مسك من الرشد كالنهار إذا انكشف عنه الضباب فاهتدى المسك فى ضوءه.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ١١٥، ١١٦.

إلى الحد الذى نصب فيه اللون الأسود على كل الألوان، والذى استطاع فى هذا الوقت المبكر أن يضغ بنور "قومية سوداء" ونحن لا نستطيع أن نتصور مع بعضهم أنه كان لا يحترم الرجل وكان يعتمد السخرية منه، ويأتى بالشعر الذى يحتتمل للشئ ونقيضه، فقد كان يقف بين يدى كافور ولا يستطيع الجلوس فى مجلسه فى الوقت الذى كان لا يرضى فيه أن ينشد قائماً عند سيف الدولة، بل لقد اشترط ذلك على سيف الدولة، ولقد أرسل كافور إليه من يقول له، لقد طال قيامك يا أبا الطيب فى مجلس كافور، فإذا به يقول له وصاحب الصبح المبني^(١) يابى إلا أن يكون هذا امتحاناً له من كافور -

يقُلُّ له القيامُ على العروس وينذلُّ للمكرمات من السفوس
إذا خانسته فى يوم ضحوك فكيف تكون فى يوم عيوس

وما يهمنى أن نؤكد هنا أن العصبية العربية حين هدأت، أصبح الطريق ممهداً لذوى الكفليات، وأنه قد لمع بعض السود فى هذه المجالات الجديدة عليهم كما رأينا من كافور، وإن كان هذا لم يمنع فى الوقت نفسه ظهور نبرة من الضيق حين الكتابة عنهم، وبخاصة حين يكتب عن كافور وكثيراً ما يعرف بكلمة الأسود فقط.

وربما كانت حالة هذا العبد الأسود الذى نشأ من أخط الأوساط ليمارس نفوذاً مطلقاً هى الأولى فى لتاريخ الإسلامى إن لم تكن الأخيرة^(٢).

وإن كان الثابت أن المصريين شغلوا بأخرفته عن أولاه، وبحاضره عن ماضيه، وبخاصة أن ماضى "كافور" لا يختلف عن ماضى الحاكم الذى كان من قبله، وإن كان كافور يتميز عنه بالعدل والسماحة والكرم، فقد كان له سمط يمد كل يوم لمن حوله، وتحدث المؤرخون أنه كان يرسل كل ليلة عيد "حمل بعل" من المال على هيئة صرر، وقد كتبت على كل صرة اسم عالم أو زاهد أو فقير، كما ذكروا أنه كان يرسل كل عام من المال والطعام والثياب شيئاً كثيراً مع الحاجاج

(١) المصدر السابق نفسه ص ١١٢، المقتبى د. زكى المحمدي ٣٢ (توليع الفكر العربى، دار المعارف).

(٢) تاريخ العرب ٥٨٨/٢.

ليوزع هناك على المعوزين^(١) ولقد نجح في حماية مصر والشام من هجمات الحمدانيين^(٢) ولكن سوء حظه هو الذى أوقعه فى براثن المتنبى، وبخاصة بعد أن مماثله أبو الطيب أو يوليه صيداء من بلاد الشام أو غيرها، فكان أن رد عليه أنت فى حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سميت نفسك إلى النبوة، فإن أصبت ولاية وصار لك اتباع فمن يطيقك؟ ويلاحظ أنه طمع فى كافور بما لم يطمع فى مثله عند سيف الدولة فإذا كان جهده عند سيف الدولة أن يقول كلاماً عاماً.

.. فإنه عند كافور حدد مطالبه :

إذا لم تُنِطْ بى ضيعةً أو ولايةً فجودك يكسونى وشغفك يمتلب

وقصائده عامرة فى هذا المجال بالتلميح والتصريح، وقد يضيف إليها عتاباً أو استبطاء^(٣)، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المتنبى كان عربياً متعصباً لا يطيق الموالى، وهو نفسه القائل:

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عربٌ ملوكها عجم
فى كل أرض وطنتها أمم ترعى بعدد كائنها غنم

إذا أضفنا ذلك أدركنا دوافع الحملة التى جعلت من كافور هزأة بين العصور، والتى جعلت للناس لا ينكرون عنه إلا ما قاله المتنبى، وما أكثر ما قال عنه، فقد أطلق عليه كنى ولقباً أهمها. كوفيير، وأبو النتن، وأبو البيضاء، عبدالموء، والخنثى والخنزير، والخصى، والتوبى، الأوكع^(٤) إمام الأبقين والملاحظ أنه فى هجائه المريع يعتمد على اللون، والاسم، والأصل، والجسم، وكل هذا يخدمه فى عصر ساد فيه "البديع" ولكن للملاحظ أن المتنبى مع هذا التلاعب للبديعى قد أخذ من مسيرة الرجل فى التاريخ "إذ أنه كان يرى بعقله وذكائه مواطن

(١) أبو المصمك كافور. إبراهيم الأبيارى وما بعدها، نقد للكتاب، عبده بدوى فى العدد ٦١ من مجلة نهضة إفريقية.

(٢) تاريخ العرب ٥٨٨/٢.

(٣) الأدب العربى فى مصر د. عبدالرزق حميدة ٢٧٤.

(٤) الجاف الصلب.

المدح والذم فى هذه النواحي، فيوضعها صياغة فريدة تبعتها عن التكلف والنقل^(١).

والملاحظ أنه لم يقف عند حد الهجاء، وإنما حرص على قتله،^(٢) وسخر من مصر - أمر مصرية - من أجله.

أغاية الدين أن تحقوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأمم
ألا فتى يورد الهندى هامته كيما تزول شكوك الناس والتهم

ويقول :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولاكنه ضحك كالسبك
بها نبطى من أهل السمود يدرس أنساب أهل القلا^(٣)
وأسود مشفوه نصفه يقال له أنت بدر الدجى!

وكان المتنبي لم يقل له ما هو أكثر من "بدر الدجى"

"وهل وصول الخصى كافور إلى عرش مصر أغرب من سيادة إحدى البغايا على دولة الروم لو كان المتنبي على علم بتاريخ الروم القديم؟ وهل كانت أمة الفرس ملعونة على أئمة الكهان أو مقضيا عليها بالاستسلام حين قولها سلطان خصى بعد زمن المتنبي بعهد طويل؟ وهل الخصيان والبغايا هم شر الناس أو هل سيرتهم فى الحكم أقيح السير التى عرفتها شعوب العالم^(٤).

وقد يتوهم بعضهم بأنه لولا هذا الاصطدام المروع الذى وقع بينه وبين كافور، والذي جعله يطلب منه ما لم يطلبه من سيف الدولة، لما كان قد أخذ هذا الموقف من للعبيد السود، ولكن بالإضافة إلى ما نعرف عنه من التزام بالعروبة

(١) الأدب العربى فى مصر ٢٧٨.

(٢) أورد النبطى الوزير ابن فرات.

(٣) يقول :

فلا ترج للخير عد امرئ مريت يد النخس فى رأسه
وإن عراك الشك فى نفسه بحاله فاظن إلى جنسه

(٤) سعد زغلول: سيرة وثيقة : عباس محمود العقاد ص ١٢.

السنقية، نجد أن لهذا جنوراً قديمة عنده، على نحو ما نعرف من رأيه في الأعاجم وهو يخاصم ابن خالويه للنحوى في حضرة سيف الدولة وعلى نحو ما عرفه من خوفه على اللغة العربية كما في قصيدته عن شعب بوان بفارس وقد قيل إنه التقى في سفر له بعبد أسود، فقال له: ما اسمك؟ فلما قال له: زيتون، قال المتنبي:

سموك زيتوناً وما أنصفوا لو أنصفوا سموك زعرورا
لأن في الزيتون زيتاً يضيء وأنت لا زيتاً ولا نوراً
وقريب من هذا قوله :

وإن عراك الشك في نفسه بحاله فانظر إلى جنسه^(١)
وقوله :

خلائق لو حواها الزنج لا نقلبوا ظمى الشفاه، جعد الشعر غرنا
وقد عقب على هذا للصاحب بن عباد بقوله: الزنجى لا يوجد إلا جعد الشعر، فكيف يقلبون عن الجعودة إلى الجعودة^(٢). وأخيراً فإنه كان يعرف أن هناك من أعد له "السودان" لقتله في "كفر علقب".

أتانى وعيدُ الأعداء، وأنهم أعدوا لى للسودان فى كفر علقب
وكل هذا جعله يمثل بالمرارة على السود.

(١) ديوانه . مطبعة هندية ٣٧٩.

(٢) ديوانه ٣٧٩ مطبعة هندية، الصبح المنبى ٨٧، ٣٣٨.

الفصل الثاني

التصادم مع المجتمع

أولاً: كيف حدث التصادم معهم بعد الإسلام؟

وإلى أي حد وصل هذا التصادم؟

نحن نعرف أن السود في الجاهلية كانوا طبقة مهزومة، وإنسانية.. "مستأمنة" فلم يكرموا يتصاممون مع الحياة من حولهم، ذلك لأن كل مهمهم كان ينحصر في تلك الأعمال الحفيرة التي أشرنا إليها، وكان ينحصر كذلك في الترفيه عن سلاوتهم بالرقص أو الغناء أو بهما معا، قد سبق أن ذكرنا أنهم لم يكونوا يشكلون طبقة صلبة يمكن أن تطالب بحقوق، أو تصل إلى تخفيف الأعباء عنهم.

ومن هنا نراه - من وجهة نظر الشعر - إذا عيروا بالسواد، فإنهم يكتفون بالوقوف عند تبرير هذا اللون، وكثيراً ما يقابلون بين سواد اللون وبياض الخلق، أو ينكرون أن هناك أشياء أخرى يمكن أن تسودهم على "النسب المظلم".. على ما نعرف من عنقرة، وسحيم، وخفاف بن ندية، ونصيب.

ولكن الإسلام حقيقة أنعش روحهم، وأرسى دعائم المساواة، وحطم الإحساس بالرق للداخلى الذى كانوا يحسون به إلى حد أنهم كانوا غير مصنفين بأنهم على قدم المساواة مع الإنسان العربى.

ولكن هذا لم يدم كثيراً ذلك لأن السود أحسوا أنهم لا يعاملون على قدم المساواة مع غيرهم، ومن هنا انسحب بعضهم أو أغرق نفسه فى العبادة. ولكن القرن الأول للهجرى حمل معه فى أول الأمر على استحياء تلك العصبية والحزازات للقيمة، ثم ما لبث أن اشتدت بين عدنان وقحطان.. بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وقد وجد للشعراء السود أنفسهم يتعاطفون مع القحطانيين، ويناصرونهم على العدنانيين، ولا شك أن القحطانيين كانوا أقرب إلى الأحباش من

عندئذ عنصران^(١) بل رأيناهم من خلال هذه العداوات يعملون على تأكيد ذاتهم، وحين يوجه إليهم لوم بسبب ركافة أمتابهم أو بسبب ألوانهم لا يسوغون هذا بأنهم "بيض الخلق" أو أن هناك أشياء أخرى يمكن أن تغطي على نقاط الضعف التي يعترفون بها عندهم، ذلك لأننا نراهم يدافعون بعنف وغضب عن كل ميراثهم، فهم لا ينظرون إلى الخلف في غضب، وإنما يتعمدون النظر إلى الخلف، ثم يقفون عند أشياء بعينها يرون أنها تكيّد العرب، وتنقل على نفوسهم، وهكذا ظهر ميلاد غضب جديد للسود في الأدب العربي.. ظهر بحق من خلالهم "أدب الغاضبين" ومع أنه يلاحظ أنهم لم يكونوا يبدؤون للشعراء العرب بالعنوان، إلا أنهم أصبحوا في حالة لا يستكتون فيها على تهمة توجه إليهم، أو على نظرة غضب تقذفها العيون كحجر على جلودهم وعلى ماضيهم.

وسنحاول أن نقف قليلاً عند ثلاثة^(٢) من الشعراء السود الذين كانوا علامات على للتصامم للذي تم بين العرب وبينهم.

١- ويعتبر الشاعر الأموي الحيفطان^(٣) هو صاحب الصوت الأول الحقيقي الذي يؤرخ للنبرة الجديدة التي بدأ يتحدث بها الشعراء السود في الحياة العربية.

وقد بدأت الشرارة الأولى حين رآه مرة للشاعر جرير^(٤) يلبس في يوم عيد قميصاً أبيض على جسم أسود، وكان أن تهكم به قائلاً :

كانه لما بدا للناس ليّر حمار لف في قرطاس

(١) بين العرب والحشة ١٣٣-١٣٥.

(٢) تعرضنا لهذا في كتاب "الشعراء السود".

(٣) أصل معنى الحيفطان طائر الدراج أو الذكر منه: وهو الذي قيل عنه: إنه كان يفضل في رايه وعقله وهمة، وهو الذي يقول في الإخوان: لا تعرف الأخ حتى ترافقه في الحضر، وتزلمه في السفر (رسائل الجاحظ ١٨٠ وما بعدها، معجم البلدان لياقوت ٣٩٤/١، ظهور الإسلام ١/ ٧٢. ولفظ الشعراء السود للكثير عبده بدوي.

(٤) كان جرير يهتم في نقائضه بنكر لئلا يحدوه في آباء للفرزدق، ويذكر ما تحدثه من لون أسود

لما رأته لئلا يحدوه بالحديد بجواده
فألون أورك والبدان قصار والأورق: الأسود. للنقائض ٨٥٢.

ولما كان هذا البيت للعابث قد تواتر من فم إلى فم، فإنه يقال إن الحقيقة دخل منزله ثم قال هذه القصيدة الرادعة، والتي تحتج بها اليمانية على قریش ومضر، ويحتج بها كذلك العجم والحبيش على العرب، وهذه للقصيدة هي:

لئن كنت جَعَدَ الرأس والجُلْدُ فاحمُ	فإني لَسَبَطُ الكف والعرضُ أَزهر ^(١)
وإن سوادَ اللون ليس بضائري	إذا كنت يوم الروع بالسيفِ أخطر
فإن كنت تبغى الفخر في غير كنهه	فرهط للنجاشي منك في الناسِ أفر
تأبى الجَلْدَى، وابن كمرى وحارثُ	وهوذة، والقبطى، والشَيْخُ قِصر
وفاز بها دون الملوك سعادة	فدلم له الملك للمنيحِ الموقر
ولقمانُ منهم وإبنه، وابن أمه	وأبرهةُ الملك الذى ليس ينكر
غزلكم أبو يكسوم فى أمّ داركم	وأنتم كقبض الرمل أو هو لكثُر ^(٢)
وأنتم كطير الماء لما هوى لها	بيلقعة حُجْنِ المخالبِ أكر
فلو كان غير الله رام دفاعه	علمت وذو التجريب بالناس أخبر
وما للفخر إلا أن تبيتوا إزاءه	وأنتم قَريبُ نَارِكُمْ تَنَسَّعُرُ
ويذلفُ منكم قائد ذو حفيظة	نكلفه طوراً وطوراً يدبر
فأما الذى قلتُم فتلكم نبوة	وليس بكم صون الحرام الممتر ^(٣)
وقلتُم لقاح لا تؤدى أكلوة	فإعطاء أريان من الفخر أيسر
ولو كان فيها رغبة لمتوج	إذا لأتيتها بالمقلولِ حمير ^(٤)
وليس بها مشى، ولا متصيف	ولا كجؤثا ^(٥) ماؤها يستفجر

(١) القبض : العدد الكثير، وهو يعنى صاحب القليل حين أتى إلى مكة ليهديها، فهو يقول: كنتم كعند الرمل فلم فررت منه: وما دلت قد غزيت وهى أم القرى وفيها البيت الحرام الذى هو شرفكم - فإن كل مكان لكم قد غزى.

(٢) أى صبن البيت الحرام ذو المستور، وصون لغة فى صين.

(٣) اللقاح : القوم لم يدينوا للملوك ولم يصيبهم فى الجاهلية سباء، الأريان: الخراج والأكلوة.

(٤) المقلول: جمع مقلول بالكسر، وهو القليل الملك من ملوك حمير.

(٥) جؤثا : حصن لعبد القيس بالبحرين.

ولا مرتعُ السعير، أو متقنص
ولكن تجراً والتجارة تحقر
ألسنت كلبيبا، وأمك نعمة
لكم في سمان الضأن عارُ ومفر

وهذه القصيدة تعتبر "جواز المرور" للشعراء الذين جاؤوا بعد ذلك، والذين يطلق عليهم اسم الشعراء الشعبيين، والملاحظ أنه لم يقف عند جرير وقبيلته فقط، ولكنه تعرض بحسم للأبشاش والعرب، ثم أعطى الأبشاش كل مكرمة، وسلب عن العرب مكارمهم، فهو يسخر من مكة، ومن قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم، ويذكر أن علمهم الذي يقوم على التجارة عمل محتقر، ثم يسوق عدداً من السود في معرض للزهو على العرب، ومع أنه يحتاط فيذكر أنه لا ينبغي للعرب أن تفخر بالإسلام لأنه "نبوة" تجئ قدراً من السماء، إلا أنه لا يخفي فرحة بهؤلاء الذين تأبوا على الإسلام:

تأبى الجندى وابنُ كسرى وحارثُ
وهوذة وللقبطى والشيخ قيصر

فهو يريد أن يقول: كتب للنبي صلى الله عليه وسلم إلى بنى الجندى فلم يؤمنوا، وكذلك كان الحال مع كسرى، ولحارث بن أبى شمر، وهوذة بن على الحنفى، والمقوقس عظيم القبط بمصر، وقيصر الروم.

ولا شك أن هذه النبذة الغاضبة جديدة على طبيعة العلاقات التي كانت سائدة بين العرب والسود.^(١)

٢- أما الشاعر الثانى فهو سنيح بن رباح، وقصته لا تختلف عن قصة الحيقطان، ذلك أن الشاعر جرير لما هجا بنى تغلب جاء فى هجائه:

لا تطلبن خوولة فى تغلب
فالزنج أكرم منهم أخوالا

(١) بنو كليب يرمون بليتان الضأن؛ وكذلك بنو الأعرج وسليم وتُشجع ترمي بليتان المعز، يريد أن يقول: أما العار فلاذى شاع عليهم عن ذكر النماج.

وكان أن غضب العبيد مع الزنوج وقالوا: "من يعذرنا من ابن الخلفى" فقال رجل منهم يقال له سنيح بن رياح مولى ابني ناجيه هذه القصيدة^(١):

ما بال كلب من كليب سبنا	إن لم يسواز حاجباً وعقالاً
أن امراً جعل المراغة وابنها	مثل للفرزدق جائر، قد فالاً ^(٢)
والزنج لسو لا قيتهم فى صفهم	لا قيت ثم جاجحاً أبطالاً

(١) الكامل فى السلفه والأدب ٨/٢، نقلا عن جرير والأخطل لأبى تمام تحقيق الأب لطنوى صالحانى ص ٨٨، خزنة الأدب ٢٧٠/٢ وللجزء الحادى عشر من تاريخ مصنف مجهول وهو لمعة كتاب أنساب الأشراف وأخبارهم للشيخ الإمام أبى الحسين أحمد بن يحيى بن جابر دلود البلاترى البغدلى ص ٣٠٢ مطبعة بولس أب فى منية غريزولد ١٨٨٢، وقيل إن اسمه رياح بن سنيح وسنيح بن رياح، ورياح بن سنيح، قد رويت له فى الجزء السابع من كتاب الحيوان للجاحظ تحقيق عبدالسلام هارون ص ٢٠٤، ٢٠٥ هذه الأبيات ويقصد بالخضر فيها النبى صاحب موسى..

ما أبغض الخضر فيلاً منذ كان ولا	أحب عيراً وذاك غايه الكذب
وكيف يبنض شيئاً فيه معتبر	وكان فى القلك فرلاًجاً من الكرب
وللقيل لقبيل شىء لو تلقنه	حاجات نفسك من جد ومن لعب
ولو تتوج فينا ولحد فرأى	زى الملوكة لقد أولفى على الركب
ينضى ويرك تمظيماً لهيبته	وليس يمدله النشوان نفى الطرب
وليس يجزل الإكل ذى فخر	حر ومنبته من خالص الذهب
مثل الزنوج فإن الله فضلهم	بالجود (..) والتطويل فى الخطب

ومما يروى عن تأثير هذا البيت أن هشام بن عمر التتلى كان مع المنصور وبعد أن تركه المنصور عاد هشام يطلبه فقال:

أو لم يكن معي آنفاً

فقيل: لذكر أن له حاجة عرضت مهمة.

فدعا بكرسى فجد عليه ثم أن له، فلما مال بين يديه قال:

يا أمير المؤمنين: إني انصرفت إلى منزلى من الموكب: فلقبتنى أختى فلاتة بنت عمرو، فرأيت من جمالها: وعقلها، ودينها: ما رضى عنها الأمير المؤمنين: فجئت لأعرضها عليه.

فاطرق المنصور وجعل ينكت الأرض بخير زانة فى يده وقال أخرج ياكك أمرى.

فلما ولى قال للرجل اسمه ربيع: لولا بيت قلته جرير فى بنى تغلب لتزوجت أخته، وهو قوله

لا تطلبن خنولة فى تغلب فالزنج أكرم منهنم أخوالاً

فأخاف أن تلد لى ولداً فيغير بهذا البيت.

(٢) المراغة: الأذن. فالأ: أخطأ رأيته وضعف.

فعل ابن عمرو حين رام رماحهم
فجعوا زياداً بلبنه وتنازلوا
ومرطين خيولهم بفنائهم
كان "ابن نديّة" فيكم من نجنا
وابنا "زبيبة" عنتر وهراصة
سل "ابن جيفر" حين رام بلادنا
و"سليك" الليث الهزبر إذا عدا
هذا "ابن خازم بن عجلي" منهم
لبناء كل نجيبة لنجيبة
فلنحن أكرم من كليب خثولة
وبنو الحباب مطاعن، ومطاعم

أرأى رماح الزنج ثم طوالاً^(١)
لما دعوا للنزال ثم نزالاً^(٢)
وربطت خولك شبيهاً وسخلاً^(٣)
وخفلف المتحمل الأثقال
ما إن ترى فيكم لهم أمثالا
فراى بغزوتهم عليه خيالا^(٤)
والقصر عباس علكو فعلا
غلب القبال نجدة ونوالا
لست ترب عندها الأثبالا
ولأنت ألام منهم أخوالا
عند الشتاء إذا تهب شمالاً

وهو لا ينسى لكى يحكم حلقات العدا أن يفضل عليه الفرزدق فيقول:

قد قمتُ شعرك يا جريرُ وشعره
فقصرت عنه يا جرير وطالا
ووزنتُ فخرك يا جريرُ وفخره
فخففت عنه حين قلتُ وقالوا

وللملاحظ هنا أن الشاعر لم يغضب لهجاء شخص، على نحو ما فعل الحيقطان، وإنما رأينا يغضب لبني قومه الزنج، ويذكر بالمواقع التي انتصروا فيها على العرب، وكيف يربطون في فنائهم الخيول، في الوقت الذي يربط فيه جرير حوله الشياه والمخالا.

(١) ابن عمرو. هو حفص بن زياد بن عمرو المتكى، كان خليفة أبيه على شرطة الحجاج فغلب رباح شار الزنجى على الفرات، فتوجه إليه حفص بن زياد فقتله رباح، وقتل أصحابه واستباح عسكره، وفي النفاض ص ٨٨ هو زياد بن عمرو وقد قتله رباح زمن الحجاج بن يوسف.

(٢) زياد : والد جعفر بن عمرو.

(٣) للشويه : جمع شام.

(٤) ابن جيفر : هو للعمان بن جيفر بن عباد بن جيفر بن الجلندی، كان غزا بلاد الزنج فقتلوه وغلغموا عسكره.

وهو يذكر بدور السود الخالصى السواد فى العرب ثم يذكر بأبناء السود ولوات، ويسميه النجيبات ليزيد الألم على العرب الذين يسمون حرائرهم نجيبات، ثم يذكر أن خثولتهم أنجب من خثولة كليب.

٣- أما الشاعر الثالث، فهو عكيم الحبشى^(١)، وقد قيل إن علماء أهل الشام كانوا يأخذون عنه، كما أخذ علماء أهل العراق من المنتجع ابن نبهان.

وقد سمع عكيم الحبشى مرة أن حكيم بن عياض الكلبى يقول :

لا تفخرن بخال من بنى أمد فإن أكرم منها الزنجُ والنوب

فلذا بهذا الشاعر الحبشى يحس أنه أهين، وأنه لابد أن يقتص للسود، وكان أن قال:

ويم غمدان كنا الأسد قد علموا	ويوم نثرَب كنا فُخلة العرب
وليلة الفيل إذ طارت قلوبهم	وكلهم هاربُ مُوفٍ على قتب
منا النجاشى، وذا الخفضين صهرم	وجدُ أبرمة الحامى أبى طلب
هبنى غفرتُ لعنان تهكمهم	فما لحمير، والمقوال فى النسب
جمارة جمعت من كل مجزية	جمع الشبيكة فوق الزاخر للجب

من كل هذا نرى أن أول الأصوات الصاخبة التى ارتفعت على العرب كانت من السود، فقد جهروا لهم بالقول، وسخروا منهم، ورفعوا أنفسهم عليهم.. وقالوا ما قالوه بغضب وبغف، لا على حياء كما كانوا قبل مجئ الإسلام.. وهكذا يكون الشعراء السود هم "الشعوبيون الأول" الذين قالوا ما قالوه بانفجار وعنف، أما الذين شغبوا على العرب فى العصر الأموى من غير السود كزياد الأعجم، وإسماعيل بن يسار، وابن ميلاة فقد كانت نبرتهم خافتة وعلى شيء من التعلل، وحتى الذين صرخوا فى وجه العرب فى العصر العباسى أعتقد أن عنفهم كان دون عن عنف السود.

(١) رسائل الجاحظ ١٩٨ ١٩٩، بين العرب والحشة ١٣٧، ١٣٨.

ولهذا فنحن نخالف الدكتور محمد نبيه حجاب حين يقول: "وإذا تطرق الحديث إلى الزوج وهم موالى النوبة، كنصيب وسنيح فى الإسلام، وعبد ياليل فى الجاهلية، فيجدر بنا - حينما نشير إلى موقفهم من العرب أن نقرر أنهم كانوا أقل الشعوب عصبية على العرب، وقد يرجع السبب فى ذلك إلى قتلهم، وضعفهم، وماضيهم الذى لم يبلغ من الحضارة ما بلغه الفرس والروم"^(١) فمع أن الزوج ليسوا موالى النوبة، ومع أن الاستشهاد بعبد ياليل لا يدعم القضية التى يراد إثباتها، إلا أن الذى لا شك فيه أنه من خلال القصائد التى أوردها، ومن خلال الغضب الذى يطفح منها فى هذا الوقت المبكر فى عهد الأمويين، نزع أن السود كانوا (رود) للشعوبية، وأنهم لم يقتلوا عن الذين خاشنوا العرب وغاصبوا بل زلوا عنهم.

وإذا كان الدكتور محمد نبيه حجاب يستشهد على قوله بأن الفرزدق حين قال:

وخيرُ الشعر أشرفهُ رجالاً وشرُّ الشعر ما قال العبيد
رد عليه نصيب بقوله :

ليس المवाद بناقص ما دام لى هذا اللسانُ إلى فؤاد ثابت
من كان ترفعه منابت أصله فسيبوت أشعارى جعلن منابتى
إنى ليحسدنى الرفع بنلوه من فضل ذلك وليس بى من شامت

ثم يقول (وفى تلك الأبيات من التسامى والتطاول ما لا يخفى، من حيث أنه لم يتمسح بالأصول والجدود، وإنما قد فخر بقلبه ولسانه، وهل المرء إلا بهذين الأصغرين؟ كما فخر بشاعريته، وهى عنده أسمى من الأصول التى يزدهى بها العرب)^(٢).

ونحن من جانبنا نرى أن نصيباً بالذات لم يكن له نصيب فى الهجاء على عادة الشعراء فى عصره، ويروى أنه سئل لم لا يقول الهجاء؟ فقال: رأيت الناس

(١) الصراع الألبى بين العرب والمجم ٥٠ وما بعدها.

(٢) الصراع الألبى بين العرب والمجم ٥٠، ٥١.

رجلين إما رجل لم أسأله شيئاً فلا ينبغي أن أهجوه فأظلمه، وأما رجل سألته
فمنعني، فنفسي كانت أحق بالهجاء إذ سولت لي أن أسأله وأن أطلب ما لديه.

ومع هذا فإنه يروى أن جريراً مر به وهو ينشد فقال له: اذهب فأنت أشعر
أهل جلدتك.

فقال نصيب: وجلدتك يا أبا حزره^(١).

ويبدو من هذا أن غضبهم الحاد والمتفجر كان بعد أن أصوا بعد عهد
الخلفاء أن النظرة إليهم بدأت تتغير، وأن الأمويين يؤكدون للنقاء العنصري^(٢) ومن
ثم كانت صيحتهم، وكان شعرهم هذا للغاضب الذي نزع من أقصى الشعر الذي
قاله الشعوبيون في العرب، كما يزعم أنهم كانوا الرواد الحقيقيين للحركة التي
تحدثت تحت اسم "الشعوبية".

ولكن صوتهم ومن بعد ذلك لأسباب أهمها أن السود لم يكن لهم دور
كالفرس مثلاً في المجتمع الجديد ولأن الفتوحات لم توجه إليهم ثم إنهم قد حرصوا
في المجتمع الجديد في وظائف بعينها، وإنهم بعد انفجارهم فيما سمي "ثورة الزنج"
رضوا أن يتصالحوا - على مضض - مع المجتمع الذي عاشوا في إطاره..
وسارت الحياة؛ ولعل من الغريب أنا لا نعرف الكثير عن هؤلاء الرواد الغاضبين
الممثلين في الحيفطان، وسنيح، وعكيم ولا شك أنه كانت هناك مؤامرة من الصمت
قد ضربها الكتاب العرب عليهم.

(١) الأغاني ١/٣٣٨.

(٢) كما هجاهم جرير لفرزدق، ومن ذلك قوله في أسود كان يجلس في صدر مجلس
للشراب.

جولسك في صدر الفرائش مثلاً	ورأسك في الإكليل إحدى لكباتر
وما نطفت كأس ولا لذ طمها	ضربت على حلقها بالمشاقر
(الأغاني ٣٣/٣٧٥)	

ثانياً: ثورة الزنج بالبصرة، أسبابها، ومداها، وآثارها، ودور قائدنا :

(١) لثورة الزنج^(١) التي قامت في البصرة قيمة خاصة في التاريخ الإسلامي ذلك لأنه يمكن القول بأنها كانت أول ثورة على النظم الإقطاعية في العصر الإسلامي، ولأنها تلقى ضوءاً كاشفاً وعميقاً على طبيعة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بل والفكرية في القرن الثالث الهجري، ثم لأنها أخيراً تدل على حيوية الإنسان الأسود، وعدم قبوله بالظلم، بل ومقارعة لهذا الظلم في الوقت المناسب، ثم مسيرته في العنف إلى غير غاية؛ ونحن نزعم ابتداءً أن هذه الثورة التي طلبت بحسم بالعدل الاجتماعي، وجعلت من همها المطالبة بتعديل وضع الإنسان في مجتمع ملئ بالتناقضات وبالقضايا الميتافيزيقية، وبالعبثية، وبالعدمية، في الوقت الذي يعيش هذا الإنسان الأسود على حافة هذا المجتمع المريض حياة كالموت، أو موتاً كالحياة. أقول لو نجحت هذه الثورة لكانت خيراً وبركة على المجتمع العربي: ولتأخر قليلاً إنهياره، ذلك لأن هذا المجتمع حين لم تحترم إنسانية الإنسان فيه، تفتت من الداخل، وكان ينزل، ويتساقط ورقة ورقة، وفكراً فكراً.

وعلى كل فقد انتهت هذه الثورة حين كان المجتمع العباسي قد غدا مجتمعاً مريضاً، في تلك الفترة التي لصطلح المؤرخون على تسميتها (العصر العباسي الثاني ٢٣٢-٦٥٦).

وفي هذه الفترة رأينا العباسيين ينقلون ولاءهم من الفرس إلى الأتراك وهم في كلا الأمرين - جرياً على وجهة نظرهم في الحكم - قد غيروا من مكانة الإنسان العربي، حتى غدا في نهاية الأمر مضطهداً وبعيداً إلى حد ما عن تطور الأحداث.

وقد كان للتاريخ للحلم للتحوّل إلى الأتراك حين أراد الخليفة الثامن المعتمد - وهو ابن هارون الرشيد من أم تركية - أن يغير ميزان القوى في الأمة بحيث ترجح الكفة إلى جانب الأتراك، وكان أن اتخذ له حرساً منهم يبلغ أربعة

(١) الزنج بفتح الزين: وتكسر: جيل من السودان، وهم الزنوج (القاموس المصباح).

آلاف، وكان أن بذروهم على أكثر من جهة حوله، وحين رأى للتذمر يسود العاصمة (مدينة السلام) نراه يتحول بهم إلى مقر للخلافة جديد هو (سامرا) وهناك ازدادت عزلته عن الجماهير، وأصبح الأمر شيئاً فشيئاً يسلم إلى هذه الطبقة العسكرية الجديدة، وقد وصف هذا ابن اللطفاقي بقوله: "إن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المستول على المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في أيديهم كالأسير: إن شاموا أبقره، وإن شاموا خلعه، وإن شاموا قتلوه"^(١).

ومن خلال هذا كله تشجعت أجزاء من الأمة على الانفصال وبخاصة في إيران ومصر، واختلت نظم الإدارة، وظهر ضعف الاقتصاد، وظهر أسلوب المصادرة بحيث يصادر الأقوى الأضعف في سلسلة لا تنتهي، ولعل هذا يوضح إنشاء ديوان يسمى "ديوان المصادرة" وفي الوقت نفسه قلت أهمية الخلافة والوزارة، وأخذت المكونات الاجتماعية تتحرك لتطالب بالعدل الاجتماعي، ولتحاول وقف حركة للتصدع التي سرت في النظام الذي يحكم الخلافة"^(٢).

والظاهرة الجديدة بالعناية هنا أن طبقة الفلاحين قد أخذ يظهر لها ثقل في المعركة، فحين ثار "المبرقع اليماني" في عهد الخليفة المعتصم، انضم إليه الفلاحون في منطقة الأردن، وقد رثى عدم مهاجمته حتى يأتي موسم الزراعة، فما دام الفلاحون قد أصبحوا عصب هذه الثورة فإنهم بلا شك سينصرفون إلى الحصاد حين يجيء، وقد انصرفوا بالفعل وتمت تصفية هذه الثورة.

ثم إن ثورة الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بطبرستان كانت ترجع في جانب منها إلى وضع اليد على أرض ينتفع بها كثير من الناس، وبخاصة للفلاحين الفقراء"^(٣).

والذي يهمني هنا هو أن طبقة الفقراء كانت متذمرة، ويعتدى على حقوقها، وتسلم الإقطاعيات الكبيرة للمكبريين الأتراك، وهذه الإقطاعيات كانت تحتاج إلى اليد العاملة من السود.

(١) للفرخى في الآداب السلطانية ٢٢٠: تاريخ العرب ٢/٢٥٠.

(٢) للمعد ٧٣ عن مجلة نهضة إفريقية، مقال عن ثورة الزنج د: عبده نبوى.

(٣) للطبرى ص ١١ وما بعدها، دراسات في المصور العباسية المتأخرة ص ٥٩، وما بعدها، مجلة الهلال (المعد ٦ السنة ٧٥ مقال الدكتور على الخريوطى).

وهذه الإقطاعيات لم يكن أمرها يمسيراً، ذلك لأنها كانت تصل أحياناً إلى ولاية بأكملها على أن يؤدي منها، مبالغ، وهديا للعاصمة.

ثم إن هذه الإقطاعيات لم تكن مقصورة على العسكريين الأتراك، وإنما كانت لها جذور سابقة من قبل، وذلك عندما تحول كثير من العرب وبخاصة حين تنحى كثير منهم عن الصدارة في عهد العباسيين.. إلى ملاك للأرض ثم قوى هذا الاتجاه بانتقال الحكم إلى العباسيين لعدة عوامل منها نكبة الارستقراطية الأموية، واشراك الأعاجم في الحكم مما أضعف عنجهية العرب، وقلل من شعورهم الارستقراطي فأخذ بعضهم يشغل بالمهن الحرة ومنها زيادة الاختلاط بالفرس وتقدم المجتمع في الحضارة وضعف الروح البدوية الأصلية، فأدى هذا الاتجاه إلى دخول المجتمع في دور زراعي^(١).

وبالإضافة إلى هذا كانت للمكاسب كبيرة من التجارة التي تقوم بها الطبقة الوسطى للطبقة العليا، وكان التضخم المالي بدوره عاملاً من عوامل اقتناء الملكيات للكبيرة، ولما كانت هذه الملكيات تحتاج إلى الأيدي العاملة الرخيصة والقادرة في الوقت نفسه، فلما نرى أنه سرعان ما تكونت "شركات" لشراء العبيد السود، أو اقتناصهم، ثم تكتسبهم في هذه المناطق وفي غيرها، ومن هنا ظهر ما يسمى بعبد الأرض وهو "لقن"^(٢).

ومع أنهم كانوا يغطون أكثر من موقع للخدمة، إلا أن تمرکزهم الحقيقي كان في سهول البصرة (فرات البصرة) ففي هذه المنطقة كانوا يقومون بعملية كسح السباح" عن الأراضي لتصبح أكثر جودة، أو بعبارة حديثة كانوا يقومون "بعملية استصلاح الأراضي" وذلك بكسح الطبقات الملحية وللوصول إلى الأرض الخالية من الأملاح والتي تكون بعد رفع هذه الطبقة عنها صالحة للزراعة، وفي الوقت نفسه كان يستفاد من هذه الطبقة للملحية "وهو عمل جاد شاق جداً"^(٣).

(١) دراسات في المصور للعباسية المتأخرة ١٩.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ٢٨٣.

(٣) ظهير الإسلام ٧٠/١، الطبري ١٧٤/١١.

وقد انضم إليهم فى هذه المنطقة بعض العبيد الذين أطلق عليهم "الأبق" ومن الأماكن المجاورة لكثرة الضغط عليهم^(١).

ويجب ألا ننسى أن المشكلة قديمة، فمن قديم وللزواج يتكسبون بغرات البصرة، إلى حد أن الناس شكوا منهم وبخاصة بعد أن أمروا عليهم رياح شيرزنجى^(٢)، وقد بعث الحاج إليهم من قائلهم، وكان مما قاله حين قدم البصرة: "يا أهل البصرة إن عبيدكم وكساحيكم رأوا معصيتكم فقتلوا بكم، وأيم الله لئن لم تخرجوا إلى هؤلاء الكلاب فتكفوني أمرهم لأعقرن نخلكم، ولأنزلن ما أنتم له أهل"^(٣)، ويبدو أن الحاج بعد أن شئت الكثير منهم، قد أصبحوا طائفة مستضعفة بعيدة عن التحرك كتكتلة كبيرة فترة كبيرة من الزمن.

وعلى كل فإذا كنا قد عرفنا أنهم كثروا فى هذا المجتمع لرخص أثمانهم إلى حد أنهم لم يكونوا عند الأغنياء أو ساط للناس فقط، ولكنهم كذلك عند الفقراء..^(٤) إذا كنا قد عرفنا ذلك أدركنا أن تركيزهم الحقيقى كان فى سهول البصرة، لحاجة هذا العمل للشاق إليهم، ولقد كانوا فى هذه السهول يعملون على هيئة كتل بشرية كبيرة كل كتلة يتراوح عددها بين ألفى عبد وخمسة آلاف عبد، ولقد بلغ عدد إحدى الجماعات على نهر النجيل خمسة عشر ألفاً^(٥)، فهم يشبهون إلى حد ما نسميهم عندنا "عسال السراويل"، ولقد كانت هذه الكتل السوداء منبوذة من المجتمع، ومستوقعة على أحزانها، فقد كان أفرادها لا يتزوجون من خارج هذه الدائرة السوداء، وبعضهم كان يمنع من الزواج، وكثيراً ما كانوا يقيمون فريسة للأمراض التى تنتشر فى مناطق العمل الملينة بالمستنقعات، كما أن عامتهم لا يفهمون اللغة العربية، وصلاتهم كانت تقتطع بالأماكن التى يغدون منها وبخاصة شرق إفريقية، وبالإضافة إلى هذا كانوا يعملون بلا مقابل تقريباً، فأجرهم كان يقتصر على طعام غليظ مكون من الطحين، والتمر والمسيق^(٦).

(١) الطبرى ١١/١٧٧.

(٢) معنى شيرزنجى: أسد الزنج.

(٣) الجزء الحادى عشر من تاريخ مصنف مجهول ٣٠٣-٣٠٨.

(٤) ظهر الإسلام ١/٧٣.

(٥) الطبرى ١١/١٧٧.

(٦) الطبرى ١١/١٧٦.

ولا شك أنه كانت تصل إليهم الأفكار التي كان يمثلها بها العصر، والتي كانت أسسها تصاند عجزهم، وتدفعهم إلى التلصص من الماهنة التي يعيشون فيها ولقد تعاطفوا مع الشيعة لأنهم كانوا يحسون أنهم طائفة مظلومة من المجتمع، ومكبوتة في الوقت نفسه، ولكن الفكر الذي كان يحركهم كان فكر الخوارج كما سيجي بعد ذلك، وقد وقف (هاملتون جب) عند القول باتصالهم بالشيعة، كما رأى - وهذا ما لا نوافقه عليه - أنهم كانوا لعبة في أيدي الشيعة.. واستغل الشيعة معارضة النظام السني - مألدي هذه الطبقات من مظالم اجتماعية واقتصادية، غير أن ما أحرزوه من نجاح بين أعراب بادية الشام وأكرار السواد وعوالم المدن اقتصر على خلق نواة للفوضى الاجتماعية، دون غايات بناء أو مثل عليا ثقافية ولذلك لم تكن هذه الحركات الشعبية ذات أهمية كبيرة في تطور الثقافة الإسلامية.. الخ^(١).

ونحن نعتقد أن المراكز الفكرية لثورة الزنج كان هو فكر الخوارج الذي يقوم على اللينابيع الأصلية للإسلام دون تأول أو ترخص، والذي يقف ضد الشيعة الذين يقولون بوراثنة الإمامة في أبناء علي، ويقف ضد المرجئة الذين اعترفوا بالأوضاع التي أمثلتها القوة ثم قالوا فلنرجىء الحكم إلى الله يوم القيامة، ثم إن فكر الخوارج يرى أن من حق الأمة إسقاط الحاكم الذي يحيد عن الطريق الذي سلكه الله ورسوله، وفي الوقت نفسه تكون (الإمامة) من حق الذي (تختاره الجماعة حتى ولو كان عبدا أسود) وفي هذا نزعة ديمقراطية أصيلة، ديمقراطية دينية إن صح هذا التعبير، ثاروا بها على النزعة الأرستقراطية التي أراد أهل قريش فرضها في اختيار الخليفة، وهم لهذا يطلقون على من يختارونه إماماً لقب (أمير المؤمنين) وتبعاً لهذه النظرية لم يعترفوا بالخلافة إلا لأبي بكر وعمر بن الخطاب ثم بعد ذلك لمن اختاروهم هم، أما عثمان فلا يعترفون بشرعية خلافته إلا في السنوات الست الأولى منها، وعلى اعترفوا بشرعية خلافته من بدايتها حتى معركة صفين^(٢).

وكما كانوا ضد سائر المذاهب، كانوا كذلك في السلوك الإنساني الديني ضد جميع الفرق الأخرى، قالوا العبارة بالعمل، وكل كبيرة كفر، لهذا كان مخالفوهم

(١) دراسات في حضارة الإسلام. ترجمة الدكتور إسماعيل، محمد نجم، محمود زايد ص ٢٥

(٢) الخوارج والشيعة، يوليوس زهورن. ترجمة د. عبدالرحمن بدوي (ز)، (ج).

(مرتدين)، ولما كان حكم المرتد في الإسلام هو القتل، فإنهم جاعوا بمبدأ يسمى (الاستعراض)^(١)، ومعناه إعطاء المشروعية للاغتتيال الديني. فالرفض والعنف عند الخوارج هو الأساس الذي قامت عليه ثورة الزنج، ولقد كان هذا الفكر معروفاً في العصر ومن مكوناته كما سنرى.. وبالإضافة إلى هذا المرنكز الفكري، كانت توجد أيضاً أفكار للقرامطة، ومع أن الدكتور علي مصطفى الخربوطلي يرى أنها عامل من عوامل قيام ثورة الزنج إلا أننا نرى أن هناك اختلافاً في الدوافع والاتجاهات التي كانت وراء أو أمام كل ثورة صحيح إنها لو التقيا التقاء حقيقياً لتغير وجه التاريخ - كما يقول عارف تامر^(٢) - وزالت الدولة العباسية من الوجود ولكن كل واحدة تختلف عن الأخرى لاختلافها بينا.

ونحن نعرف أنه كانت هناك محاولة لاستيعاب هذه الثورة من جانب القرامطة، بل إن "حمدان قرمط" نفسه خرج ليفاوض.. على بن محمد بالقرب من البصرة، وكان فيما قاله له: أنه صاحب مذهب، يتبعه مائة ألف يحملون السيف، وإن في اتحادهما حركة للزنج وقضاء على العرب، ولكن "علي بن محمد" رأى عدم الاعتماد على القرامطة، أو الانضمام إلى صفوفهم، ولذا أثار "حمدان قرمط" العودة إلى مقره، في انتظار ما يسفر عنه الصراع بين الزنج والسلطات العربية^(٣).

وقد ارتفعت بين السود في أول الأمر دعوات تطالب بما جاء في الكتاب الكريم "إنما المؤمنون أخوة" كما أنهم دعوا إلى إيقاف العقاب البدني، وقد أنشد شاعرهم هذين البيتين:

إن كنت تطالب فضلاً إذا تكسرت ومجداً
فكن لمبدك خلاً وكن لخالك عبداً

وقد وقفوا كثيراً عند الحديث الشريف الذي يقول فيه شر الناس من أكل وحده، ومنع رفده، وضرب عبده، وقد وجدت هذه المطالبات المشروعة قبولاً عند كثير من أحرار المسلمين الأتقياء، ولكنها وقفت عند حد الأمنيات الطيبة، وقد

(١) المصدر السابق نفسه (ج)، (ط).

(٢) للقرامطة ٦٣، الهلال العدد ٦ لسنة ٧٥.

(٣) المجتمع العربي ومناخضة للشعبية د. إبراهيم الحوي ١٥٨، ١٥٩.

انتشرت روح الثورة بين جميع العبيد في بلاد العراق، ولم يكن ينقصهم سوى زعيم ينظم صفوفهم ويبلور مشاعرهم وأفكارهم^(١).

(ب) من كل هذا نرى أن للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت تدفعهم دفعا عنيفا في اتجاه الثورة، بالإضافة إلى اعتناقهم "أيديولوجية" ثورية هي أيديولوجية الخوارج، وقد بذلت برفض الفساد الذي أخذ يستشري حولهم والمتمثل في العفن الكامن في الجهاز الحاكم وانعزاله عن اهتمامات الأمة، وانشغاله بالذات الخاصة به، وبالمنتجات الخاصة به، وكذلك يرفض هذا اللون من الإقطاع الذي كان يأخذ كل شيء من الإنسان عملا، وعرقا، وصحة، ثم لا يعطيه إلا القليل، ثم إن الشعور بالولاء الذي كان يربط العبد بسيده في المجتمع الإسلامي لم يكن متوافرا عند هؤلاء السود^(٢) لأنهم كانوا مذبذبين لا بالنسبة للبيض فقط، ولكن بالنسبة للعبيد للبيض كذلك.

وفي ضوء هذا رأيناهم لا يطالبون بالحرية الفردية، ولكن بحرية طبقتهم العاملة، ورأيناهم يرفضون النظريات المسبقة والجامدة، والتي ترسم للإنسان حركته بعد ذلك، فأولاد الطبقة العليا لا بد أن يكون لهم دور في هذه الطبقة، وأولاد الطبقة الكادحة لا يحق لهم تقب الجدار الذي يحيط بهم، ومن هنا يأتي دور الثورات في تحطيم أطر الثبات هذه من أجل مزيد من الحرية للإنسان.

وإذا كنا نعرف حديثا^(٣) أن تركيب الثورة يتكون من ثلاث مراحل هي:

١- مرحلة الإرهاب.

٢- مرحلة حرب العصابات.

٣- مرحلة الحرب الشاملة.

ونعرف في الوقت نفسه أنها تعتمد على سكان الريف، وعلى بلد صديق في حدود مشتركة، وعلى امتداد وعمق الأرض اللذين يكملهما نقص للمواصلات، وأخيراً على غياب قوات العدو منقولة بالطائرات.. إذا عرفنا ذلك أدركنا أن ثورة

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) دراسات في العصور العباسية المتأخرة ٧٧.

(٣) الثائرون تعريب خيرى حساد ١٣٢ وما بعدها.

الزنج إلى حد كبير سارت في هذه الخطوط بعد أن أعطتها الأوضاع العفنة إشارة المرور الخضراء.

فهم قد قاموا في أول الأمر بعدد من الاستقرايات، ثم تحركوا بعد ذلك على جبهة عريضة في السهول الواقعة بين مصب دجلة للعواء - (شط العرب الحالي) وبين واسط، وهذه الجبهة تكثر فيها المجارى، وتتكاثف داخلها الأدغال، ذلك لأن المستنقعات كانت تغمر القسم الشمالى في الوقت الذى كانت فيه الأراضي حول دجلة الموراء مغمورة بشبكة من القنوات الكثيفة: قدر عددها بمائة ألف قناة.. وطبيعى أن يساعد هذا الوضع الجغرافى على حرب العصابات، ويجعل حركة الجيوش للمنظمة أمراً عسيراً كما يساعد على إطالة أمد الحرب، وعلى المباغتات التى تنشأ عن جهل المهاجمين بالمسالك الخفية والقنوات المتعددة، وأخيراً تجعل إقامة وسائل الدفاع أمراً سهلاً، وإزالتها أمراً صعباً، وقد استغل الثوار هذه الأوضاع، ولم ينجح الجيش العباسى فى محاربتهم وإخضاعهم إلا بعد أناة طويلة ومعرفة جيدة للمنظمة بعد خبرة طويلة وخسائر فادحة^(١) والملاحظ أن الزنج لم يقفوا وحدهم، ذلك لأن جماعات كثيرة من الساخطين قد انضمت إليهم، فقد ساعد بعض الأعراب للزنج فى الهجوم على البصرة عام ٢٥٧هـ، وحين تمكنت السلطة من ضرب الباهليين وصلب رئيسهم عام ٢٥٨هـ انضم باقى رؤسائهم إلى الزنج، وفى عام ٢٦٦ نهب جماعة من الإعراب كسوة للكعبة، وانضم بعضهم إلى ثورة الزنج، كما أيد بعض أهالى القرى فى منطقة البصرة الثورة، وزودها بالتموين.

بل إن الأمر لم يقف عند حد التأييد من المدنيين للساخطين، ذلك لأن الفرقة السودانية فى الجيش العباسى قد انضمت إلى الثورة صراحة^(٢).

ونحن نعرف أن سير المعركة بدأ بغارات على القرى المجاورة، ثم امتد إلى المناطق الحيوية مثل مرفأ "الأبله" للهام والقريب من البصرة ثم أخذ يوجه بعد ذلك الضربة لثر الضربة حتى خضعت للثورة مناطق كثيرة، بالإضافة إلى أن كثيرين تركوا المنطقة، وبخاصة أهل البصرة^(٣).

(١) دراسات فى المصور العباسية المتأخرة ص ٨٠.

(٢) الطبرى ٢١٨/١١، دراسات فى المصور العباسية ٨٣، ظهر الإسلام ٧١/١.

(٣) الطبرى ٢١٥/١١.

والملاحظ أن هذه الانتصارات لم تكن عشوائية، وإنما تمت بتخطيط دقيق، وبمهارة في استخدام المواقع وتحصينها، والمحافظة على خطوط التموين، وعلى المواصلات، وقد استخدم نظام الجاسوسية بمهارة، وكذلك حرب "التبويب" أي الكمائن سياسة إلقاء الرعب في الجيش المضاد^(١)، بالإضافة إلى إنشاء السدود في القنوات والأنهار لعرقلة سفن البحرية، وعرقلة الجيش البري كذلك.

والملاحظ أنهم كانوا في عمليات تقدمهم يأخذون العبيد ويحررونهم^(٢) مما يلقي ضوءاً غامراً على أن هدفهم الكبير كان تحرير العبيد.

وقد رأيناهم مثلاً حين عزموا على إسقاط البصرة، يقطعون مواصلاتها بدجلة، ثم يضربون عليها حصاراً اقتصادياً: ثم يخربون المدن من حولها، ثم نراهم في ١٧ شوال عام ٢٠٧هـ يركزون الهجوم عليها في أثناء صلاة الجمعة من ثلاث جهات، وهناك أعملوا القتل والسلب ثم انسحبوا خوفاً من وجود "الكمائن" ثم عادوا يوم الإثنين ففتحوها، فقتلوا منها ما يقارب ٣٠٠,٠٠٠ إنسان، وكذلك سبوا النساء والأطفال حتى كان نصيب كثير من النافرين عشرة أرقاء أو أكثر لكل واحد منهم^(٣)، وهم الذين ثاروا أصلاً من أجل تحرير الرقيق، وقد خدعوا أهل البصرة حين أعطوا أماناً لكل من يتوجه إلى مكان بعينه، فلما ذهب كثير من الناس إلى هناك غدر بهم. فكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة، فقتل ذلك الجمع كله ولم يسلم إلا القادر منهم، وعظم الخطب بالقتل والتحريق والنهب فمن كان من أهل اليسار أخذوا ماله وقتلوه، ومن كان فقيراً قتلوه لوقتته^(٤) وكان للقائد "أبو الليث" يحض الزنوج على القتل بكلمة "كيلو" حتى أفنى المدينة^(٥).

وقد ضربنا هذا المثل الذي تكرر أكثر من مرة لنوضح أن الثورة انحرفت عن هدفها الأصلي وهو تحرير العبيد اجتماعياً وإنسانياً، ذلك لأننا سنراهم بعد ذلك يكونون "قومية سوداء" مهيمنة، تفعل بالناس لا مثل ما فعلوا بهم ولكن أقسى بكثير مما فعل بهم.

(١) دراسات في المصور العباسية المتأخرة ٨٦ وما بعدها.

(٢) الطبري ٢١٣/١، ٢٧١.

(٣) دراسات في المصور العباسية المتأخرة ٨٨.

(٤) بطولات عربية محمود الشرقاوي ٤٨.

(٥) الطبري ٢٢١/١.

ولكى نعطي صورة عامة عن فظائع هذه الحرب التي استمرت طوال أربعة عشر عاماً (٢٥٥-٢٧٠هـ - ٨٦٩-٨٨٣م) نذكر أن ضحاياها قدر بأكثر من نصف مليون، وعقب إحدى المعارك كان عدد رموس المسلمين التي لم تطلب من الكثيرة للرجة أن الزوج أفرغوا رموس القتلى هذه في إحدى القنوت التي حملتها إلى البصرة ليتعرف عليها أهلهم وأصدقائهم، ولقد هجر الناس بلاد البصرة ووسط الأهواز والأبلة.^(١)

وعلى كل فنحن قد رأيناهم أخيراً يتحولون عن الأهداف الحقيقية للثورة إلى حد أن الذين كانوا يتعاطفون معهم قد كرههم، بل إن بعض السود قد انقلبوا على الثورة حين رأوها تسيير وراء للنماء، وحين رأوها لا تستطيع كبح جماح عنفها، وإلى حد أن الناس قد تنافروا "لجهاد" ضدهم^(٢)، بالإضافة إلى عدوة الطبقة العليا للثورة أساساً حين رأَت مصالحها معطلة، وحين رأَت هذه المساواة التي يتصالح بها مستجملهم وعبيدهم شيئاً ولحداً^(٣)، ولقد كان مما أثر على الناس حقاً أنه كان ينادى في معسكرات الزنج على القرشيات، وبنات العرب، وبنات الناس "وتباع الجارية من كل هؤلاء بالدرهمين والثلاثة، لكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون يطوئن الزنج، ويخدم النساء للزنجيات، كما تخدم الوصائف"^(٤).

وهكذا تحولت أهداف هذه الثورة من العدالة الاجتماعية إلى نوع من حرب الأجناس، فبدلاً من أن يطالبوا بتصفية الرق وإتاحة الفرص لهم في المجتمع طالبوا بأن يكونوا سادة يمتلكون العبيد، وبوجه خاص يمتلكون سلاتهم القدامى.

وقد حلل هذه الثورة بالإضافة إلى ثورة القرامطة للدكتور طه حسين^(٥)، فقد رأى أن طابعهما معاً كان "الخروج على النظام السياسي والاجتماعي، والانتساب إلى آل علي، وغايتهما واحدة، هي تحقيق العدل في الأرض بعد أن أفسدها الظلم والجور، ونتيجتهما واحدة هي هذا الروح الذي ملأ القلوب، وهذا الهول الذي سفك

(١) تاريخ الغرب ٦٠٥/٢.

(٢) دراسات في المصور السياسية المتأخرة ١٠٤.

(٣) إمبراطورية العرب: جون باجوت جلب ترجمة خيرى حماد ٢٢٠، ٢٢١.

(٤) مروج الذهب ٣/٣٥٠.

(٥) ألوان ١٨٣.

الدماء، وأزرق النفوس ودمر الأمصار، وهذا الجهد الضائع الذي لم يزل ظلماً إلا ليقيم مكانه ظملاً آخر، والذي يحاول أن ينصف الناس فلا يبلغ من الإنصاف شيئاً، أكتب على الإنسانية إن أن تكون الجهود التي تبذلها في سبيل الإصلاح مضیعة، وأن يصبح الذين يحاولون إزالة الظلم وقرار العدل أنصاراً للظلم وأعداء للعدل، كانوا يريدون أن ينقذوا أنفسهم وينقذوا الناس من الظالمين، فلم يكتفوا بالإفقاذ، وإنما جزوا السادة ظملاً بظلم، فكان هذا أول الشر، ثم تجاوز ظلم الظالمين من الأعداء إلى ظلم الأنصار والأتباع، فأصبحت الحرية استبداداً، وأصبحت المساواة استتاراً، وأصبح الإنصاف بغياً وعدواناً.

وعلى كل فقد أعطى هذا "الموفق" ^(١) الذي يقول الدكتور طه حسين أننا نضلّمه إذا وزنا بينه وبين كراسوس" قانع ثورة العبيد في إيطاليا ^(٢). أعطى هذا له كل أسباب الانتصار على الزنج، فقد ركز على الإحاطة بطبيعة المنطقة وعلى تأمين خطوطه وعلى الحصار الدقيق للمنطقة التي يهيمنون عليها، ثم إنه قد أمن كل من يضع السلاح، وقد كان لهذا أثره إلى حد أن قائد الثورة قتل "ابن ملك الزنج" حين عرف أنه يريد للحاق بالموفق ^(٣)، وأخيراً استطاع أن يخرب الثورة من الداخل ومن الخارج حتى أمكنه تصفيتها تماماً، وإسقاط رعوس قلائتها، وبعد أن تم له هذا أصدر الموفق "منشوراً" ^(٤) يبشر فيه العالم الإسلامي بانتهاء الخطر، ويدعو الناس إلى العودة إلى مدنهم وقراهم وإلى استئناف حياة جديدة.

(ج) إذا كان بعضهم يذهب إلى أن الفرضية للقائلة بأن الثائرين هم الذين يخلقون الثورات" فرضية صحيحة من الناحية الزمانية، بقدر ما هي صحيحة من ناحية الحوافز الإنسانية ^(٥)، فإننا نميل إلى القول بأن الإحساس بالظلم وبأن للثورة في النفوس المتطلعة إلى الخلاص هي التي تخلق الثوري.

(١) لغو الخليفة المعتمد.

(٢) ألوان ١٨٦.

(٣) الطبرى ٢٩٥/١١.

(٤) نفسه ٣٢٦.

(٥) الثورون ١٦.

فلو لم يوجد "علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن يزيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب" في هذه الفترة، لأوجدت الثورة زعيماً آخر يستطيع أن يسير بها مرحلة بعد مرحلة حتى يحقق غايتها، والمقصود منها.

وفي الحقيقة لقد ظلم هذا الزعيم ظملاً كبيراً، فالطبري مثلاً يقول عنه إنه (الفاقد) و(الخبث) في كل كتابه (تاريخ الرسل والملوك)، وقد تنبه مرجليوت إلى أنه يطلق عليه عادة اسم (القيح)^(١)، وفي جمهرة أنساب العرب نجد صاحبه لا يكف عن كلمة اللعين، وكلمة لعنه الله عقب ذكر اسمه مثل قوله (سعيد بن ضمضم بن الصلت بن المثنى بن الملحق، أعرابي شاعر من صحابة الوزير الحسن بن سهل، وكان له ابن اسمه أبو المهدي، وكانت له ابنة تزوجها صاحب الزنج لعنه الله قبل أن يقوم)^(٢).

وقد انعكست هذه النبذة على عدد من المؤرخين المعاصرين فالدكتور فيليب حتى يقول عنه: إنه ماكر يظهر خلاف ما يبطن^(٣) ومحمد عبدالغني حسن يقول: واختار المدعى الخبيث يوم عيد الفطر سنة ٢٥٥هـ يوماً لإعلان ثورته^(٤).

ومثل هذه النبذة نجدها عند الدكتور زكي المحاسني^(٥).

وقد كان من الطبيعي امتداداً لحملة التشهير أن يشكك هؤلاء في نسبة العلوي، بل لقد ذهب بعضهم إلى أن اسمه هو (بهبودا) وأصله من (ورزين) ولما كانت (ورزين) قرية من قرى (الري) فإن المقصود أن يكون فارسياً^(٦).

ونحن نمول إلى ما ذهب إليه (بروكلمان) من أن نسبته حقيقية لما كان عليه بيت زيد بن علي من كثرة العدد آنذاك^(٧).

(١) دراسات عن المؤرخين العرب ترجمة د. حسين نصار ٧٩.

(٢) جمهرة أنساب العرب ٥٨، ٢٨٣.

(٣) تاريخ العرب ٦٠٥/٢.

(٤) دراسات في الأدب العربي والتاريخ ٢٦٥.

(٥) شعر الحرب في قلب العرب ١٦٥ وما بعدها.

(٦) الطبري ١٧٤/١١: درست في العصور العباسية المتأخرة ٨١.

(٧) تاريخ الشعوب العربية ٥٦/٢.

فوالده علوى تزوج من زنجية على نحو ما يبدو من لونه ومن سحنته التى كانت قريبة من لون وسحن هؤلاء الذين عمل على تحريرهم، فنسبه يمتد إلى على بن أبى طالب وهو فى الوقت نفسه وطيد الصلة بالزنج (نلك لأن العلويين أمام الضغوط السياسية عليهم، وجرماهم الحقوق التى يجب أن تتوافر للمواطن المسلم، كانوا يميلون أكثر ما يميلون إلى التزوج من الإمامة للزنجيات، ومن واحدة من هؤلاء ولد الإمام على بن محمد^(١)).

ومن الملاحظ أن ابن حزم يشدد فى غضب على أنه لا يمت بصلة للعلويين، وأنه (على بن محمد بن عبد الرحيم العبقى) من قرية من قرى (الرى) اسمها (ورزنيين)، وهناك رواية على لسانه تقول : إن أبا أبيه عبد الرحيم رجل من عبد قيس، كان مولده بالطلقان، وأنه قدم للعراق فأقام بها، واشترى جارية سندية فأولدها محمداً أباه، فهو على بن محمد، ثم أنه شخص - فيما ذكر إلى البحرين، وأدعى أنه على بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب، ثم ذكر أن على بن محمد دعا الناس بهجر إلى طاعته، واتبعته جماعة، وابسته جماعة، وتباحثت الجماعتان فانتقل إلى الإحساء، وفى البحرين حل من الناس على حد تعبيره محل للنبي، وجبى له الخراج، وسمعوا له، ودفعوا عنه السلطة الحاكمة، ولكنه وترمنهم جماعة كبيرة، ففتكروا له، ومن ثم رحل عنهم إلى البادية .. ثم كان خروجه إلى البصرة، والدعوة إلى نفسه، ولكنه طورد عنها فخرج هاربا^(٢).

والذى يهمنى أن نؤكد أنه كان واحداً من القلقين فى عصره، والذين لم ينزعزوا عن المشكلات من حولهم، والذين تركوا على أكثر من رقعة فى العالم الإسلامى فقد رأته بغداد، وهجر، والإحساء، والبادية وفى كل واحدة من هؤلاء كان له دوراً كبير أو صغير، فقد كان بحق عاصفة من العواصف على عصره، وعلى هؤلاء العباسيين الذين كان يعتقد أنهم اغتصبوا الخلافة من أسرته ولقد كان مما يحركه فى هذه الوقت المبكر أنه رأى الخلافة تنهار. ورأى الظلم هو القانون؛

(١) راجع شخصيات إفريقية. د. عبده بدوى ص ٥٦.

(٢) جمهرة أنساب العرب. تحقيق عبد السلام هارون ص ٥٧، تاريخ الطبرى ٤١٠/٩ و ٤١٢.

ورأى أن أشياء كثيرة تنبل في نفس الإنسان؛ وأنه يجب أن لا يكون (شاهد) حضارة تسقط.. فإنه لم يكن في استطاعته أن يمنع هذا المقوط فليعمل على أن يتأخر قليلاً.. كان يعيش فيما يقول المؤرخون ببغداد متصلاً ببعض الخدم المعروفين في قصر الخلافة، يرى الفساد يملأ الأرض من حوله: كان يرى فساد السياسة؛ وفساد النظام الاجتماعي، وفساد الأخلاق وعبادة اللذة هنا وعبادة المطامع هناك، كان يرى الحياة من حوله مغامرات لا تنتهي^(١).

ووفقاً لمفاهيم عصره كان لابد أن يأتي بشيء يدهش للناس. وجميع أحاسيسهم من حوله، كالقول بأن العناية الإلهية ترشده وتؤيده، وأنه يعلم ما في الغيب، وأن النبوة عرضت عليه ولكنه اكتفى بالإمامة، وعلى كل (فقد كان هذا النحو مذهباً من مذاهب نشر الدعوة، ووسيلة إلى إثارة الجماهير)^(٢).

والذي يهملنا هنا أن نؤكد أن هذا الزعيم كان فقيراً ومضطهداً، وأنه كان يرى أن خلاصه وخلاص كل للمحورين من حوله لا يكون في الاندماج في حركة المجتمع، وإنما يكون في الانسحاب منه ثم الاصطدام ومع هذا المجتمع ومحاكمته، وإحداث حركة تغيير شاملة فيه بعد دراسته، والوقوف على نقاط للضعف فيه.

وقد أطل (على بن محمد) النظر فيمن حوله، ومع أنه رأى الفساد هو السيد في كل مكان، وأن بشراً كثيرين يعيشون حياة كالموت، إلا أنه وجد أن الحلقة الضعيفة في السلسلة هي هذه الحياة القاسية التي يحياها الزوج في (معازلهم) حول البصرة، فإذا تجاوزنا صلة (اللون) التي تربطه إلى حد ما بهم، وجدنا أنه كان موافقاً لاختياره هذه الشريحة البشرية الكبيرة من السود، ذلك لأنها كانت (تشك) في القيم التي تحكم الحياة من حولها، والتي يستحيل أن تكون عادلة، ومن هنا فإنها أخذت (ترفض) كثيراً من الأشياء التي تحيط بها، ولما كان الشك، والرفض، يقودان إلى التمرد والثورة وأن كل هذا يستدعي (الرمز) وجدنا هذا الزعيم يتوقف راية المبادرة.. ثم يسير على طريق الثورة.

(١) انظر ألوان د. طه حسين ١٢٥، ١٢٧.

(٢) المصدر السابق ١٢٧؛ لطيفي ١٧٦/١١ وما بعدها.

وهو لم يكن غافلاً عن السود من فترة كبيرة قبل اندماجه معهم فهو من فترة كان يسأل عن أخبار (غلمان الشورجيين) وعن مقدار ما جرى لكل منهم من الدقيق والسويق والتمر^(١).

ثم إنه طلب إحضارهم إليه بعد أن رفع حريرة على المردى^(٢).

ثم سار في يوم وأخذ خمسين غلاماً من (الشورجيين)، وفي موضع أخذ خمسمائة، وفي موضع خمسين ومائة غلام، وفي موضع ثمانين (ثم لم يزل يفعل ذلك كذلك في يومه حتى اجتمع إليه بشر كبير من غلمان الشورجيين)، ثم قام فيهم خطيباً، فمناهم ووعدهم أن يقودهم، ويرأسهم، ويملكهم الأموال، وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم، ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى إليهم، ثم دعا مولاهم فقال: قد أردت ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم، وقهرتموهم، وفعلتم بهم ما حرم الله عليكم أن تفعلوه بهم، وجعلتم عليهم ما لا يطيقون، فكلمني أصحابي فيكم فرأيت طلاقكم.

فقالوا: إن هؤلاء الغلمان أباق، وهم يهربون منك فلا يبقون عليك ولا علينا، فخذ منا مالا وأطلقهم لنا، فأمر غلمانهم بضربهم، فبطح كل قوم مولاهم ووكيلهم، فضرب كل رجل منهم خمسمائة ضربة^(٣).

ومن واقع إيمانه بهم نراه يزوج إحدى ابنتيه من (سليمان بن جامع) وكان سليمان هذا (عبداً أسود كيالاً) من أهل هجر^(٤).

ومن الملاحظ أنه قصر اهتمامه على الطبقة العاملة للناصبية، وأنه أخلص لها الإخلاص كله، ولم ينظر أبعد من هذه (الدائرة السوداء) وهذه نقطة ضعف في هذه الثورة.

(١) للطبري ١١/١٧٠.

(٢) خشية يدفع بها الملاح للسفينة وكان عليها "أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله".

(٣) تاريخ الطبري ٦/٤١٣، ٤١٤.

(٤) جمهرة أنساب العرب ط ٣ ص ٥٧.

فمع أنه كان يستطيع بضربة واحدة أن يلغى الرق إلا أنه لم يفعل، ذلك لأنه كان يريد أن يسترق الناس لهم، فالمعروف أنه كان في كل عمليات زحفه يستخلص العبيد ويحررهم، إلا أنه في الوقت نفسه كان يسترق لهم "أسرى المسلمين"^(١)، فقد سبق أن وعدهم بذلك على نحو ما مر بنا، وبخاصة استرقاق ساداتهم السابقين، ونحن لا ننسى أن هؤلاء السادة حاولوا مساومته على استرداد العبيد على أن يدفعوا عن كل رأس له خمسة دنانير، وفي الوقت نفسه خوفه منهم، ولكنه صار في الطريق للذي رسمه لنفسه وهو أن يقيم "قومية سوداء مهيمنة" على هؤلاء المسلمين الذين فقدوا الكثير من مقومات إسلامهم، ومقومات إنسانيتهم، وقد كان يعتمد إهانتهم وإهانة من ظفر به من نسلهم، في غير ضعف أو تردد، وقد كبر هذا الأمل في نفسه حين تكررت انتصاراته، وازدادت الرقعة التي يقف عليها.. فمن فوق هذه الرقعة حلم - من وجهة نظرنا بتصفية النفوذ التركي، وبأن تعتمد الخلافة على ركيزة جديدة من السود المتساويين في الحقوق مع غيرهم وقد وهم أنه لا يستطيع أن يفعل هذا إلا من خلال هذه "المادة الغفل" الجديدة.. إلا من خلال هؤلاء السود.

ونحن نعتقد أنه بعد أن قال بنسبه العلوي ومعنى هذا التزامه بما يلتزم به الشيعة - قد رأى أن المراكز الفكرية الذي يجب أن يستند إليه أن يكون المراكز الفكرية والذي يقول بورلاند للحكم، وكل من للعباسيين والعلويين يأخذ بها، وإنما يقوم على هذا المبدأ الذي يقوم على نزعة ديمقراطية أصيلة ديمقراطية دينية إن نصح التعبير^(٢) تسوى في هذا الأمر بين العبد الأسود وبين غيره من المسلمين، وهذه النزعة هي نزعة الخوارج، وبخاصة إذا أدركنا أن للبصرة لم تكن علوية كالكوفة، وقد أترك هذا المؤرخون القدامى والمتحاملون عليه حين تكلموا عنه وعن الأزارقة^(٣).

(١) الطبري ١٨٢/١١.

(٢) الخوارج والشيعة (ز).

(٣) جماعة من الخوارج ليسوا من الدهماء والرعاع كما يقول خصومهم، بل بالعكس كانوا أمم سلاحاً وعتاداً من أولئك للخصوم، واسمهم إذا كان يرجع إلى حنفي من بني حنيفة، فقد كان المرء منهم أغلبهم من بني تميم (الشيعة والخوارج ص ٨٤، ٩٢).

فقد قال المسعودي (إنه كان يرى رأى الأزارقة من الخوارج، لأن أفعاله في قتل النساء والأطفال، وغيرهم من الشيخ الفاني وغيره، ممن لا يستحق القتل يشهد بذلك عليه^(١)).

ومثل هذا يقول عباس القمي، ويضيف بأنه وعد كل من أتى إليه من السودان أن يعتقه ويكرمه^(٢) والملاحظ أن هؤلاء المؤرخين وغيرهم لم ينفوا عند فكرة الحرية والعدالة الاجتماعية التي شغلت العبيد، وإنما اكتفوا فقط بالحديث عن (صاحب الزنج) كما يسمونه في أحسن الحالات.. وعلى كل فحن نعتقد أن هؤلاء السود هم الذين حولوه إلى اعتناق فكر الخوارج بدليل أنه قال إنه علوى في أول الأمر، ثم لم يعد يلح في ذلك فقد كتب على لوائه الآية الكريمة : «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وقد خطب فيهم يوم العيد في مسجد السوق على نهر ميمون، وجاء في خطبته ما كان عليه السود من سوء الحال، وأن الله قد استقذهم به من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم، ويملكهم العبيد والأموال والمنازل، ويبلغ بهم أعلى الأمور^(٣)، ثم حذلهم على ذلك. ثم إنه اكتفى بكتابة اسمه واسم أبيه على العلم من غير ذكر لأصله، ولعل هذا بالإضافة إلى عدم إلحاحه على أصله هو الذي جعل الكثير من المؤرخين يذهبون إلى أنه دعى النسب.

فانطلاقه الحاسم من وجهة نظر الخوارج داخل انصهاره في مشكلات الزنوج كان أمراً طبيعياً وعليه أكثر من دليل، وانحصاره داخل مشكلات هذه الكتلة السوداء الكبيرة، تجعل القول بأن مبادئه كلفت مبادئ (المزدكية) الفارسية شيئاً لا يستند إلى دليل^(٤)، ومثل هذا القول بأن فكر القرامطة كان وراء هذه الثورة، ومثل هذا القول أيضاً ما ذكره أحمد أمين (وربما عد ما يشبه عمل الصعلكة عمل الزنوج في ثورتهم المشهورة بثورة الزنج)^(٥).

(١) مروج الذهب ٣٤٤/٢.

(٢) الكنى والألقاب ٣٩٦.

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبري ٤١٥/٩.

(٤) دراسات في العصور العباسية المتأخرة ٧٨ نقلاً عن مياسة ناس ٢٨٥.

(٥) الصعاليك والفتنة في الإسلام ١٠١.

كان للثورة هدف اجتماعي محدد، ولكن الظروف من داخل الثورة نفسها، ومن داخل العصر لم تسمح بأن يصل هذا الهدف الاجتماعي إلى غايته، وهكذا طويت صفحة من صفحات المطالبة بالعدل الاجتماعي في هذا الوقت المبكر الذي لم يكتشف في أوروبا إلا في القرن التاسع عشر، أو في عصر الثورة الفرنسية الكبرى (فنحن إذن لسنا عيالا ولا يمكن أن نكون عيالا على المطالبين بتحقيق العدل، والتأثرين على الظلم الاجتماعي من الأوروبيين، وإنما نحن أبعد منهم عهدا، وأشد منهم ممارسة لهذا النحو من محاولة الإصلاح^(١)).

وإذا أردنا أن نتبين ملامح هذا الزعيم النفسية والخارجية من شعره، وجدنا هناك من يسرع - كالعادة - ليقول إن هذا الشعر ليس له، على نحو ما ذكر المرزباي^(٢)، وقد أنصف للحصري^(٣) حين قال (زعم أبو بكر بن دريد أنه قد عمل له أكثره (أكثر شعره) وما أرى هذا يصح لأنه لا يشاكل طريق ابن دريد) فهو ممثلىء بالألم لما يجرى هناك في قصور بغداد، وهو عازم على إزعاج أهل هذه القصور:

لهف نفسي على قصور بغدا	د وما قد حوَّته من كل خاص
وخمور هناك تشرب جَهْرًا	ورجال على المعاصي حراس
لست بآين الفواطم الزهر إن لم	أفحم الخيل بين تلك العراض ^(٤)

وهو ينصح العباسيين في أول الأمر، ويبين لهم الخطأ في تسليم الأمور إلى الأتراك...

بنى عمنا لا توقدوا نار فتنة	بطيء على مر الليالي خمودها
بنى عمنا إنا وأنتم أنامل	تضمنها من راحتها عقودها
بنى عمنا وليتم للترك أمرنا	بديننا وأعقابنا ونحن شهودها

(١) ألوان ١٦٧.

(٢) معجم الشعراء ١٤٨.

(٣) نيل زهر الآداب ١٢٥.

(٤) نيل زهر الآداب للحصري ١٢٥، ومعجم الشعراء ١٤٨.

فأنهم لا نكث للقراح، وإن أنق^(١) بيلغة عيش، أو يبار عيدها^(٢)

وهو ابتداء يرفض هذه الحياة المرجة متى يتصارع عليها فيقول:

أسمعلى الصياح بالأمليس وصياح العيراة العيطموس^(٣)
واتركلى من قرع مزهر ريا واختلاف الكئوس بالخنديس
ليس تبنى العلا بذلك وهذا لكن الضرب عن أزم القروس^(٤)

وقريب من هذا قوله :

لقد علمت هلم أننا صباح للوجوه غداة الصياح
وأننا إذا ذعرت فى الوغى ذبول الرياح ذبول الريح
نسوق السيوف بدفع الخوف ونكلى الجراح بكف الجراح
ولسمو مماحاً أكف السماح بقسم رماح، وببيض صفاح
وقسرم صبحناه فى داره بكل أكعب، ونهد وقاح
فسور بعد عناق الملاح ضجيع النجيع مراح الجراح
قليل الأنين، مزال الجبين مهين السلاح، مهيض الجناح
صلى نور عينى بنور الأفاق وراح الأكف بماء وراح
فما طول عشقى مزاج الملاح بمشتغل عن صياح الصياح^(٥)

وما هى أبيات تدل تماماً على ثقته بنفسه، وعلى روح الكراهية الكامنة فى نفسه للحكام من حوله :

وإننا لنصبح أسوأنا إذا ما اصطحبنا بيوم سنفوك
منا برهن بطون الأكف وإغسلأذن رؤوس المملوك

(١) ذيل زهر الأدب ١٥٧.

(٢) الأمليس : العلاء ليس بها نبات. العيطموس: التامة للخلق من الإبل والنساء.

(٣) ذيل زهر الأدب ١٥٦.

(٤) المصدر السابق نفسه ١٢٥.

ومألى فى الخلق من مُشبهٍ ولا فى اكتساب العلا من شريك^(١)

ومما نمىب إليه من شعر أشبه شىء به قوله :

ببيض الصفاح، وسمر الرماح طلبتُ العلا، وعلوتُ المرتبُ
وإنى كالشَّمسِ بى يَهْدَى إذا غطت الشمس سودُ السحب

وقد نظر إليهما المتنبي فى قوله :

تركتُ لأطراف القنا كلُ شهوة فليس لنا إلا بهن لعباب
وإنى لنجم يَهْدَى صُحْبَتى به إذا حال من دون النجوم محاب^(٢)

... وقد أورد أبو العلاء المعرى أمره فى رسالته إلى ابن القارح، حين أورد
ليباتاً له ثم قال (وما أدفع أن تكون قيلت على لسانه.. وهذه الأبيات هى :

قَتَلْتُ النَّاسَ إِشْفَاقًا	على نفسى كى تبقى
وحزْتُ المالَ بالسيف	لكى أنعم، لا أُنقى
فمن أبصرَ متواى	فلا يظلم إذن خلُقًا
فواويلى إذا ماتُ	عند الله ما ألقى
أخلدا فى جوارِ الله	لم فى نارِه ألقى

وقد علق على هذه الأبيات الدكتور زكى المحامسى فقال: (إن العلوى ينبغى
أن يكون قالها فى أوائل ثورته، وقبل أدعائه النبوة واشتراعه نهب المال وسبى
العرض، ففيها تنظم وتبرير لسبب قتله الناس، فهو قد قتل الناس من خوفه الموت
على نفسه لأنه إذا ترك قتل الناس قتلوه، وما أحسب هؤلاء الناس الذين عناه إلا
العباسيين الذين قتلوا العلويين بالسيف.. ثم هسر ثورته بأنه قام بها ليحوز المال
بالسيف فكان له ذلك، لأن حقه فى نعيم الحياة وبقاء العمر حملاء على علمه، ثم
توقع لنفسه الموت، فكان يرى حقه بين عينيه.. ثم يظهر فى بيته الآخرين

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) الإبانة عن سرعان المتنبي للمعبدى ص ١٦٢

خشوعاً لله وخوفاً من ناره، ولعل ذلك كان منه على الحقيقة أول أمره أو خداعاً للزواج الذين ذهبوا معه^(١).

ونحن نشك ابتداءً في أن هذه الأبيات له، فتركيب الجملة، وغنائيتها، وذكر التعبير، وإيراد بعض الكلمات مثل (فواويلي)، بالإضافة إلى هذه الانسيابية في التعبير.. كل هذا يؤكد أن هذا الشعر ليس له إذاً قسناه بما قال من شعر أو إذا وضعناه في مواجهة الحياة التي عاشها (على ابن محمد) أما للقول بأن قالها في أوائل الثورة وكأنه كان لا يغفل في هذه الفترة حتى يقول هذا الشعر العدمي والقول بادعائه النبوة وكأنه ادعى النبوة إن صحت في أوائل ثورته المفروض أنها ثورة الزنج فشئ لا يمكن قبوله على إطلاقه.. ثم إن تاريخ حياته يتعارض مع القول بأنه قتل الناس خوفاً على نفسه هو، وأنه جمع المال ليسعد به بعد ذلك، بله القول بأنه أراد المتوبة في أول قيام الثورة.

... وعلى كل فالظاهر أن انشغاله بالثورة، وكراهية المؤرخين له، ونصعية الثورة في آخر الأمر بالعنف الذي سبق أن فتتحت هي إليه.. الظاهر أن كل هذا كان وراء عدم وصول الكثير من شعره، بل كان وراء التشكيك فيه شاعراً.

ولقد كان آخر ما روى له ما قاله وهو يهرب من الدار التي كان يعتصم بها في اليوم نفسه الذي قتل فيه بتقطيع الأطراف أولاً، ثم حز الرأس، فقد قال:

عليك سلامُ الله يا خيرَ منزلٍ خرجنا وخلفناه غيرَ ذميم
فإن تكن الأيامُ أحدثنَ فرقةً فمن ذا الذي من ربيهن سليم^(٢)

وما أشبه هذا الشعر بالرجل؟ بل وما أشبهه بما كتب على قبره:

عليك سلامُ الله يا خيرَ منزلٍ رحلنا وخلفناك غيرَ ذميم
فإن تكن الأيامُ أحدثنَ فرقةً فمن ذا الذي من ربيها بسليم^(٣)

(١) شعر الحرب في أئب العرب ١٦٦.

(٢) معجم الشعراء ١٤٨.

(٣) البصائر والاختار ٢ ص ٥٠٥.

(د) ونحن حين تلقى نظرة أخيرة على هذه الثورة نجد أنها كانت حرباً مشروعة من أجل العدالة الاجتماعية، ونجد أنها كانت حرب أجناد بين السود وغير السود، وأن القصد منها كان اقتطاع جزء من الخلافة لهذه القوة السوداء، وتحرير هذه القوة من الضغوط المهيمنة التي أهدرت إنسانيتها، بالإضافة إلى التأثير المباشر في الخلافة.

وإذا كان هناك من يستشهد بأن للقائد الأسود (سليمان بن نافع) كان يحارب إلى جانب الموفق، وفي ضوء هذا فإنها لن تكون حرباً بين السود والبيض فإن من اليسير القول بأن هذا القائد كانت له مصلحة مع الخلافة، وكانت له مكانته التي وصل إليها، ومن هنا رأى أن مجازفته في الوقوف إلى جانب هذه القوة الجديدة لن تعطيه أكثر مما وصل إليه، ثم كيف نحلل انضمام الجنود السود وهم كثرة إلى الثورة؟ إن تحليل هذا يوضح أن مصالح كل الفقراء والمضطهدين السود كانت مع الثورة، ومن هنا ظهرت طلائفة جديدة من العبيد السود تسمى (الأباق) كانت تترك أسياها وتلتحق بهذه الثورة.

ويذهب للبعض إلى أن من أسباب فشل هذه الثورة عدم التقائها مع الثورات الأخرى التي قامت في هذه الفترة كثورة يعقوب الصفار، ولكن كيف كان يمكن الالتقاء مع هذه للثورة مع العلم بأنها قامت أصلاً للاحتجاج على الخليفة لأنه أهمل في أول الأمر ثورة الزنج^(١).

وهناك من يذهب إلى أن الفضل في حصر هذه الثورة يرجع إلى الافتقار إلى "نظرية ثورية" وإلى شخصية الموفق الحكيمة، ولكن كيف لا تكون المطالبة بالعدالة الاجتماعية نظرية ثورية؟ وكيف لا تكون نظرية الخوارج ثورية على نحو ما مر بنا آنفاً، أما القول بأن كل شيء يرجع إلى شخصية الموفق الحكيمة فيكفي أن نذكر أنه لم يلتهم الثورة بالسهولة التي تتصور، وأنه أعلن نوعاً من الديكتاتورية إلى حد أن الخليفة ضاق به، وعزم على العيش في ظل ابن طولون، ولكن الموفق رده من الطريق إلى ابن طولون^(٢).

(١) الطبري ١٧٩/١١، ١٨٠، النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية. عبدالفتاح السرنجاوي ٥٧ وما بعدها.

(٢) أولان ٧٩، ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد لأحمد الطبري ٧٥ وما بعدها.

أما الذى نرتاح إليه فى تعليل فشل هذه الثورة، فهو كما سبق أن ذكرنا أنها انحرفت - حين أسكرها للنصر - عن أهدافها، ولأنها استخدمت العنف بالطريقة التى جعلت الناس ينفرون منها، ويعتقدون أنها خاصة بنوع خاص من الفقراء وهم السود، أما الفقراء الآخرون فليس لهم مكان فى هذه الثورة، ثم إن المسألة قد صورت للناس على أنها حرب ضد الإسلام والمسلمون وقد مرت بنا التهنة التى وجهت بمناسبة دحرها إلى كافة البلاد الإسلامية، وبالإضافة إلى هذا فإن الطبقة التى أضرت بمصالحها هذه للثورة وقفت بكل ثقلها إلى جانب العمل على ردع هذه للثورة، ولقد وصل الأمر إلى حد أن كثيراً من الناس كانوا يغرون القائد "رميس" بكيمبات وافرة من المال، إن هو أخذ أنفاس هذه الثورة، وإن هو أعاد العبيد إلى أسيادهم^(١).

ولا يحسب بعض أن إخماد الثورة كان بسيطاً وسريعاً فقد استمرت أنشطة ومتدفقة بالفضب طوال أربعة عشر عاماً، وأربعة أشهر وستة أيام.

ولكن فى نهاية الأمر ضيق عليه وعلى رجاله، فحين لجأه الموفق إلى التحصين فى المنازل الواقعة على نهر "أبى الخصيب" ضعف أمره ضعفاً شديداً، وظهر للناس زوال أمره، فتهيبوا جلب الطعام له ولرجالهم فافقطعت عنهم كل مادة، ثم بلغ الأمر بأصحابه إلى حد أنهم كانوا يتبعون الناس، فإذا خلا أحدهم بامرأة أو صبي أو رجل ذبحه وأكله، ثم صار قوى الزنج يعدو على الضعيف، فإذا خلا به ذبحه وأكل لحمه، ثم أكلوا لحوم أولادهم، ثم كانوا ينبشون الموتى، فيبيعون أكفانهم، ويأكلون لحومهم.

وأخيراً وبعد صراع مرير، وبعد ضراوة غير معهودة فى الحرب من "الفسقة والفجرة" على حد تعبير الطبرى، وافى "الموفق" بشير بقتله، ومعه كف زعم أنها كفه، ثم أتاه غلام من رجال القائد "أولو" يركض على فرس "ومعه رأس الخبيث" فخر الله ساجداً على ما أولاه وأبلاه، ثم تتابع تسليم رجاله، فكان من وافى من قواد الزنج ورجالهم فى بقية يوم السبت والأحد والإثنين زهاء خمسة آلاف

(١) الطبرى ١١/١٧٩.

زنجى، بعد أن قتل منهم من قتل، وبعد ما مالت جماعة إلى البر زهاء ألف فمات بعضهم عطشاً، واسترق الأعراب البعض الآخر، وهكذا كان خروج صاحب الزنج عام ٢٥٥هـ وكان قتله عام ٢٧٠هـ^(١).

وقد ترتب على هذا أتعطلت الزراعة، وأرهق الناس إرهاباً شديداً بتقديم التموين لكل من الطرفين المتصارعين، وقد هجر بعضهم تماماً من المنطقة.

كل هذا إلى جانب توقف الملاحة النهرية في الداخل، وفي الوقت نفسه تعطلت الملاحة الخارجية مع الهند، وسيلان، وسومطرة، وكمبوديا، والصين وإفريقية، وإلى جانب هذا حدث تفكك داخل الدولة، على نحو ما نعرف من انفصال مصر عن الخلافة على يد أحمد بن طولون^(٢).

وفي ضوء هذا تلاحقت الحلقت ولتصمت بحيث طوقت تماماً هذه الثورة وقضت عليها، ومع أن هناك من يميل إلى القول بأن هذه الثورة كانت عقيمة، وأن الزنوج خسروا قضيتهم^(٣)، إلا أن الذي لا شك فيه أن هذه الثورة قد أثبتت ثماراً عديدة منها أن من حق الناس الثورة على الخلافة ما دامت الخلافة تظلمهم، والذي لا شك فيه أن الدولة العباسية قد عملت بعد انطفاء الثورة على التحسين من وضع الفلاحين، ومن وضع العبيد، وأن النظام الإقطاعي قد تداعى وإن لم يكن قد سقط تماماً في هذه الفترة، خاصة وإنا نعلم أن الموفق في أكثر من موضع قد بذل أكثر من وعد بتحسين أحوال هذه للكتل المظلومة، ومن الملاحظة أن للكثير قد استجاب لهذه الوعود، وأن قولا أخرى رأيت الانضمام إلى قوة ثورية أخرى صاعدة هي قوة القرامطة^(٤).

فإذا تركنا هذه الآثار المحسوسة. وجننا ظهور أثر آخر سلبي عقب سقوط هذه الثورة، عند بعض المتقنين كالحلاج مثلاً، فقد تأكد عنده... أن وحدة الأمة

(١) تاريخ الطبري ٦٥٤/٩ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، والحمد ٦٣ من مجلة نهضة إفريقية.

(٣) شعر الحروب في أدب العرب ١٦٦.

(٤) دراسات في المصور العباسية المتأخرة ٧٨ وما بعدها، الهلال، العدد السادسة والخامسة والمبعين. مقال د. علي الخربوطلي.

الإسلامية لا يمكن أن تتم عن طريق الحرب النبوية، ولكن عن طريق الصلوات والتضحيات في حياة لازده والمجاهدة^(١).

تلك هي قضية ثورة هامة ستظل دائماً شعلة مضيئة على الطريق للفقراء، والمطالبيين بالعدالة الاجتماعية: فهي لم تكن كما قال العقاد "غاشية عابرة لسبب عابر، فذهب أثرها بذهابها بسنوات"^(٢)، لأنها في الواقع ملمح يمكن أن يفاخر به في السبق بالمطالبة بالعدالة الاجتماعية، فالعلة لا توجد فيها بقدر ما توجد فيها لأننا لا نلنفت إلى تاريخنا، ولأننا نشمئز من هذا التاريخ، ويعجبنا ما عند الآخرين، وقد تنسب الدكتور طه حسين لهذا وعقد موازنة بين هذه الثورة وبين ثورة الرقيق على الجمهورية الرومانية في إيطاليا، ثم لورد الأثر الذي ألهمته هذه الثورة الأخيرة للكتاب الأوروبيين، تسامح عن السر الذي جعل ثورة الزنج لا تؤثر فينا كما أثرت في العالم الأوربي ثورة سبارتاكوس! ثم قال: "... ولكن الأوروبيين لم ينسوا تاريخ روما وأحداثه، ولم ينظروا إليه على أنه تاريخ ليس غير، وإنما جعلوه جزءاً من حياتهم، ومن حياتهم الواقعية التي يحونها بالفعل، فهم يستلهمونه كما يستلهمون التاريخ اليوناني، وكما يستلهمون أساطير اليونان والرومان، وكما يستلهمون الثورة فيما يكتبون من نثر، وما يقرضون من شعر.. فأما نحن فنعرض عن التاريخ العربي إعراضاً يوشك أن يكون تاماً"^(٣).

(هـ) والآن تبقى الكلمة الأخيرة في هذه الثورة خاصة بتأثيرها في الشعر العربي، ومع اعترافنا بالنماذج القليلة التي وردت في هذا المجال ونحن نعتبر الثائر على بنى محمد واحداً من شعرائها لا لدوره فيها فقط ولكن لذهابنا إلى أن أمه كانت سوداء، ولأن لونه كان يميل إلى السواد مع اعترافنا بهذا إلا أنه يجب أن نذكر ما مر بنا من أن عامة هؤلاء السود كانوا لا يعرفون العربية، وكانوا منقطعاً للصلة عن ثقافتهم الأولى، ومع هذا فالأثر الكبير الواضح في الشعر لهذه الثورة كان قصيدة ابن الرومي الذي لا يختلف موقفه عن موقف المؤرخين الملتزمين بالدولة وبالحكام كما سبق أن أشرنا.

(١) شخصيات قلقة في الإسلام . د. عبدالرحمن بدوي ٦٥ .

(٢) داعي السماء ٦٨، ٨٩ .

(٣) ألوان ١٦٥، ١٦٦ .

وعلى كل فهذه القصيدة تقول :

زادَ عن مقلتي لذيذُ المنام
أى نوم من بعد ما حلّ باليبص
أى نوم بعد ما انتهك الزُّنْدُ
إن هذا من الأمور لأمر
أقدم الخلقُ اللعينُ عليها
وتسمى بغير حقٍ إماما
لهف نفسى عليك أيتها البص
لهف نفسى عليك يا معذب الخيـ
لهف نفسى عليك يا فريضة الليل
لهف نفسى لجمعك المتقاتي
بينما حالها بأحسن حال
دخلوها كأنهم قطع السايـ
أى هول رلوا به أى هول
إذ رموهم بنارهم من يمين
كم أغصوا من شارب بشراب
كم ضمنين بنفسه رام منجى
كم أخ قد رأى أخاه صريعا
كم أب رأى عزيز بنيه
كم مفدى فى أهله أسلموه
كم رضيع هناك قد فطموه
كم فتاة بخاتم الله بكر

شغلها عنه بالتموع السجام؟
مرة ما حل من هذات عظام؟
سج جهاراً محارم الإسلام
كساد ألا يقوم فى الأفهام
وعلى الله- أيما إقدام
لا هدى الله معيه من إمام
مرة لهفأ .. كمثل لهب الضرام
سرات لهفا بعضنى إيهامى
سلام لهفأ يطول منه عرامى
سدان لهفا يبقى على الأعلام
لهف نفسى لمزك المستضام
إذ رمأهم عبيدهم باصطلام
سل إذا راح مدلهم للظلام
حُق منه يشجب رأس الغلام
وشمال، وخلفهم، وأمام
كم أغصوا من طاعم بطعام
فتلقوا جبينه بالحسام
ترب للحد بين صرعى كرام
وهو يعلى بصرام صمصام
حين لم يحمه هناك حامى
بشبا للسيف ،، قبل حين الفطام
فضحوا جهراً بغير اكتنام

كم فتاة مصونة قد سبوا
 من رآهن في المعسك مبابيا
 من رآهن في المعسكر وسط
 من رآهن يتخذن إماء
 ما تذكرت ما لى الزنج إلا
 ما تذكرت ما لى الزنج إلا
 .. عرجا صاحبي بالبصرة للزه
 فاسألاها ولا جواب لديها
 أين ضوضاء ذلك الخلق فيها؟
 بدلت تلكم القصور تلالا
 سلط البثق، والحريق عليها
 وخلت من حولها فهي قعر
 غير أيد وأرجل بائنات
 وجوه قد رملتها دماء
 وطئت بالهوان والذل قسرا
 فتراها تسقى الريح عليها
 خاشعات كأنها باكيات
 .. بل ألما بساحة للمسجد الجا
 فاسألاه ولا جواب لديه
 أين عماره الأولى عمروه
 أين قتيله الحصان وجوها؟
 .. أى خطيب ، وأى رزء جليل

بارز وجهها بخير لثام
 داميات الوجوه للأقدام
 الزنج يقسم بينهم بالسهم
 بعد ملك الإماء، والخدام
 أضرم القلب يوما أضرم
 أوجعني مرارة الإرغام
 سراء تعريج منصف ذى سقام
 لمسؤل ومن لها بالكلام
 أين ذلك البنيان ذو الأحكام؟
 من رماد، ومن تراب ركام
 فتداعت أركانها بالهدام^(١)
 لا ترى العين بين تلك الأكام
 نبذت بينهن أفلاق هام
 بأبى تلكم الوجوه الدوام
 بعد طول التجيل والإعظام
 جاريات بهيمة وقتام
 بلايات للثغور لا لابتسام
 مع إن كنتم ذوى الإمام
 أين عباده الطوال القيام؟
 دهرهم فى تلاءة وصيام
 أين أشياخه أولو الأحلام؟
 نالنا فى أولئك الأعمام

(١) فى القاموس بقى للنهر بقا وتثاقا كبر شطه، وهو يريد أن يقول إن البصرة حوصرت بالماء وبالنفار.

كم خذلنا من ناسك ذى اجتهد
واندامى على التخلف عنهم
واحياى منهم إذا ما التقينا
أى عذر لنا ؟ وأى جواب ؟
يا عبداى ! أما غضبتم لوجهى
أخذلتهم إخوانكم، وقعدتم
كيف لم تعطفوا على أخوات
لم تغاروا لعترتى، فتركتم
إن من لم يفر على حرمانى
كيف ترضى للوراء بالمرء بعلا
واحياى من النسبى إذا ما
وانقطعاى إذا هم خاصمونى
مثلوا قوله لكم أيها النا
أمتى أين كنتم إذ دعيتكم
صرخت: يا محمدا.. فهلا
لم أجيبها، إذ كنت ميتا، فلو لا
.. انفروا أيها الكرام خفافا
إن قعدتم عن "اللعين" فأنتم
أبرموا أمرهم وأنتم نيام
صدقوا ظن إخوة أملوكم
أدركوا ثأرهم فذاك لديهم
لم تقروا العيون منهم بنصر
أنفذوا سيوفهم وقبل لهم ذا
عارهم لازم لكم، أيها النا

وقبىه فى دينه سلام
وقليل عنهم غناء ندامى
وهم عند حاكم الحكام
حين ندعى على رموس الأنام:
ذى الجلال العظيم والإكرام
عنهم ويحكم قعود اللنام!
فى حبال العبيد من آل حام
حرمتى لمن أصل حرامى
غير كفاء لقاصرات الخيام
وهو من دون حرمة لا يحامى
لا منى فيهم أشد للملام
وتولى النسبى عنهم خصامى
س إذا لامكم مع اللوم
حسرة من كرائم الأقسام
قلم فيها رعاة حقى مقامى
كان حى أجابها عن عظامى
وتقالا إلى العبيد للطفام
شركاء لللعين فى الأثام
سوءة مسوءة لقوم نيام
ورجوكم لسوءة الأيام
مثل رد الأرواح فى الأجسام
فألقروا عيونهم بانقمام
لك حفاظا ورعية للنام
من، لأن الأديان كالأرحام

لا تطيلوا المقام عن جنة الخل — قد قأنتم في غير دار مقام
فاستروا الباقيات بالعرض الأد — نى، ويبيعوا انقطاعه بالدولام

وهذه القصيدة "وثيقة" اتهام بلا شك، ويبدو أنها نظمت "والحرب الزنجية قائمة بعد خراب البصرة"^(١)، فهي ممثلة بالحرارة، وبالغضب على هذه القوة السوداء، التى استخدم كل براعاته الشعرية فى "دمغها" وفى رسم صورة مهبجة عنها" تكاد تدفعنا نحن الآن بعد أحد عشر قرناً إلى الثورة والهياج"^(٢)، فالشاعر قد وضع قدرته الخارقة فى هذه القصيدة للدرامية التى تبدأ بحزن خاص للشاعر، ثم لا يلبث أن يشرك الناس فى هذا الحزن، ويضعهم فى قصص الاتهام حيث يدينهم الله، وحيث يقاضيهم النبى ثم يترك لهم كوة من الأمل إذا ما عزموا على "الانتقام".

وهو يتوسل إلى هذا بما يسمى التوكيد بالتكرار. ويرسم الصور المؤثرة كالرضيع الذى قطعه السيف، وكالفئة التى بخاتم ربها، وهو كثير التساؤل فى هذه القصيدة، ويكثر من إيراد الجمل الاعتراضية كأن هناك اختناقاً فى القصيدة لا يخفف عنه إلا إيراد هذا النوع من الجمل، وهو يستخدم نوعاً من التضمين يفترض أن النبى يقوله، وكما يقدم الصورة فى حالة الإشاعة، مع استيعاب لكثير من الجزئيات، كما أن للقصيدة إيقاعاً خاصاً يساعد على التكرار، ويؤكد التعذير واللوم فى أول الأمر، ثم تحتد النبيرة حيث يتعرض للانتقام، وحين يتعرض للعنصرية اللونية فى البيت الذى يقول فيه:

كيف لم تعطفوا على أخوات فى حبال العبيد من آل حسام!

ومع هذا فإنه يمكن أن يقال له كيف عز عليك أن تسبى الفتيات من البصرة، وأن يزال خاتم الله فيهن، وفى حالة من حالات الحرب، فى الوقت الذى يفعل فيه

(١) شعر الحرب فى أدب العرب ١٦٨.

(٢) بطولات عربية ٥٦.

وما أصدق قول المازنى عنها: هى قصيدة فى الطبقة الأولى من الشعر لو غيرت ما فيها من الأسماء والمحليات لخليل اليك أنها مما قاله "بيرون" فى سبيل استقلال اليونان، أو "توماس هاردى" فى إبان الحرب العظمى (حصار الهشيم ط٧، ص٢٦٨).

هذا الفعل وأكثر في حالتي السلم والحرب في البصرة نفسها مع السوداوات..
ويمكن أن يقال له كيف جعلت البصريات "عترة" الله؟ وإذا كان البصريون هم "أمة"
النبي، فلماذا لا يكون السود أمته كذلك؟

ويمكن أن يقال لماذا جعلت هذه الحرب حرباً ضد الإسلام، ولم تجعلها في
الأصل حرباً قامت باسم الإسلام! ولماذا نقر أن يكون للعربية وهو يركز دائماً على
العربية ولا يركز على الرجل العربي في القصيدة الحق في ملك الإماء وللخدام ولا
يكون لغيرها هذا الحق بل لماذا يكون هناك رق أصلاً بالصورة التي كان عليها في
هذا المجتمع؟

.. ثم أخيراً كيف يمكن أن يدعو شاعر للكراهية والانتقام بهذا العنف، ألم
يكن مما يتفق وإنسانية الشاعر أن يدعو إلى رفع الظلم عن المظلومين، وأن تكون
إلى جانب كلمة حرب كلمة سلام؟

إن هذه الأسئلة لا يمكن أن تصمت أمام روعة القصيدة، بل لابد أن نطل
علينا واحدة بعد الأخرى في أثناء قراءة القصيدة لا بعد الانتهاء منها!

لقد هال لها كل الذين تعرضوا لهذه القصيدة من القدامى والمحدثين، ولكن لم
يتعرض أحد لمضمونها العنصري، وإيقاعها الوحشي، وإلحاحها على قضية
الموت لمن يثور أو يطالب بنوع من العدل السياسي والاجتماعي، كما لم يتعرض
للدوافع التي كانت وراء القصيدة، وكيف أنه كانت تلزم الشاعر شجاعة أكثر لو
حاول أن يصدم مجتمعه المترهل الذي كان أجوف ومتداعياً وقائماً في جوانب منه
على أسس غير الإنسانية.

ثم إن هناك خطوة بعد ذلك من القصيدة للرحبة المتوترة إلى القصيدة
المؤرخة، على نحو ما فعل عبدالله بن المعتز في أرجوزته التي تدور حول حياة
المعتضد وعهده، والتي سميت باسم كتاب سيرة الإمام، فقد جاء فيها عن نازح
الزنج.

والبائع الأحرار في الأسواق	وصاحب الفجار والمراق
وقاتل الشيوخ والأطفال	وناهب الأرواح والأموال

ومالك القصور والمساجد
 إمام كل رافضى كافر
 يلعن أصحاب النبي المهتدى
 فكفر الناس سواء عنده
 مازال حيناً يخدغ السودانا
 وقال: سوف افتح السودا
 ويدخلون عاجلاً بغددا
 وقال: إني أعلم الغيوب
 فخرّب الأمواز والأبله
 وترك البصرة من رماد
 ورامه موسى فما أطاقه
 وقد سقى "مفلح" كأس للقتل
 .. وترك الأثر بعد فقد
 وقتل ابن جعفر منصوراً
 ومن بعد ما صابر أى صبر
 والشيوخ قد غرقه نصيرا
 أعنى غلاما لمعيد الأعورا
 حتى إذا ما أسخط الإله
 أغرى به الله هزبراً ضئيفاً
 فلم يزل عاماً وعاماً ثانياً
 مجاهداً برأيه ونصله
 .. وحارب الصفار بعد الزنج
 ورأس كل بدعه وقائد
 من مظهر مقالة وسائر
 إلا قليلا عصبة لم تردد
 فلعنة الله عليه وحده
 ويدعى الباطل والبهتانا
 وأمالك العباد والبلدا
 فلم ير الكذاب لا ذا ولا ذا
 لم ير فيها عالماً مجيباً
 وواسطاً قد حلّ فيه حله
 سوداء لا توقن بالميعاد
 ومجئه من فيه حين ذاقه
 وشكّه بمخصف ذى نضل
 كذى يد قد قطعت من زنده
 وكان قبل قتلته كبيراً
 وأرجف الناس له بالنصر
 وقال: حسبي فقد هذا خيرا
 فقد كان فى الحروب موتاً أحمر
 وبأغت الفتنة منبتها
 إذا رأى أكرانه تقدماً
 وثالثاً يكابد الدواهي
 وماله، وقولاه، وفعله
 فطار إلا أنه فى سرج!

وحين يتعرض الشاعر البحتري لهذه الثورة، وللأثر على بن محمد من
 وجهة نظر نقل فى الحدة والغضب عن الحدة والغضب فى قصيدة ابن الرومى،

نجد للدكتور زكي المحاسنى يعلق على هذا قتلاً: وقد ذكر غير ابن الرومى هذا الحادث للجلال لكن أحداً من الشعراء لم يحسن تصويره ووقف الشعر عليه، كما أحسن ابن الرومى ووقف، وعلى التمثيل لذكر البحترى فإنه مدح أيا أحمد الموفق وذكر علوى البصرة، لكنه أضاع شعره فى المدح والاحتفال على معانى الشاء، تاركاً لباب الموضوع وهو وصف حرب العلوى أو منبحة للزنج^(١).

وقريب من هذا موقف أبى العلاء المعرى حين يقول :

إنما هذه المذاهب أسبا بـُ لجانب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو ن لدمع للثماء والخنساء
كالذى قام يجمع للزنج بالبص رة، والقمرمطى بالأحساء

وأخيراً فإنه يجب ألا ننسى جماعة من الشعراء الذى كان همهم الأول خدمة رجال الدولة على نحو ما نعرف من يحيى بن محمد السلمى فى القصيدة التى أولها.

أقول وقد جاء البشير بوقعة أعزت من الإسلام ما كُنْ وأها

والقصيدة التى جاء فيها عن على بن محمد

فخرٌ من مازقه مسلماً إلى أسود الغاب فى المأزق
وذاق من كأس الردى شربة كربة الطعم على لذائق

بالإضافة إلى قصيدة أخرى ثالثة له، ومثل هذا فعل يحيى بن خالد فقد تعرض لهذه الثورة أكثر من مرة، كما فى قوله :

لما طفى للرجس للعين قصدته بالمشرفى وبالقلنا الجوال
وتركته ولطيرُ تحجل حوله مستقطع الأوداج والأوصال
يهوى إلى حرّ للجحيم وقمرها بسلاسل قد أوهنته ثقال

وله قصيدة أخرى رائية تنور فى هذا الاتجاه.

(١) شعر الحرب فى كتب العرب ١٦٨، ١٦٩.

وهكذا نرى أن المؤرخين قد ظلموا هذه الثورة، وأن الشعراء القدامى قد ظلموها كذلك، بل إن السود أنفسهم قد ظلموها لأن عامتهم لم يكونوا يعرفون العربية، ولقد أدرك هذا من قبل فكان في تعاليمه وخطبه يطلب من الذين فهموا عنه قوله أن يفهموا "من لا فهم من عجمهم"^(١) وما أكثر الذين أنصفوه في العصر الحديث في البحث والرواية، والمسرحية، والقصيدة^(٢)، ولكن إذا كان لابد من العذر لطائفة من الطوائف المتصارعة، فإنه لن يكون إلا للسود الذين رأوا من وجهة نظرهم إنهم لن يتحرروا إلا إذا كانوا أسياداً، وإلا إذا انتقموا من الذين أهانوا كبرياءهم وأذلّوهم في الحياة.

(١) تاريخ الطبري ١٥/٩؛ تشبه في هذه ثورة المختار التي اهتمت بالموالي ومع هذا لم نسمع شكراً من هؤلاء المظلومين.

(٢) انظر أعمال أحمد العلبي، وعلى أحمد باكثير، ومعين بسيمو، والدكتور عبده بدوي.

ثالثاً : الشعوبية ونصيب السود منها :

١- لقد ظهر هناك اهتمام خاص بلقاء الضوء على الشعوبية^(١) على طول المسيرة العربية، على نحو ما نرى عند الأصمعي، وابن قتيبة، وأبى فرج الأصفهاني، والجهشياري، وابن اللديم، وغيرهم ممن وقفوا إلى جانب العرب، حتى لو كان فارسياً كإبن قتيبة.

ولقد كانت الوقفة المتأنيّة هي وقفة الجاحظ، فقد تعرض لمطاعن الشعوبية على العرب فقدمها بأمانة، ثم رد عليها بموضوعية مطعناً وقد انتهى إلى قوله: وأعلم أنك لم تر قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكا لعرضه، ولا أطول نصباً، ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة، وقد شفى الصدور منهم طول جسوم الجسد على أكبادهم.. ولو عرفوا أخلاق كل ملة، وزى كل لغة وعظهم في اختلاف إشارتهم وآلاتهم وشمائلهم وحياتهم، وما علة كل شيء من ذلك؟ ولم اختلافه؟ ولم تكلفوه، لأراحوا أنفسهم.. وهو قد يربط بينهم وبين "الأزمرية" بمعنى الاستقرارية الإيرانية^(٢) وفي الجانب الآخر كانت هناك كتّبة كبيرة تخاصم كل ما هو عربي، وقد تعرض للإسلام^(٣) على نحو ما نعرف من "سهل بن هارون" الذي ألف رسالة في البخل بحيث اعتبر الكروم زيلة، والبخل فضيلة، ولقد كان وزيراً للأمان، فأرسي الأصل، شعوبى المذهب، شديد العصبية على العرب، وكان هناك "علان الشعوبى" صاحب كتاب "الميدان في المثالب"^(٤)، وكان هناك يونس بن هارون الذي كتب كتاباً لملك الروم في مثالب العرب وعيوب الإسلام بزعمه وكان عبدالكريم ابن أبى العوجاء الذى قال: لئن قتلتموني لقد

(١) جاء عنها فى اللسان: الشعوبى هو الذى يصغر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم، وهناك من ذهب إلى أن لفظ الشعوبية المشتق من الآية الكريمة (شعوباً وقبائل) لم يستعمله أخصار الوطنية الإيرانية إطلاقاً على أنفسهم، وأنه ليس هناك كلمة إيرانية أجدر بأن تكون لقب شرف لمؤصدهم من لفظ الأزمرية (البخلاء) (٤٢٨، ٤٢٦).

(٢) البيان والتبيين ٣/٢ - ٢٢ ط السندوى، البخلاء ٤٢٦، ٤٢٨.

(٣) الحيوان ٤/٤٤٨.

(٤) لمالى المرتضى ١/١٢٨.

وضعت في حديثكم أربعة آلاف حديث مكنوبة مصنوعة، ومثل هذا يقال في أبي عبيدة بالإضافة إلى عدد كبير من الحكماء الذين يصدق عليهم:

إذا ذكر الشوك في مجلس

أضاعت وجوه بني برمك

وإن تليت عندهم آية

اتوا بالأحاديث عن مزدك

وإلى سلسلة من الشعراء وممن اصطلح على تسميتهم^(١) الزنادقة، وعصبة المجان.

ولقد كانت هذه الآراء واضحة بحيث تتصادم حولها الآراء، ولكن الرأي الذي احتاج على وقفة كبيرة كان رأي ابن خلدون في المقدمة حين أورد الفصول الآتية:

١- فصل في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط.

٢- فصل في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب.

٣- فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصفة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة.

٤- فصل في أن العرب أبعد للناس عن السياسة والملك.

٥- فصل في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الفساد إلا في الأقل.

وقد ذهب الدكتور طه حسين^(٢)، ومحمد عبدالله عنان^(٣)، ومحمد عبدالغني حسن^(٤)، إلى أن المقصود بكلمة العرب هو ما يقابل العجم، وأنه قال لأنه عاش -

(١) أنظر القهرس لابن النديم ١٧٤، ١٥٤/ وفیات الأعيان ١٥٥/٢، المجتمع العربي ومناهضته للشوعية ١٩٢ وما بعدها.

(٢) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ترجمة محمد عبدالله عنان ١٠٢.

(٣) ابن خلدون ط ٣ ص ١٢٠، ١٢١.

(٤) دراسات في الأدب العربي والتاريخ ٣٧٢.

مع أنه عربى - فى ظلال الأمر البربرية المجاهرة بعداتها للعرب الذين خربوا إفريقيا الشمالية فى القرن الخامس، وهذا الكلام مبالغ فيه فالعرب كان لهم دور حضارى فى هذه المنطقة، ومنها كان انتشارهم المثمر إلى إفريقيا، صحيح أنهم اجتاحتوا الدويلات البربرية ولكن كل هذا كان من أجل رسالة أكبر.. وهناك من قال إنه كان محباً للفساد والمخالفة على نحو ما فعل^(١) من عدم تغيير زيه المغربى حين ولى القضاء فى مصر، وذهب الدكتور إبراهيم سلامة إلى أنه قال ما قال "إما غاضباً متحاملأً على العرب، ناعياً على حظه وحظهم المي، ولما أدركهم دويلات صغيرة تستقاتل وتتغالب من الحكم والسلطان، وإما مدفوعاً بطبيعته العلمية التى تميل إلى كثرة التحليل تنفع به بعيداً لتثبيت الفكرة التى يريدوها..".

وقد تعرض لهذه القضية التى ترى أن ابن خلدون ليس امتداداً للشعبوية التى ظهرت فى القرون الأولى للإسلام - ساطع الحصرى،^(٢) ومحمد جميل^(٣) بينهم والدكتور على عبدالواحد وفى^(٤)، وقد انتهوا إلى أن المقصود - من واقع النصوص فى المقدمة - هم الأعراب، أو سكان للبادية الذين يعيشون خارج المدن، "ومن الغريب أن يقع فى هذا الخطأ باحثون من العرب، بينما يسلم منه كثير من الفرنجة المستشرقين ومن الأتراك حتى القدامى منهم، وإليك مثلاً البارون دوسلان الذى ظهرت ترجمته الفرنسية لمقدمة ابن خلدون سنة ١٨٦٨، فإنه يقول فى تعليقه على عنوان الفصل الثانى من الباب الثانى وهو الفصل الذى عنوانه ابن خلدون بقوله : "فصل فى أن جيل العرب فى الخلقة طبيعى" ما ترجمته "استخدام ابن خلدون فى هذا الفصل وفى الفصول التالية له كلمة العرب بمعنى البدو" ويقول فى شرحه لكلمة العرب فى معجم الألفاظ الملحق بترجمته للمقدمة "أن العرب عند ابن خلدون هم البدو الرحل، وقد أشار كذلك إلى هذا المعنى ضمناً لا صراحة المؤرخ التركى جودت باشا"^(٥).

(١) تيارك أدبية ١٦٣

(٢) دراسات عن مقدمة ابن خلدون ١٥١ وما بعدها.

(٣) الحرية والشعوبيات الحديثة ٥٣، ٥٤.

(٤) مقدمة ابن خلدون . تحقيق د. على عبدالواحد وفى جـ ٢٧٩/١ وما بعدها.

(٥) المصدر السابق نفسه ٣٠٣/١.

"وقد استمر التأليف حول هذه الظاهرة، وإن كانت قد تلوّنت أكثر ما تلوّنت بالحديث عن السياسة والدين، فالشعوبيون عند الدكتور محمد عبدالقادر حاتم هم أولئك الذين حقنوا على العرب، وحملوا راية الكيد لهم، وحاولوا جهدهم القضاء على للعصر العربي، وإعادة السلطة والسيادة للعنصر الأعجمي"^(١) وهم عند الدكتور عبدالعزيز الدورى ، يكافحون الإسلام من خلال المجوسية الإيرانية، ويهاجمون الفضائل العربية، ويعملون على تفتيش القيم الأخلاقية العربية الإسلامية فأكثرؤوا من المجون والشراب، وجاهروا بالخلاعة وبالاتحراف الجنسى، واعتبروا ذلك نوعاً من التحرر ومثلاً فى الظرف^(٢).

ولقد لجأوا فى المجتمع الإسلامى إلى أسلوب الاغتيالات، وهناك من يشير إليهم بالاتهام حين يذكر دور الهرمزان، وأباً لؤلؤة المجوسى فى مقتل الخليفة عمر بن الخطاب، ودور زلزوية الفارسية الذى نجح مع ابن سبأ فى الشغب على الخليفة عثمان كما نجح فى تدبير الأمر لمقتل على وإن ظهر ذلك على يد الخوارج^(٣).

وقد ظهر منهم جماعة تحت اسم "الخانقين" فى أواخر الدولة الأموية واستمر خطرهم حتى أيام المهدي، فقد كانوا يقتلون الناس بالخنق، أو بالتسمم (وهو البنج)^(٤).

أما الدكتور إبراهيم أحمد العدوى فى كتابه : المجتمع العربى ومناهضة الشعبوية، وحركات التنسل ضد القومية العربية، فهو يرصد كل الحركات التى قامت فى الحكم العربى على امتداد التاريخ ثم يدمجها بالشعبوية.

(ب) والذى يهمنا هنا أن نؤكد أن الشعبوية لم تقتصر على محاولة تقويض الفرس ملك العرب، ولم تكن كل صوت يرتفع ضد النظام السائد، وعالم الثبات الذى كان يسيطر على كثير من الفترات التاريخية، ذلك لأنها كانت فى أول الأمر حركة جديدة نشأت فى عقول عربية وتحت مناخ عربى "فالشعبوية فى

(١) للشعبوية ١٧.

(٢) للجنود التاريخية للشعبوية ٧٣، ١١٢.

(٣) الصراع الألبى بين العرب والمعم ٢٦.

(٤) للجنود التاريخية للشعبوية.

الأصل هم الخوارج الذين ذهبوا لأسباب دينية ينكرون أن يكون بين الشعوب والقبائل أى تفاضل فطرى، وعارضوا قريشاً بصفة خاصة فى أن تكون الخلافة حقاً أصيلاً فيها، وحين أنكر للشعبوية الخوارج أفضلية العرب، أنكروا كذلك الإقرار بألية أفضلية الفرس، بينما نادى شعوبيو القرن الثالث بأفضلية الفرس (أو غيرهم من الأمم غير العربية على العرب)^(١).

وقد لاحظ بعض ما بين للشعبوية والمساواة فقد قال الجاحظ، "ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب للشعبوية ومن يتحلى باسم التسوية"^(٢) ويقول ابن عديريه: "قالت الشعبوية وهم أهل التسوية"^(٣).

فالفكرة فى جوهرها إلى حد ما عربية لحما ودماء، وهى تقوم على أصل من أصول الإسلام، ولكنها تحولت بعد ذلك من خلال الصراع الأموى والعباسى إلى إدانة العرب، وتعال عليهم - وإذا كان هناك من يسرع إلى الإدانة والدفع من خلال كلمة للشعبوية - وقد كنت ولحد من هؤلاء^(٤) فإننا نميل الآن إلى بحثها كظاهرة تاريخية فى إطارها للزمنى، وبخاصة من خلال كونها صراعاً ذكياً وجاداً بين ثقافتين، وقد سبق للدكتور إبراهيم سلامة حين تعرض لقوانين التقليد^(٥) عند عالم الاجتماع الفرنسى Tarde أن تحدث عن هذه الظاهرة تحت عنوان تلاقى المذنبتين الفارسية والعربية، فقد ذكر الوجود الذى ظهر فى أول الأمر على الثقافة الفارسية، ذكر ترددها أمام الحضارة للوافدة، وما كان من تقرب القوى من الضعيف كما تقرب العباسيون من الفرس، وبالتالي تقرب الفرس إليهم، وهنا حدث شىء لم يحدث فى تلاقى المذنبات ذلك أن هذا للدين قد غزا الفرس كما غزا العرب، وبعد أن هدأت الأسلحة عرض عليهم قوانين وتعاليم أحبوا، ومن ثم كان

(١) دراسات فى حضارة الإسلام ٨٨.

(٢) البيان والتبيين ٥/٣.

(٣) العقد الفريد ٤٠٣/٣.

(٤) مجلة الرسالة العدد ٥٥ فى ١٩٦٤/٨/٦ وما بعده من أعداد.

(٥) هذه القوانين هى : أ- التقليد يتبع سبيلاً هو أنه يسرى من الداخل إلى الخارج. ب- التقليد ينحدر من الأعلى إلى الأدنى. ج- التقليد يندفع مستملياً تيار الجدة والمستحدثات ليؤثر فى التقاليد ويهاجمها (تيارات أدبية ١١٥ وما بعدها).

التقارب الذى لم تعرفه المدنيات المتناكرة، وكان هذا الانكباب على الدين الجديد يقارنون به ما عندهم.

ويقرون فيه من الفروق ما يصلح أن يكون أساساً لجدل جديد ولمذاهب جديدة، على أن الفرس وبخاصة الشعراء منهم الذين يصدرون عن عاطفة دائماً لم ينسوا قومهم، فظهر فى شعرهم عصبية لقومهم، وإعجاب بقومهم، وتفضيل لهم على غيرهم، وكان من أثر هذا أن وجد معسكران متقابلان أحدهما لواء "العصبية" والآخر يحمل لواء الشعبوية^(١).

ولذى يهمنى هنا أن نؤكد أن الشعبوية الداخلية - إن صح التعبير - تختلف عن الشعبوية الخارجية. فالعرب قبل الإسلام كانوا شعوبين يقولون إنهم يتفوقون على غيرهم بالفصاحة وعراقة النسب، والفرس كانوا يزعمون أنهم خلقوا للسيادة، وأن بقية الناس خلقوا للطاعة، وأمام هذه الدعوى قال العرب ما قالوا، وقال اليونانيون أن ما عداهم عبدة، وأنهم يتفوقون بالعلم والحضارة وأن الفرس بربرة، والأراميون فخروا بأنهم علموا الفرس للكتابة، ويمكن أن نرى هذا عند الرومان والعبرانيين، بل ويمكن التعرف على هذا فى الدولة العثمانية وعند الإنجليز والأمريكيين^(٢).

أما الشعبوية الداخلية فقلما خلا منها وطن، وإن كانت تنف عند حد المفارقة دون الوصول إلى العداوة، ولكن لما كانت الأمة الإسلامية قد طويت للفرس أكثر مما طويت، ولما كانت للدولة تتحول من العروبة إلى الإسلامية على حد أن كتاب الإمام إبراهيم لأبى مسلم جاء فيه "وإذا استطعت ألا تدع بخراسان أحداً يتكلم العربية إلا قتلته فافعل.. وعليك بمضر فإنهم العدو القريب للدار"^(٣).

لما كان هذا قد حدث بالفعل فإننا فى ضوءه نستطيع أن نفسر ظاهرة الشعبوية على أنها قد استحوطت إلى نوع من المنافسة بين الفرس والعرب باعتبارهم عرباً لا مسلمين.. نادى شعوبيو القرن الثالث بأفضلية الفرس (أو غيرهم من الأمم

(١) تيارت أدبية ١٧١، ١٧٢.

(٢) دراسات فى المذاهب الأدبية والاجتماعية: عباس محمود العقاد ١٦٤، ١٦٥.

(٣) شرح النهج ٣٠٩/١.

غير العربية) على العرب، ودافعوا عن دعوام حجج اجتماعية وثقافية لا دينية^(١)، ومن المعروف أن للتشيع "لآل البيت" كان قوياً بين الفرس وبين غيرهم ممن دخلوا في الدين الجديد، فالإسلام قد حطم الحواجز، أما العرب فقد أقاموا الحواجز بينهم وبين غيرهم وبينهم وبين الآخرين، ومن ثم واثت الفرصة للفرس حتى استعان بهم العباسيون في تأكيد ملكهم.

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل تعداه إلى الإسلام نفسه حين ظهر لهم أنه السند الحقيقي للعروبة، وأن للعرب يمسندون إليه ظهورهم ثم ينوشونهم منه.

وبعد هذا يمكن القول بأن هذا التيار الشعبي "يتحول إلى تيار مادي داخل الإطار الروحي الكبير الذي يضم العالم الإسلامي، ويمكن القول بأنه قد ساعدت عليه "نزعة التنوير" التي كانت حصاداً لليونانية بعد الفارسية، والتي تقوم بحسم على تمجيد العمل، واعتباره المراد الحقيقي لكل شيء.. وساعدت عليه فكرة التقدم المستمر للإنسانية، وهذه الفكرة أساساً كانت تصطبغ مع أهل السنة الذين يقفون عند "النص" وفي الوقت نفسه يرون أن كل بعد عن عهد النبي هو بعد عن العلم والحضارة.. كما ساعد عليه أيضاً ما يسمى "بالتقييم الإنسانية" في مواجهة القيم الإلهية، والتي يمكن القول بأنها ظهرت أكثر ما ظهرت عند من سماوا "عصبة المجان"^(٢).

.. وعند الذين توغلوا في عالم الإلحاد "والإلحاد يعني في النهاية المادية"^(٣).

من هذا نرى أن الأمر قد تحول من صراع قومي، إلى صراع على تقرير مصير الثقافة الإسلامية كلها^(٤)، فلم يكن الهدف تملأ هو تفويض الأمة الإسلامية، ولكنه محاولة لإعادة تشكيل النظم السياسية والاجتماعية والروح الداخلية للثقافة الإسلامية.^(٥)

(١) دراسات في حضارة الإسلام ٨٨.

(٢) تاريخ الإلحاد في الإسلام. د. عبدالرحمن بنوي (المقدمة ج. ط).

(٣) سقوط الحضارة : كولون ولومن. ترجمة : نيس زكي حين ٢٣٩.

(٤) دراسات في حضارة الإسلام ٨٦.

(٥) المصدر السابق نفسه ٨٨.

ولقد حمل راية للشعبية بحق الشعراء وللكتاب، ذلك لأنه لا الإيمان ولا الشك الفكرى يستهويهم وإنما تستهويهم الأحداث العنيفة التى تلهب عواطف وتثير ثائسرة خيالهم، وليس أدعى من إلهاب العاطفة وإثارة الخيال من نزعة الشعبوية، تذكر بمجد نال يعتزون به، ويتغنون بعظمته^(١)، ولقد وصل بهم الأمر إلى حد التأثير على الشعراء العرب، على نحو ما نعرف من مينة البحترى التى يقول فيها:

حلّ لم تكن كأطلال سُعدى

فى قفار من البسباس ملمس

ومساعٍ - لولا المحابة منى -

لم تُطَقها مسعاة عنس وعبس

فهؤلاء قد رفعوا أعلام الثقافة، ونظروا إلى الوراء فى غضب، وقدوا فصلاً من المسخط لا فصلاً واحداً.

من كل هذا نرى أن هذا النوع الذى سميناه "الشعبوية الداخلية"، كان فى أول أمره وجهة نظر متقدمة ومؤمنة بالإنسان وقيمه ودوره فى الحياة، ثم تحولت بعد ذلك إلى صراع قومى مفرغ من الروح الدينية، ثم تحولت بعد ذلك إلى صراع ضد العروبة وضد الإسلام نفسه، فبعد أن كان بنو طاهر مثلاً - وهم شيعة - يفاخرون العرب ويقولون : إن العربى لا يفلح إلا ومعه نبي، وكأنهم لا يسلمون بغير نبوة محمد^(٢)، أصبحت مجموعة من الفرس تعمل للتشهير بالديانة المانوية، وتعمل على المخالفة للقيم الإسلامية وذلك بالمجاهرة بالمجون والشراب والخلاعة والانحراف الجنسى^(٣)، ويجب ألا تعنى كلمة الفرس عندنا كلمة للشعبوية كما هى العادة، ولنقرأ مثلاً ما يقوله ابن قتيبة "قاماً أشرف العجم وذووا الأخطار منهم وأهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم ويرون الشرف ثابِتاً"^(٤) صحيح أنه يجعل الراسخين فى

(١) تاريخ الإحاد فى الإسلام ٣٢.

(٢) دراسات فى المذاهب الأدبية والاجتماعية ١٦٧.

(٣) الجذور التاريخية للشعبوية ٧٣، ١١٢.

(٤) رسائل البلاء ط ٤ محمد كرد على ٣٤٥، دراسات فى حضارة الإسلام ٩٢.

الشعوبية من المغلة، والحضرة، ولوباش النبط، وأبناء القرى، ولكن الذى لا شك فيه أن الطوائف التى كانت تحس بالقلق الاجتماعى والنفسى، والمتمثلين تماماً فى الفقراء هم الذين رفعوا رايات الخلاف على أكثر من قلعة، والذى لا شك فيه كذلك أن مجموعة من هؤلاء الغاضبين كانوا يتمزقون أمام التناقضات التى بغص بها عصرهم، وأنهم حاولوا إحداث حركة تغيير حاسم فى عصرهم، وحاولوا إعادة تشكيل الحياة من حولهم ولم يكن أمامهم إلا أن يصطدموا بالنظام الذى حولهم مع ما يمثله هذا النظام الذى لا يزعم أحد أنه كان للنظام الأمثل، على أن هذا لم يكن شراً كله، ذلك لأنه أمام هذه التحريات العقلية ولدت من داخل آراء أهل السنة "حركة متصلة تعطى العقل اهتماماً لنبتقت للمعتزلة عنها فيما بعد"^(١).

ثم كان الصوت القوي الذى أحاط بالشعوبية، وحاصرهما، ولقى الأضواء عليها واحداً من هؤلاء المعتزلة.. هو عمر بن بحر الجاحظ الذى أقام لبناً إسلامياً جديداً راسخاً على أسس العلوم الإنسانية العربية^(٢).

يلاحظ أن الأستاذ أحمد أمين حين تعرض لهؤلاء الذين اعتنقوا الشعوبية قال: إن الشعوبيين كانوا أصنافاً مختلفة، منهم فرس، ومنهم نبط، ومنهم قبط، ومنهم أنطلسيون، ولكل من هؤلاء صبغته الشعوبية، فالفرس صبغت صبغة وطنية تدعو إلى الاستقلال، واتخذت فى بعض الأحيان شكل زندقة والإحاد، والنبط ظهرت فى شكل عصبية للأرض وزراعتها، وتفضيل معيشة الحرث والزرع فى الصحراء ومعيشتها، والقبط ثاروا ثورات مختلفة على العرب، وأرادوا طردهم من بلادهم، وكانت آخر ثوراتهم الكبيرة فى عهد المأمون، فلما هزموا لجأوا إلى الكيد بأعمال الحيلة واستعمال المكر، وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم فى كتاب الخراج، وفى الأنطلس ظهر ابن غريسة، ووضع رسالته فى الشعوبية ورد عليه كثير من العلماء^(٣)، وللملاحظ هنا أنه لم يتعرض للسود.

(١) دراسات فى حضارة الإسلام ٩٢.

(٢) المصدر السابق نفسه ٩٣.

(٣) ضحى الإسلام ١/٦٠.

أما الدكتور عبدالعزيز الدروى، فتحت عنوان ديول الشعبية نراه يذكر أن هناك جماعات انتقدت العرب أو هاجمتهم ولكنها لم تفكر فى إعادة سلطان.. أو القيام بثورات، ويعد أن يعرض للنبط يقول بالنسبة للسود كما أننا نجد بعض الإشارات إلى محاولة السودان تأكيد فضلهم ومزاياهم، وقد أورد الجاحظ الكثير من ذلك فى رسالته الموسومة بكتاب فخر السودان على البيضان.. ولكن هذه الإشارات إنما تدل على محاولة لإثبات كيان اجتماعى لجماعات تحس بحاجتها إلى ذلك فى المجتمع العربى الإسلامى، ومن المتعذر وضعها فى النطاق النهجى العنيف للشعبية^(١).

ونحن لا يهمنا - كما فعل بعض - أن نؤكد سذاجة السود، وأنهم كانوا قطعاناً طليعة تغطى المنطقة العربية الإسلامية، ذلك لأن الثابت أنه قامت لهم ثورة وقام باسمهم نظام استمر عدداً كبيراً من السنوات، وأن المجتمع العباسى لم يزلزل بثورة مثل ثورتهم، وإذا كانت هذه الثورة قد خلت من الأصوات المعبرة لأسباب خاصة بها، فإنه يمكن القول: أين الأصوات الخاصة التى نطقت مثلاً باسم ثورات القبط التى اعتبرت شعبية ؟ ثم إن ثورة الزنج لم تقف عند محاولة إثبات الكيان لأنها تخطت هذه المرحلة بعدة مراحل حين وقفت عند ما سميناه "القومية السوداء" فى مواجهة المحيط العربى الذى يحيط بهم.

ثم إنه قد سبق لنا أن أوردنا عدداً من القصائد لشعراء سود هم الحيقطان، ومسنيح بن رباح، وعكيم الحبشى، ونحن إن نتعرض لإعادة ما ذكرناه سابقاً، ذلك لأنها - بخلاف ما يروى للدكتور الدروى - لا يصعب وضعها فى الإطار الشعبوى، صحيح أنها كانت سلملة من ردود الفعل للظروف الخاصة التى تحيط بهم، ولكن دراسة هذه القصائد توضح - فيما نزع - أنها من أقسى ما قيل فى العرب، وأنها تعرضت لجوانب ما نحسب أحداً من الشعبيين قد تعرض لمثلها، ومن الملاحظ أنه برغم السخرية الجارحة لم يتعرضوا للدين، وإن كانوا ينفون فضله على العرب.

(١) الجنود للتاريخية للشعبية ص ١١٦، ١١٨.

فأما التي قلتم فتلكم نبوة

وليس بكم صنونُ الحرام المستر

من هنا نرى أن الشعراء السود كانوا هم "الشعوبيين الأول" كما سبق أن ذكرنا، أما الشعراء الذين جاؤا بعد ذلك في العصر العباسي بصفة خاصة، فقد استفادوا ممن سبقهم، ثم قالوا الكلمة التي تتفق مع عصرهم أما هؤلاء فكانت قصائدهم للمشاقة للعرب مجموعة منظمة من الانفجارات.

.. ويمكن تفسير هذا، من خلال ما تحدثنا عنه حين تكلمنا عن الشعوبية، بأنهم كانوا من أوائل الذين تنبهوا إلى حقيقة التناقض في المجتمع، وإلى هذا الأحدود الذي يتسع يوماً بعد يوم بين النظرية التي تأخذ بها الأمم وبين التطبيق، ومن ثم كان احتجاجهم بالشعر فريداً في نوعه.. وكانت ثورتهم كما قلنا ثورة جنس على جنس، لا ثورة حضارة على حضارة، ومع أنهم كانوا يلوون أعناقهم إلى حضارة الإنسان الأسود، وبخاصة ما كان منها في الحبيشة، إلا أنهم لم يأتوا في هذا المجال بشيء هام وذلك لا نقطاعهم عن هذا العالم الأسود الذي قدموا منه، ولأنهم كانوا لا يملكون - لفقرهم الغالب - حتى للتنقل في هذا العالم الذي ودعوه من قبل.. أو تركوه بدون وداع! على أنهم لم يخفوا تماماً، ففي أواخر الدولة لفاطمية ظهرت طبقة جديدة من السود، فالخلفاء الفاطميون قد أخذوا في آخر حياتهم بالاستعانة بقوات من السود، وبخاصة الأجناس، فقد كان منهم في أيام صلاح الدين مائة ألف مقاتل سوداني وكانوا يحرسون النظام.

الباب الثاني
صلوات السود بالعرب حديثاً



صلات السود بالعرب حديثاً

(١) لقد كانت إفريقية هي الامتداد الطبيعي للتقدم العربى الإسلامى القادم من آسيا، ولقد كانت طبيعة المتقدمين فى الغالب تتمثل فى شعوب بدوية رعوية أو شبه رعوية تعتمد فى الغالب على ظهر الإبل والخيل، ولقد كانت البلاد التى انتشر فيها الإسلام تحيط بالصحراء الكبرى شمالاً فى المنطقة الممتدة على حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسى، وجنوباً عبر وادى النيل حتى حدود السنوية، وفى النطاق الرعوى الذى يحيط بهذه للصحراء من الجنوب من مصب نهر السنغال حتى السودان.. على أن الإسلام لم يستطع أن يتخطى الحواجز الطبيعية الكبرى وهى شلالات النيل وهضبة الحبشة، ومنطقة البحيرات الكبرى وما يكتنفها من أدغال^(١).

على أنه بالإضافة إلى خطوات الجهاد ظهرت أنوار هامة للفرق الصوفية كالقادرية، والتيجانية، والمنوسية، بالإضافة إلى حركة انتشار الإسلام على رقعة كبيرة من أفريقية بوساطة التجار، وبوساطة عدد كبير من الدعاة والمعلمين، وبخاصة الإفريقيين منهم مثل عثمان دان فوديو، ومحمد الأمين الكانى، والحاج عمر بن إدريس، ومحمد المهدي، وإمام الصمد، فبوساطة هذه القوى استطاع العرب أن يكون لهم إمبراطورية فى إفريقية، والجدير بالذكر أن أعظم الأعمال التى تحققت على أيدي المسلمين فى إفريقية قد قامت بعد انحلال "الإمبراطورية العربية" فى المشرق فقد كان العرب يرون فى قدرة الشعوب الإفريقية على التطور ما يحقّق أغراضهم الخاصة بنشر أفكارهم الجديدة فى هذا الجزء من العالم، وخلال للفترة ما بين عام ٨٠٠، ١٣٠٠م حينما كانت منية الإسلام لا يمكن أن يباريها فى مجال الفكر والفن والعلم والإدارة أى جزء من أجزاء العالم، كانت أيضاً الفترة التى ازدهرت فيها بعض الممالك الإفريقية الكبيرة، وقد لعب البربر فى شمال أفريقية دوراً عظيماً فى تاريخ للعالم الغربى والأجزاء الآسيوية الغربية، كما كانت هناك أضخم وأعظم الممالك السودانية جنوب الصحراء الكبرى حيث وجد الإسلام فيها مرتعاً خصيباً يستطيع أن يجول فيه ويصول^(٢).

(١) انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية - د- حسن إبراهيم حسن ط٢ ص ١٠.

(٢) موجز تاريخ لأفريقية. رولاند أوليفر، جون فيج. ترجمة الدكتور دولة لحد صافق. ٧٤.

المهم أن دور الإسلام^(١) لم يقف عند استيعاب كل ملامح الشعوب الإفريقية، ذلك لأنه استطاع بعد فترة أن يكسر حاجز الصحراء الكبرى ثم يكون جنوبها للممالك والتجمعات الآتية^(٢):

- ١- مملكة غانة.
- ٢- مملكة مالي.
- ٣- مملكة صنغاي في جوا.
- ٤- شعب الحوصة - شمال نيجيريا.
- ٥- شعب اليوروبا - جنوب غرب نيجيريا.
- ٦- مملكة برنو - شرق نيجيريا.
- ٧- مملكة الكانم - شمال شرق بحيرة تشاد.
- ٨- إمارات موسى - داجمبا.
- ٩- مملكة البمبارا - في سيجو وكارتا.
- ١٠- مملكة صوصو - في كانياجا.

المهم أن الإسلام في إفريقية قد أحاطها من الشرق والشمال والغرب، ثم تنأثر فيها بعد ذلك، وهذه الإحاطة يشبهها هوبير ديشان بالهلال، فالإسلام يحيط إذن بالقارة من غربها وشمالها وشرقها من مدينة دكار غرباً على ساحل "السنغال" حتى يبلغ مدينة كليمان في موزمبيق البرتغالية، ويتسع عرضه تارة ويضيق تارة في شكل أشبه ما يكون بهلال يذكر الناظر إليه على الخريطة برمز الإسلام^(٣).

وفي الوقت نفسه نرى أن العوائق للقديمة أمامه قد تكسرت، فكما اكتسح السهول رأيناه يتعلق بالمرتفعات، ورأيناه يتخطى أقاليم السافانا إلى الغابات^(٤).

(١) للمصدر السابق نفسه ٨٧.

(٢) دول إسلامية إفريقية: د. عبده بدوي ص ٣٦ وما بعدها، مع حركة الإسلام في إفريقية د. عبده بدوي ص ٩٤ وما بعدها.

(٣) الديانات في إفريقية السوداء: ترجمة أحمد صادق حمدي ص ١٤١.

(٤) دول إسلامية في إفريقية، د. عبده بدوي ص ٣٦.

وقد نشأت في ضوء هذا سلاسل عربية إفريقية تتفاوت فيما بينها نسبة الدم والسلون، مما ترتب عليه عدم وجود حد لوني فاصل - في غرب إفريقية مثلاً - بين الدول العربية في الشمال، والدول المستعمرة المملعة في الوسط، والدول التي يغلب عليها طابع البانتو في الجنوب، بل إن الإسلام نفسه قد تشكل من حيث المظهر بصور كثيرة، وبخاصة في المجال الصوفي.

ونحن لا ننسى هنا أن اللغة العربية التي احتفظت بالطابع التقليدي في الشمال، وقد تزاوجت مع اللغات الأخرى في غرب إفريقية وشرقا بصفة خاصة، مما كان من ثمرته أن ازدهرت لغتان كبيرتان من اللغة العربية، ففي الشرق ظهرت اللغة السواحلية التي تعتبر لغة "لتقاهم العام" في إفريقية الشرقية بحيث تمت نفوذها من الصومال على موزمبيق، ويشتمل على أوغنده وكينيا وتنزانيا وروندا وأورندي والمقاطعات الشرقية من الكونغو وما كان يسمى بالروديسيا. وعلى كل فعدد من يتكلمونها يتدرون بأربعين مليوناً.

أما السلغة الثانية فهي "هوسا" وهي لغة تقاهم عام كذلك في أقطار إفريقية الغربية والسنغال وغينيا وليبيريا في الغرب إلى شمال الكمبرون في الشرق، ويقدر عدد المتكلمين بها أكثر من ستين مليوناً من الأفريقيين^(١).

وإذا أردنا تطبيقاً على هذا فإننا نجده في وصف محمد الوزان الذي أطلق عليه اسم ليون الأفريقي - فيما بعد - لمقاعد العلم والثقافة على مدن نهر النيجر التي كانت تستورد الثقافة العربية من المثال، ونجده في عدد من هؤلاء السود الذين تركوا مؤلفات بالعربية كمحمد كاتى، ونجده حتى في هؤلاء الذين وصفوا للتجار بأنهم "عرب سود" يتحدث بعضهم العربية^(٢).

(ب) ونحن يهنا هنا أن نذكر أن هذا لم يتم في غياب الإنسان العربي، فإذا تركنا الموروث الثقافي العربي، وإذا تركنا الإسلام حضارة متكاملة، فإننا لن نفقد وجود الجنس العربي وهو يتخطى عدة مستويات - القارة الأفريقية منطقة بعد

(١) الديانات في إفريقية السوداء ٩٥ وما بعدها، وإفريقية والاستعمار ص ٢٤ محمد عبدالعزيز اسحق (بحث).

(٢) مطالعت في الشؤون الإفريقية ٢٠ جمال محمد أحمد.

منطقة، فالمسحة العربية كما يقول بازيل دافيدسون يمكن أن تجدها على شواطئ الكونغو^(١)، ويمكن أن نجدها في عديد من اللوجوه التي نراها في العديد من المناطق الإفريقية، ومع أن بعضاً كبازيل دافيدسون يحاول أن يقصر هذا على تجارة الرقيق العربية، وإلا أن الحقيقة تظهر على لسان جرينفل الذي كان وزيراً في الكونغو، فهو يقول: "لقد زور البلجيكيون في الكونغو فليست مدينة "ستانلي فويل" سوى مدينة نيبوتيب"^(٢) الذي أقام هذه المدينة قبل قدوم الرحالة "ستانلي" وليس العرب كما قالوا لنا تجار رقيق، وإنما هم تلك الموجة الإنسانية التي اختلطت بنا، وصاهرتنا وتركوا لنا لغة متولدة من لغتهم، وديناً، وحضارة وسماحة تسرى بين كل الناس، كما تركوا على أرضنا دماءهم. والبلجيكيون يحصدونهم بالأسلحة الحديثة، وليس أعز علينا شيء من هذا الدم العربي الذي سال في الماضي كما سال ويسيل دمنا الآن في بلادنا على أيدي أعداء العرب أنفسهم في القرن الماضي^(٣)، ولسنا هنا في مقام تبرئة الكثير من العرب من تجار الرقيق، ولكن الذي نريد أن نصل إليه أن الجيش العربي كان ميثوثاً في إفريقية، وأن الاستعمار حين قدم إليها قد جعل من أهناماته تصفية مواقعهم، والضغط على ما يمثلونه من دين وثقافة، خاصة وأن الزعماء العرب والمسلمين كانوا هم الممثلين الحقيقيين لحركة المقاومة لهم وهم يضعون أيديهم على إفريقية، ولقد كان في مقدمة هؤلاء المقاومين ضد سقوط إفريقية في أيديهم نيبوتيب، والوداد محمد بن عبدالله حسن، ومحمد أحمد للمهدى، والسلطان ربيع فضل الله، والسلطان على دينار، وعثمان دان فوديو، والحاج عمر نال، وماء العنينين، والسلطان سعيد... وكل واحد من هؤلاء له حروب كثيرة مع الاستعمار الأوربي^(٤).

أما الزعماء الإفريقية - خارج دائرة العرب والمسلمين - فالتاريخ لا يقدم لهم أنواراً تشبه من قريب أو من بعيد دور هؤلاء الزعماء الذين سقوا الأرض بالدماء في صراعاتهم مع هذه القوى الرهيبة المتقدمة، ففي الشرق نرى الأحباش

(١) صحوة إفريقية . ترجمة عبدالقادر حمزة.

(٢) هو الزعيم حميد بن محمد بن جمعة المرجبي الذي يمتد نسبه إلى قبيلة المرجبية العربية.

(٣) شخصيات إفريقية د. عبده بنوي ١٢.

(٤) شخصيات إفريقية ٩ وما بعدها.

يضعون أيديهم فى أيدي البرتغاليين لضرب المسلمين، وتقصير خطوطهم البحرية والسبرية، وفيما وراء ذلك نرى أن عدداً كبيراً من الزعماء الإفرقيين قد وقعوا فى حبال المعاهدات، والهدايا والتبشير، فى الوقت الذى كان فيه هؤلاء الزعماء الذين تحدثنا عنهم يسقطون الولد بعد الآخر فوق إفريقية وهى تسقط.

وبعد أن انحصرت موجات الاستعمار عن إفريقية ولم تبق إلا "بقع" قليلة رأينا هؤلاء للعرب والمسلمين يأخذون دورهم فى الإسهام الحقيقى فى حركة الحياة هناك.

وفى الجولة التى قام بها الوفد المرسل من قبل المؤتمر الإسلامى عام ١٩٥٦ لقيام بدراسة شاملة لأحوال المسلمين فى إفريقية.. نرى الدكتور حسن أحمد محمود يذكر أن المسلمين هناك، وقد تركوا السلبية التى فرضت عليهم، وأنهم أخذوا بأسباب الحضارة الغربية، وأصبحوا فى غرب إفريقية مثلاً عتصراً فعالاً فى بعث الوعى القومى وشاركوا فى الحركات التحريرية، وتولوا أعظم المناصب، ولم ينسوا تقاليدهم الإسلامية، أو ثقافتهم الإسلامية، بل حرصوا على التعاليم الدينية حرصهم على الحياة، وتجاوبوا مع جماهير المسلمين فى كافة أنحاء العالم الإسلامى، وكذلك الحال فى شرق إفريقية.

ونحن نرى فى مجال السياسة أنه كانت هناك دائماً سياسة للتقرب بين العرب وإفريقية كما هو الحال فى مؤتمر بانديونج، ومؤتمرات الدار البيضاء، ومؤتمرات القمة الإفريقية، وباقي المؤتمرات الأخرى التى كانت تضم الآسيويين والإفريقيين.

كما أن العرب وقفوا دائماً وبحزم إلى جانب القضايا الإفريقية.

وبالإضافة إلى هذا كان هناك دائماً خط التعليم العام والجامعى الذى كان يتأكد دائماً سواء أقم الإفريقيين من بلادهم إلى البلاد العربية وبخاصة جمهورية مصر العربية أو ذهب المعلمون العرب إليهم فى العديد من المناطق الإفريقية ويجب ألا ننسى إسهام مصر فى التعليم العام فى السودان، وإنشائها فرعاً لجامعة القاهرة بالخرطوم عام ١٩٥٥. وإلى جانب هذا يوجد عدد من المراكز الثقافية على عدة مناطق هناك، كما يوجد عدد من الخبراء العرب يقومون بالعديد من الأنشطة فى إفريقية.

وقد كان هناك دائماً العديد من المحاولات لتعميق العلاقة بيننا وبين الإفريقيين، وكان في مقدمة المحاولات للنجاحة، معهد الدراسات الإفريقية، "الرابطة الإفريقية" ومجلة نهضة إفريقية^(١) التي استمرت سبع سنوات في خدمة كل ما يتصل بإفريقية من قريب أو بعيد، ولقد كان من اهتماماتها ما عبرت عنه بقولها: إن للكثيرين يدركون أنه كانت هناك عملية متعددة لإبعاد كل ما يتصل بإفريقية عن المواطن العربي، وأنه شيء آسيوى يجب أن يقف عند حدود دون التقدم إلى جهة من الجهات، ولكن الجميع قد أدرك الآن أنه ليس للعروبة في آسيا أكثر مما لها في إفريقية.

أما الإعلام فقد كان لمصر دور ملحوظ فيه، فإلى جانب قيام إذاعة ركن السودان كبرنامج أسبوعي في عام ١٩٤٨. ثم استقلاله في إذاعة كاملة، فإنه قد تم إنشاء إذاعة صوت إفريقية عام ١٩٦١.

ومن هنا يأتي دور المواطن العربي في عدم الانعزال عن القارة، ويأتي دوره في تحطيم أسطورة أن يقف عند شمال الصحراء، ذلك لأن فكرة التقسيم فكرة دخيلة يخفى وراءها الاستعمار، والتبشير، والاحتكار.

ثم إن المواطن العربي ليست له أغراض توسعية، وهو يحس أنه مهدد طالما كان هناك ظل للاستعمار، وتاريخ العروبة في القاهرة - مهما أشاع المؤرخون الغربيون - يشع بالسلام، والحرية، والرفاهية، ولو خلى بينهم وبين القارة في الفترة التي مزق فيها الاستعماريون إفريقية، لكانت هذه القارة من أولى اللقارات في الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى، فالأمواج العربية استقرت في كل مكان وصلت إليه، وأسهمت في إثرائه، وشاركت في تقدمه وسعت بحماسة إلى الاندماج في الإفريقيين عن طريق المصاهرة، والتاريخ لا يذكر لنا حتى ما سجله أعداء العروبة أن جماعة عربية وضعت يدها على أية ثروة اقتصادية من ثروات للقارة، ثم حملتها إلى موطنها الأول، وحرمت منها أبناء البلاد^(٢).

(١) أسعدنى لحظ في العمل مديراً لتحريرها طيلة فترة صدورهما.

(٢) مجلة نهضة إفريقية العدد ٣٦ مقال: الجمهورية العربية المتحدة وإفريقية. د. عبده بدوى.

...وعلى كل فإن العرب إذا كانوا قدموا من أزمان عديدة إلى هذه القارة
وامتزجوا بها امتزجاً حاراً، فإنه من الصعب القول بأنهم طارئون أو غرباء فضلاً
عن القول بأنهم مستعمرون ، ذلك لأن أولى خصائص الاستعمار استغلال الأرض
وامتصاص قوى الشعب وقد ظل الاستعمار في إفريقية غربياً، وظل المستعمرون
المتطرسون جميعاً غرباء يعتقدون ويطبقون مبادئ التفرقة العنصرية، أما العرب
ففضلاً عن امتزاجهم بأوطانهم الجديدة، فقد ربطوا مصيرهم بمصير هذه البلاد
وقاسموها أفراحها ومنجوها كل ما منحتهم من مزايا وخيرات^(١).

(١) إفريقية والاستعمار ٢٤.

أشهر المصادر والمراجع

(أ) مخطوطات :

- ١- أزهار العروش في أخبار الحبوش. جلال الدين السيوطي. دار الكتب تحت رقم ح ٢٨٣١٨ مجلد (١)
- ٢- رسائل للسيوطي . جلال الدين السيوطي. دار الكتب تحت رقم (٣٢) الفن مجاميع).
- ٣- رفع شأن الحبشان. جلال الدين السيوطي. دار الكتب مجلة رقم (٢) تحت رقم (ح ٢٨٣١٨).
- ٤- الطراز المنقوش في محاسن الحبوش. دار الكتب تحت رقم (٢٢٨٣).
- ٥- كتاب للملاهي وأسمائها . أبو الفضل المفضل بن سلمة. دار الكتب تحت رقم (٥٣٣ فنون جميلة).

(ب) مطبوعات :

- ١- الأمدى : المؤلف والمختلف . تحقيق : عبدالستار أحمد فراج دار إحياء للكتب العربية ١٩٦١.
- ٢- الثعالبي : خاص منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت.
- ٣- إبراهيم الإيباري : أبو للمسك كالفر.
- ٤- ابن قتيبة : الشعر والشعراء، والمعارف.
- ٥- ابن نقيب البغدادي : الجمان تشبيهات للقرآن. تحقيق د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي.
- ٦- ابن دريد : الاشتقاق . تحقيق عبدالسلام محمد هارون . مطبعة دار للمحمدية ١٩٥٨.
- ٧- أبو حيان التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة، شرح أحمد أمين وأحمد الزين.

-
- ٨- البصائر والنخائر : ج١، ٢ تحقيق د. إبراهيم الكيلاني .
- ٩- أبو الفرج الأصبهاني : الأغاني ج١ دار الكتب ، ط ساسي ، ط الهيئة م ٤٠ : للتأليف .
- ١٠- أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول - دار الفكر .
- ١١- أحمد أمين : فجر الإسلام ، ضحى الإسلام ، ظهر الإسلام ، الصعلكة والفتوة في الإسلام .
- ١٢- السبيهقي : (إبراهيم بن محمد السبيهقي) المحاسن والأضداد، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر .
- ١٣- النعالي : فقه للغة سر العربية. للمكتبة التجارية ١٩٢٧ .
- ١٤- الجاحظ : البيان والتبيين، الحيوان، البخل، رسائل الجاحظ .
- ١٥- الجهمسباري : الوزراء والكتاب تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، ج١، مصطفى البابي الحلبي .
- ١٦- الإبانة عن سرقات المتنبي لأبي سعيد محمد بن أحمد العامري تحقيق : إبراهيم الدسوقي البساطي ص ١٦٢ (دار المعارف) .
- ١٧- الحافظ جلال الدين السيوطي: نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر . المكتبة العربية. دمشق .
- ١٨- د. حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية. مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨م .
- ١٩- الحيمى (الحسن بن أحمد) : سيرة الحبشة. تحقيق د. مراد كامل، وزارة التربية والتعليم .
- ٢٠- شهاب الدين أحمد الأبهسي : المستطرف في كل فن مستطرف. أشرف عليه إبراهيم الدسوقي .
-

- ٢١- د. طه حسين : ألوان ، حديث الأربعاء، للشعر الجاهلي.
- ٢٢- عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، دراسات في المذاهب الأدبية الاجتماعية، داعى السماء، ما يقال عن الإسلام، المرأة في القرآن الكريم، يوميات سعد زغلول.
- ٢٣- د. عبدالرحمن بدوى : شخصيات قلقة.
- ٢٤- د. عبدالرازق حميدة : أدب الخلفاء الأمويين، الأدب العربى فى مصر. مكتبة الأنجلو.
- ٢٥- د. عبدالعزيز الدروى : الجذور للتاريخة للشعبوية، دراسات فى العصور العباسية للمتأخرة.
- ٢٦- د. عبدالمجيد عابدين : بين الحبشية والعرب.
- ٢٧- د. عبده بدوى : دول إسلامية فى إفريقية، شخصيات إفريقية ، مع حركة الإسلام فى إفريقية.
- ٢٨- د. على عبدالواحد وافي : المساواة فى الإسلام ، مقدمة بن خلدون ط٢.
- ٢٩- د. فيليب حتى : تاريخ العرب ترجمة محمد مبروك نافع ط٢ مطبعة العالم العربى.
- ٣٠- القلقشندي : صبحى الأعشى ج١ دار الكتب.
- ٣١- كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى . ترجمة د. عبدالحليم النجار ج١، ٢، ٣، دار المعارف.
- ٣٢- المبرد : (أبو العباس محمد بن يزيد) الكامل فى اللغة والأدب. المكتبة التجارية.
- ٣٣- محمد بن حبيب : المحبر. عنت به للدكتورة ليلى لختن شفير ، مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية. حيدر آباد، ١٩٤٢.

٣٤- محمد الحفنى اللقائى : الجواهر الحسان بما جاء من الله والرسول وعلماء التاريخ فى الحبشان.

٣٥- محمد عبدالغنى حسن : دراسات فى الأدب والتاريخ. للدار القومية.

٣٦- المسعودى (أبو الحسن بن على بن الحسين) تاريخ مروج الذهب . للمطبعة البهية المصرية ١٣٤٦هـ.

٣٧- النويرى : (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب) نسخة دار الكتب.

٣٨- هاملتون جب : دراسات فى حضارة الإسلام. عن دار العلم للملايين.

٣٩- يوسف البديعى : الصبح المنبى فى حيثة المتنبى تحقيق مصطفى السقا، ومحمد شتا، وعبد زيدة. دار المعارف ١٩٦٤.

40- The African Image by Ezekiel Mphahla

41- Rose, The Negro in America

كتب للمؤلف

- ١- عشرة كتب عن إفريقية ، للدار القومية ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- ٢- خمسة كتب عن الإسلام ، للدار القومية ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- ٣- كتب في تاريخ الأدب والنقد :
 - ١- الشعر الحديث في السودان، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.
 - ٢- في الشعر والشعراء، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.
 - ٣- أبو تمام وقضية التجديد في الشعر، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.
 - ٤- قضايا حول الشعر، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.
 - ٥- د. طه حسين وقضية الشعر، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.
 - ٦- العقاد وقضية الشعر، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.
 - ٧- خمسة من شعراء الوطنية ، للمجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.
 - ٨- شعر إسماعيل صبرى، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.
 - ٩- دراسات في العصر الحديث، جامعة الكويت.
 - ١٠- دراسات تطبيقية، جامعة الكويت.
 - ١١- علي أحمد باكثير شاعراً غنائياً، جامعة الكويت.
 - ١٢- في الأدب واللغة، جامعة الكويت.
 - ١٣- تجارب وتطبيقات، جامعة الكويت.
 - ١٤- عبدالمسلم هارون : باحثاً ومحققاً، جامعة الكويت.

-
- ١٥- قراءات ونصوص ، جامعة الكويت.
- ١٦- الأدب وروح العصر، جامعة الكويت.
- ١٧- دراسات في النّص الشعري : العصر الحديث، دار قباء.
- ١٨- دراسات في النّص الشعري : عصر صدر الإسلام وبنى أمية، دار قباء.
- ١٩- دراسات في النّص الشعري : للعصر العباسي، دار قباء.
- ٢٠- دراسات في النّص للشعري : العصر الجاهلي، دار قباء.
- ٢١- حضارتنا بين العراقة والتفتح ، دار قباء.
- ٢٢- نظرات في الشعر العربي الحديث، دار قباء.
- ٢٣- الشعراء السود والحضارة العربية، دار قباء.
- ٢٤- السود والحضارة العربية، دار قباء.
- ٢٥- شعراء حول الرسول ، دار الزهراء.
- ٢٦- الشعر الإسلامي، دار قباء.
- ٢٧- الأعمال الكاملة في الشعر جـ ١، ٢، ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فهرس

- ٧ ----- مقدمة
- ١١ ----- السواد : أسبابه وآثاره
- ١٢ ----- الفخر بالأجناس
- ١٨ ----- حاجز اللون
- ٢٧ ----- هل هناك فروق بين البيض والسود وما هذه الفروق؟
- ٢٧ ----- الجنس والدم
- ٢٨ ----- الجنس والذكاء
- ٢٩ ----- الجنس والثقافة
- ٣٢ ----- الجانب النفسى من المشكلة
- ٣٥ ----- ما تأثير هذه الفروق على النتاج الألبى والغنى؟
- ٤٥ ----- هل يشعر السود بعقدة اللون؟
- هل الشعور بعقدة اللون دائم أو مرهون بوجودهم فى مجتمع
- ٤٧ ----- من البيض
- ٤٩ ----- ما حقيقة نظرتهم إلى الرجل الأبيض؟
- ٥١ ----- هل الأسود همجى؟

البنان الأقران

صلات السود بالعرب

القطر الأقران

صلات السود بالعرب قديماً

- ٥٧ ----- أولاً : الصلة بالأحباش قبل الإسلام
- ٧٦ ----- ثانياً : الصلة بالأحباش بعد الإسلام

- ٩٨ ثالثاً : الصلة بالسود عامة.
- ٩٨ الاسترقاق
- ١٠٧ الإمام
- ١٢١ استيلاذهن
- ١٣٢ رابعاً : الدولة النجاشية
- ١٣٣ خامساً : كثرة السود بعد مجيء الإسلام
- سادساً : مكانة السود بين العرب فى الجاهلية والإسلام
- ١٣٨ وهل دامت المساواة التى دعا إليها الإسلام
- ١٦١ سابعاً : ما مدى اندماجهم فى الحياة العربية؟
- الفصل الثانى

التصادم مع المجتمع

- أولاً : كيف حدث التصادم معهم بعد الإسلام، وإلى أى حد
- ١٧٣ وصل هذا التصادم؟
- ثانياً : ثورة الزنج بالبصرة: أسبابها ، ومذاها ، وآثارها ، ودور
- ١٨٢ قائدها
- ثالثاً : الشعوبية ونصيب السود منها ٢١٥

المبحث الثانى

صلات السود بالعرب حديثاً

- ٢٢٧ صلات السود بالعرب قديماً
- ٢٢٩ صلات السود بالعرب حديثاً.
- ٢٣٧ أشهر المصادر والمراجع

هذا الكتاب

... نحن لا ننسى أن مصر بلد في إفريقية، وأن الإفريقيين في مقدمة ما يفخرون به أن الحضارة ولدت في مصر، ولهذا كان من الطبيعي أن تتعرف مصر على كل ما يتصل بإفريقية، وأن تقف إلى جانبها قديماً وحديثاً، وقد أخلص كل منهما للآخر.

فهذا الكتاب الموثق تعرض في أول الأمر إلى السواد : أسبابه وآثاره، وكل ما يتصل به، فقد تكلم فيما تكلم عن الجنس والدم، والجنس والذكاء، والجنس والثقافة.. الخ كما تكلم عن صلات السود بالعرب، وكيف امتدت هذه الصلات، فهناك الصلة بالأحباش قبل الإسلام والصلة بالأحباش بعد الإسلام، والصلة بالسود عامة، إلى جانب مكانتهم في الجاهلية والإسلام، وهل دامت المساواة التي دعا إليها الإسلام، وما مدى اندماجهم في الحياة العربية والمصرية؟

وأخيراً كيف حدث للتصادم معهم بعد الإسلام، وإلى أي حد وصل هذا التصادم، وكما يستمر هذا اللقاء، والاحتكاك في الماضي يستمر في الحاضر حباً ومودة، ويقدم صورة موضوعية على صلة هذا الإنسان بالعرب عامة، وبمصر خاصة، في توثيق مؤكد.

أحمد غريب